

العدد الثاني عشر
أذار-2021

حرية التعبير دون قيد أو شرط



عشر سنوات على انطلاقة الثورة السورية

مجلة تعنى بشؤون الفكر و الثقافة والإبداع
تصدر عن رابطة الكتاب السوريين



العدد الثاني عشر – أذار 2021

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدرها رابطة الكتاب السوريين



https://www.syrianwa.net

المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة أوراق على البريد الإلكتروني:

awraq@syrianwa.net

صفحة الرابطة في موقع فيس بوك

https://www.facebook.com/Syrian-Writers-Association

الفهرس

عشر سنوات من الأمل والانكسارات اللاحقة

أنور بدر

رئيس التحرير

كانت الثورة منذ البداية فكرة وطموح وتوق للحرية وللتغيير وتمرد على الواقع وسلطة الاستبداد والفساد، وهي في كل ذلك لا تأتي من فراغ، أي أنّها تحمل أسبابها ومبرّراتها في ذاتها، ومع ذلك لن تكون الثورة أبداً قادرة على الانتقال من مستوى الفكرة والطموح ومن حيز الرغبة بالتمرد إلى حيز الواقع والممكن إن لم تتوفر ميكانيزمات وآليات ليست إرادوية، وهي غالباً غير قابلة للسيطرة أو للحسابات الفيزيائية والزمنية، وهنا تَظهر مساوئ القياس على الانقلابات العسكريّة التي أصرّ جنرالاتها خلال العقود السابقة على اعتبارها ثورات، وتقدّمية أيضاً.

ولأنّ ميكانيزمات وآليات الثورة ليست إرادوية ولا تخضع لتوقيتات ومقاييس انقلابية، نستطيع فهم عجز كل محاولات التغيير التي اشتغل عليها السوريون وقواهم السياسية لعقود طويلة، فيما كانت شرارة البوعزيزي وحدها في تونس مطلع عام 2011، كافية لإشعال انتفاضات الربيع في أغلب دول المنطقة وصولاً إلى سوريا، ولاحقا في موجه ثانية شملت السودان والجزائر ولبنان والعراق أيضاً.

ومن المحزن حقاً أن كل تلك الانتفاضات أو الثورات عجزت حتى الآن عن تحقيق أهدافها التي انطلقت من أجلها، سواء في مستوى الحصول على الحرية والكرامة، أم لجهة تأمين عدالة اجتماعية وحد أدنى من الأمان الاقتصادي والمعيشي، أم لتغيير بنى الاستبداد والفساد إلى دولة المواطنة المتساوية، وهذا لا يؤشر إلى فساد فكرة الثورة، بقدر ما يؤشر إلى فساد هذه الأنظمة الشمولية التي التهمت الدولة والمجتمع، وإصرارها على البقاء بأي ثمن، حتى لو أدى الأمر إلى تدمير مجتمعاتها وأوطانها، عملاً بمقولة

"الأسد أو نحرق البلد"، كما يؤشر ذلك أيضاً إلى هامشية السرديات الغربية فيما يتعلق بحقوق الإنسان والدفاع عن الحريات العامة للشعوب.

ففي البدايات كنا مانزال نحفظ أسماء الشهداء وتواريخ المجازر التي ارتكبها النظام، ونحلم بيوم أفضل لسوريا ولكل السوريين، وفيما بعد أصبح مؤلماً جداً بالنسبة لنا أن يتحول الضحايا إلى مجرد أرقام في عداد الموت الذي لم يتوقف حتى الآن، رغم توقف المنظمات الدولية عن العد بعد السنة الثالثة، فحساب الخسائر والانكسارات وخيبات الأمل، قتل الإحساس بفداحة ما يجري، لدرجة أن المفوضية الأوربية تعتبر أن سوريا الآن لم تعد على جدول الاهتمامات العالمية، رغم تأكيدها أن أكثر من 60 % من السوريين أضحوا في خانة انعدام الأمن الغذائي، ناهيك عن أعداد النازحين واللاجئين، وربما يشكل قرار المفوضية الأوربية محاولة لتخفيف العبء النفسي والضغط العاطفي تجاه انتقال الصراع من مستوياته السياسية إلى مستويات اقتصادية مع انعدام كل أسباب الحياة ليس في سوريا فقط، بل وفي المنطقة عموما.

الإشكالية بسيطة بالنسبة للمعايير الغربية، فالأسد يقتل شعبه ولا يقتل الأوربيين وفق تصريح الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، دون أن يستطيع الربط بين قتل الأسد لشعبه وبين عمليات انتاج وتصدير قتلة وجهاديين إلى العالم كله، إلا أن ذلك ينسجم مع مشاريع كثيرة لتفكيك المنطقة بعدما غدت دولها فاشلة بكل المعايير الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والسياسية، فسوريا "بلد الرمال والموت" وفق تعبير ترامب غير المأسوف على مغادرته البيت الأبيض، مع أن بديله جو بايدن لم يستطع حتى الآن أن يرى سوريا وباقي دول المنطقة إلا كجزء من صفقة التفاوض مع إيران.

لدول العالم دائما حساباتها التي تنبع من حيّز مصالحها لا أكثر، لكن هذه الحسابات لن تكون مقنعة للسوريين الذين عاشوا المقتلة وخسروا الكثير من أجل أن لا يستمر طغيان هذا النظام، والسوريون لم يعودوا يملكون الآن ما يَخشون فقدانه وفق الاستعارة الماركسية، إذ أصبحنا كشعوب خارج حسابات العالم المتحضر، لكنّ هذا العالم

المتحضر اكتشف مؤخرا مع ثالث مبعوث دولي لسوريا، وربما يكون الأسوأ في هذه المهمة "ستيفان ديمستورا"، لكن بعد مضي سنتين ونيف على مغادرة موقعه، أنّ سوريا لم تعد في خطر حرب شاملة، لكنها ما تزال في خطر الانهيار، مضيفا أن "بشار الأسد ربح تقريباً الحرب في سوريا، لكنه لا يزال بعيدا عن ربح السلام"، وهو ما يسبب قلق داعميه الطامحين لإعادة جني فوائد استثماراتهم التي دفعوها لتحويل الثورة إلى حرب أهلية.

وفي النهاية يستطيع العالم أن يكون مطمئنا، لأنّ الثورة باقية ببقاء أسبابها المستمرة منذ خمسة عقود ونيف على ديكتاتورية هذا النظام، وأنّ السنوات العجاف التي عجزت فيها شعوب المنطقة عن تحقيق أحلامها بدولة المواطنة المتساوية وفي الحرية والكرامة، لن تستطيع اغتيال هذه الأحلام ثانية، حتى لو نجحت مسرحية إعادة انتخاب بشار ثانية وثالثة، فالشعوب هي التي تبقى في النهاية بعد أن يرحل الطغاة، وأختتم بعبارة الصديق حسان عباس الذي رحل قبل أيام من هذه الذكرى حين كتب بذات المناسبة عام 2014، مستعيرا عبارة غاليلو الشهيرة "ومع ذلك ... فهي تثور".

ومع أن البعض يمكن أن يجادل بأن الثورة انتهت أو سرقت أو تحولت إلى حرب أهلية أو سوى ذلك من المصطلحات، فإن ذلك لا يغير من حقيقة راهنية الثورة واستمراريتها كفكرة وكطموح وكضرورة لصنع حياة أفضل لسوريا وللسوريين.

الملف

عشر سنوات على انطلاقة الثورة السورية

تقديم وشكر.

تتقدم هيئة تحرير مجلة "أوراق" من كل الزملاء والأصدقاء الكتاب والأدباء والباحثين والفنانين والإعلاميين الذين ساهموا معنا في ملف هذا العدد بذكرى مرور عشر سنوات على ثورة الحرية والكرامة، وأغنوه بآرائهم المتباينة وملاحظاتهم الذكية، عبر إثارة أسئلة الثورة بأبعادها الإنسانية والاجتماعية والثقافية.

هل ما يزال سؤال الثورة قائماً؟ أم أن الانكسارات ومآلات الخيبة نقلتنا إلى ضفة أخرى؟

هل الثورة مجرد حسابات للربح والخسارة؟ أم هي صيرورة لصنع ما هو أفضل للإنسان والمجتمع؟

وإلى أي درجة يمكننا امتحان أفكارنا باستمرار في هذه المساحة من الفعل والإبداع؟

كان لكل هذه الأسئلة حضورٌ في مقاربات الكتاب وفي مشاركاتهم الإبداعية أيضاً، انطلاقاً من أثر هذه السنوات في تجاربهم ووعيهم، على المستوى الشخصي أم الجمعي أيضاً.

وفي الوقت ذاته نشكر كل الذين ساهموا في مواد الدراسات والترجمة والابداع شعراً وقصةً ونصوصاً، والتي تؤكد حرص هؤلاء الكتاب والمثقفين السوريين وأصدقاؤنا جميعاً على المساهمة والمشاركة بدورهم الريادي والتطوعي في دعم مجلة "أوراق" التي أضحت ورشة عمل وابداع لكل السوريين.

كما نتقدم بشكر خاص للصديق الشاعر والفنان التشكيلي سهف عبد الرحمن الذي ساهم معنا في تقديم ملف تشكيلي غني لهذا العدد، وزودنا بكل الرسومات الرائعة التي زينت صفحات أوراق 12.

هذا الجهد وهذا العمل التطوعي من قبل الجميع يؤكد لنا باستمرار أن السوريين ورغم الانكسارات المؤلمة ورغم الخيبات المتعددة التي عاشوها في العقد المنصرم ما زالوا يملكون أحلامهم الجميلة، وما زالوا قادرين على العمل والعطاء، مما يحثنا في رابطة الكتاب على أن نكون جزءاً من هذا الحلم ومن هذه الورشة السورية التي تعمل بأكثر من طاقتها لدعم تلك الأحلام من أجل غدٍ أفضل لسوريا وللسوريين، غدٍ يقوم على شعارات الثورة الأولى التي نادت بالحرية والكرامة وطالبت بدولة مدنية ديمقراطية لكل مواطنيها.

هيئة تحرير أوراق

تجرّأنا على الحلم!

إبراهيم العلوش

كاتب سوري

ما إن رفع القاشوش صوته بأغنية "يالله ارحل يا بشار" حتى صارت آلاف الأغاني التي تمجد القائد وأبو القائد مجرد كومة من النفايات، اعتباراً من أغاني تمجيد أبو سليمان وأبو باسل حتى أغاني تمجيد أبو حافظ، صارت كلها مجرد أكوام من الزبالة تنتظر من يرحّلها بلا رجعة!

وما ان انشق أول جندي وأعلن أنه يرفض إطلاق النار على المتظاهرين المدنيين حتى صارت رتب جيش الأسد وأوسمته مجرد شارات بلاستيكية تليق بالدمى، ولا علاقة لها لا بالشرف العسكري ولا بالوطن الذي يحلم به كل السوريين!

لقد تجرأنا على الحلم وهتفنا ضد الظلم وضد الاعتقال وضد التعذيب، وأعلنّا عن حقنا في الحياة بكرامة، ولم نعد نقبل بفرع المخابرات كرمز للوطن، ولا كمزار مقدس على السوريين أن يزوروه حاملين الرشاوى والنفاق والخوف الذي يهدر كراماتهم!

وما إن انطلقت المظاهرات قبل عشر سنوات في آذار 2011 حتى تغيّر السوريون، فأنوار الحلم بالتغيير، وحلم الحرية حوّل كل منتجات نظام الأسد إلى رماد.. والكتب التي تمت فبركتها في كل مناسبة لتمجيد إنجازات القائد الأبدي وابن القائد الأبدي وكل عائلة وأقرباء القائد الأبدي تهاوت، إذ لم يعد الخوف قادرًا على إجبار الناس على الركوع حتى في المعتقلات!

لقد خرجنا من القمقم ورأينا أنفسنا خارج معادلات العبودية الأسدية، ورغم القصف بالبراميل والصواريخ ورغم كل قوى الاحتلال التي جلبها تجبّر النظام الأسدي فلم يتراجع السوريون عن الحلم بالكرامة، لقد هجرنا بيوتنا وسكنّا في البراري وفي المدن الغريبة وخسرنا أملاكنا وتعب العمر ولكننا لم نعد قادرين على العودة إلى الكهف الأبدي الذي صممته عائلة الأسد وخبراؤها للسوريين ولمستقبلهم!

أجل لقد تجرأنا على الحلم ولم نعد قادرين على الكتابة ضمن الجو المخابراتي الذي فرض على كتابنا الانحناء إلى حد الإحديداب، لم نعد قادرين على العودة إلى التاريخ من اجل تحميله بعض الإشارات والتعبيرات التي تشير إلى الحاضر الأمني وحالة الاستبداد المطلق!

لقد أجهض نظام الأسد خلال خمسين عاما الحلم السوري وخرجت أجيالنا لا تعرف إلا منجزات القائد وأبي القائد وصار الإبداع الأدبي والسياسي شبه منقطع، وظللنا نعتاش على ما أنتجه جيل الستينات والخمسينات الذين استطاعوا أن يتذكروا شيئا من كرامتهم ومن حريتهم، لقد تعلّبت أجيالنا في السبعينيات وما بعدها وصارت تعتاش على الأجواء التي تسمح بها تعليمات فروع المخابرات وعلى شعار قائدنا إلى الأبد والمسيرات التهريجية التي يسوقون بها الناس إلى الساحات العامة لتكريس عبادة الدكتاتور والاعتراف بالخوف كجو طبيعي لكل سوري يحيى في ظلال "التعذيب المجيد"، وبعدها في دولة "التطوير والتحديث والبراميل المتفجرة"!

آن لأدبائنا ولكتابنا أن يقتلوا الشرطي الذي في رؤوسهم، وآن لهم أن يخرجوا من جوّ الروايات التي كرّسها نظام الأسد والتي يكون الأبطال فيها مجرد أبواق للشكوى وللتعبير عن العجز وفقدان القدرة على الفعل، آن لنا أن نتجرّع الخسائر التي منينا بها وألا نعود إلى أجواء العجز رغم ضخامة المعاناة وألا نلجأ إلى مجرد تكريس المظلوميات في ضمائرنا وفي إبداعنا، بل يجب أن نكرّس الحريّة والقدرة على الفعل والعيش بكرامة!

لقد عاد هاني الراهب إلى التاريخ في رواية الوباء من أجل أن يلتقط أصول الضابط الأسدي المستثمر في الفساد وفي الخوف مثل عبسي ورفاقه في فروع المخابرات الذين انتهجوا التعذيب كأسلوب لإدارة البلاد، وعاد الكثيرون غيره إلى التاريخ، ولكن المعالجة كانت تتسم في نهاياتها بالخوف وعدم القدرة على الصراحة بسبب وطأة المخبرين الأدباء والمخبرين الأيديولوجيين والمخبرين الدينيين!

هتافات آذار التي ابتدأت قبل عشر سنوات ما تزال تستعر في نفوس السوريين وتلاحق جذور الخوف من أجل تحرير الإنسان السوري من الاستبداد السياسي ومن الاستبداد الطائفي ومن الاستبداد الديني والقبلي!

نعم لقد خسرنا الكثير من الشهداء ومن أهلنا ومن أخوتنا، وخسرنا بيوتنا وخسرنا البنية التحتية لمدننا التي دفع السوريون دمائهم من أجلها قبل أن تعفّشها عائلة الأسد ومخلوف وشركائهم، وقبل أن تعفشها قطعان الشبيحة، وقبل أن تطوّبها إيران وروسيا وأمريكا وتركيا، وقبل أن تمتد ذراع الإرهاب الديني والطائفي على أعناق السوريين وتخنقهم بإرهابها الذي يعتبر امتدادًا لإرهاب المخابرات الجوية والعسكرية ومختلف أنواع المخابرات.

ولكننا لن نندم على المطالبة بكرامتنا، فحلم الحرية سكن فينا، ولم نعد قادرين على اقتلاعه من قلوبنا، ولن تستطيع أيّ مسرحية دولية اعادتنا إلى الكهف الأسدي.

وياالله ارحل يا بشار!

عشر سنوات على الثورة: إقصاء المثقف إخصاء الثقافة

محاكمة أولى للمثقف والسلطة!

إبراهيم اليوسف

كاتب كردي سوري

لاشك أن الثورة السورية، على نظام البعث الذي كان الأسدان: الأب والابن مجرد مترجمين لرؤاه ومنطلقاته- داخلياً وخارجياً- في أبشع أشكال الممارسة الحضيضية، ولا أقول: كانا مجرد تجليين، تأخرت- أي هذه الثورة- عقوداً، إذ إن هذا المولود الزنيم - البعث- الذي استجلب معه كوارث هائلة بالنسبة للبلاد التي عانت من القمع والاستبداد، بعد أن أرسى دعائم مرحلة من الظلم والفساد دفع السوريون ضريبتها طويلاً، وتحولت سوريا، في ظلها، إلى ثكنة عسكرية، بل إلى مزرعة للطغمة الجائرة أو العاتية التي حكمت البلاد بالحديد والنار، وما استعداء السوريين على بعضهم بعضاً، كما أظهرت ذلك حرب النظام عليهم إلا من نتائج هذا الانقلاب البغيض في توجيه بوصلة مركبة سوريا تجاه المصير الذي آلينا إليه، وندفع ثمنه كسوريين، غالياً، سواء بالنسبة إلينا ممن هجرنا من بيوتنا ومدننا قبل الثورة، أو بعد انطلاقتها، أو هؤلاء الذين هجروا ضمن الوطن أو ظلوا في مدنهم لا يأمنون على مصائرهم لحظة ما، في ظل تفكك الرباط الروحي نتيجة مجمل سياسات القمع والجور وآليات العنف وتحكم أجهزة المخابرات بالناس، وكم الأفواه، واغتناء طغمة حاكمة على حساب جوع أو تجويع الأكثرية، وغياب الطبقة الوسطى التي كان لها دور إيجابي في تطور البلاد، وكل ذلك صورة، أو أنموذج مصغر تمهيدي للواقع الذي أفرزته الحرب، بعد بروز أمرائها

العابرين- وبات كل سوري: موالاة ومعارضة، مطلوباً من قبل جهات كثيرة، بعد أن أصرَّ رأس النظام على التمسك بكرسي الحكم، وأشعل وطيس حربه على الشعب، ما أدى إلى ارتفاع مؤشر عداد الدم، ليكون هناك مئات آلاف الضحايا، ناهيك عن مليونين من الجرحى أو من أصيبوا بأمراض سيكولوجية ناهيك عن جراحات فقد الأهلين والجيران والوطن، وهكذا بالنسبة إلى ملايين المشردين، داخل الوطن، أو خارجه ومن بينهم أصحاب العقول الذين بتنا نخسرهم، وتظهر أسماؤهم تترى في بلدان مضيفة- لاسيما في أوربا- كأصحاب منجزات في ميادين متعددة، في الوقت الذي ابتعد ملايين الطلاب السوريين، في المراحل الدراسية، جميعها، عن مدارسهم، وجامعاتهم التي بدا التعليم فيها صورياً، على امتداد عقد زماني كامل!

أعترف، أنني من هؤلاء الذين خيل إليهم، بداية، أن نظام الطاغية بشار الأسد لابد وأن يسقط خلال أسابيع، أو أشهر محددة، بعد بدء الثورة السلمية، الطاهرة، ولن يصمد، وذلك بعد سقوطه الفعلي منذ أن خرجت مدن سورية في مظاهرات عارمة ضد النظام، ورأسه، ليعيش- عبر سندات كفالة- بعد أن تجرأ، تدريجياً، بعض داعميه: حزب الله- إيران- روسيا على إعلان تدخلهم، وذلك بعد تمرير فيتوات دعم رأس النظام، وهوما لم يكن إلا عبارة عن تمثيليات من قادة ومطابخ سياسات كبريات الدول، المتحكمة، بالمنطقة، والعالم، لتسويغ استمرارية حكم الأسد، نتيجة خطط أو لعبة أو اتفاقات ومصالح دولية، من بينها مصلحة: إسرائيل، تحديداً، باعتبار أن هذا النظام، وفي ظل الأسدين. اللعنتين، كان أكبر خادم لإسرائيل على الإطلاق. أجل، وظللت-كمواطن سوري وكمعني أو مراقب ليس من خارج المعادلة-أشحن روحي، بل أوهمها، مظاهرة مظاهرة، أسبوعاً أسبوعاً، شهراً شهراً، سنة سنة، بأن بطاقة نعي عصر الدكتاتور الأسد لابد وأن تعلن، عما قريب، إلى الدرجة التي كنت بعد ساعات النوم القليلة التي غدت- على امتداد كل يوم ولا أقول كل ليلة-من عاداتي خلال هذه العشرية الأليمة. أهرع، ما إن أستفق، صوب جهاز الكمبيوتر، أقلب أو أبحر في مواقع وكالات الأنباء، وأتنقل بين أيمة شبكات التواصل الاجتماعي، أو أضغط على أزرار الريموت كونترول بحثاً

عن هذه المحطة التلفزيونية التي كانت تدعي تبني الثورة أو تلك .عساي أجد نبأ يبعث الطمأنينة في هذه النفس القلقة المضطربة- وهي حالة كل سوري ليس منتفعاً من النظام كما يخيل إلي- ولكن من دون جدوى، لأتخذ قراراً ذاتياً بعدم الظهور على أية فضائية، بعد أن كنت أحد المشاركين فيها، أنى طلب مني ذلك، إلى الدرجة التي ظهرت- أحياناً- عبر بعض منها توسمت فيها الخير، من دون معرفة حقيقتها، مدفوعاً بتعاطفي الكبير مع ثورة السوريين التي أجدني مرتاح الضمير لأنني خصصت لها الكثير من كتاباتي، بعيد انطلاقتها، كما أنني كنت أحد الحالمين بها- ربما كأكثر السوريين- إلا أنني كنت أترجم ذلك في كتابات موثقة لي قبل الثورة، وجاءت كتاباتي بعيد انطلاقة الثورة امتداداً لها، ولن أبالغ عندما أقول أنني بالرغم من عملي- آنذاك- في إحدى الصحف الخليجية ووجود كم من العمل، إذ أنحيت جانباً كل اهتماماتي، ومن بينها مخطوطات معدة للنشر افتقدت الكثير منها لسبب كتبت عنه، وبدأت بمتابعة يوميات الثورة، ومن ثم الحرب، إذ أنجزت أكثر من مجموعة شعرية عنها" ساعة دمشق- أستعيد أبي: ديوان إيسن" حيث نصوص أولاها عن وجوه الثوار الأوائل، قبل أن تهيمن لوثات عديدة على الثورة التي طالما انتظرناها وحلمنا بها: المال السياسي- التطييف- الأخونة- التبعية- التسليح إلخ، ويتم التخطيط لمحاولة إفراغ الثورة من محتواها، وينحرف كثيرون عن عالم الثورة التي طالما وصفتها بأنها أطهر وأنقى وأعظم ثورات- الربيع العربي- قبل أن يسيء ويتسلل ويخترق أنموذجُ قطاع الطرق الخطَّ الذي وضعه- الضابط حسين هرموش- عبر تأجير البندقية، ويبقى الحريصون على سوريا، من بين المنشقين، لحماية ثورة أهلهم، بل وأهلهم، ومكانهم. كل سوريا، مهمشين، مجوَّعين، فإما أن يذعنوا، أو لا مكان لهم في خريطة الثورة!

ساعة دمشق

جاءت مجموعتي الشعرية- ساعة دمشق- والتي تأخرت طباعتها حتى سنة 2016 عن دار أوراق- القاهرة، وحملت عناوين الكثير من نصوصها أسماء الكثيرين من

الذين دفعوا حيواتهم دفاعاً عن حرية السوريين وسورياهم، من ازرع و درعا حتى منقار البطة في عين ديوار، لتكون هذه المجموعة التي كتبتها يوماً بيوم، على امتداد السنتين الأوليين من الثورة، أو ثلاث السنوات الأولى من الثورة مساهمة مني- كإنسان وكمواطن وكسوري- لأكتب عن واقع وتطلعات أهل بلدي الذين لما يزل حلم العودة إليه والعيش فيه في على رأس قائمة أحلامي، ولتكون مجموعتي- أستعيد أبي: ديوان إيسن- امتداداً لروح المجموعة الأولى، ولن يكون بعيداً عنها تناولي لمأساة- السبايا الإيزيديات- إلى جانب بطولات كوباني أو عفرين في وجه الاحتلال إلا ضمن فضاءات الحرب التي أشعلها- أصلاً- النظام، في المنطقة، ولم يكن إرهاب الراديكاليين، لاسيما ما بعد الوحشيين الدواعش منهم، إلا أحد وجوه هذه الحرب التي حاول نظام دمشق الاستفادة منه، تجسيداً وترجمة لوعيد افتراضي تم تطبيقه ألا وهو تهديد رموز النظام، بعد أسابيع من الحرب بما معناه" إن لم تتوقف الثورة فإننا سنحرق المنطقة والعالم" العبارة التي تناولناها كأهزوءة، إلا أن هذه النبوءة الكاذبة تحققت، ولهذا التحقق أسبابه الكثيرة!

إن عنونة مجموعتي بـ"ساعة دمشق" مقابل "ساعة قامشلو" كانت لها دلالاتها لدي، ومن أهمها مدى ارتباطي الروحي بالأخيار من أهلي السوريين، ولو أنني أبديت موقفاً، قبل عقد من الزمان لقلت" كل السوريين ما خلا بطانتهم" إلا أن مجريات الثورة وما اشتغل عليه النظام عبر نصف قرن من الزمن استطاعا تدمير جزء من الروح السورية العظيمة التي أتباهى بانشدادي إلى جانبها المضيء الذي عرفته، قبل هذه المحنة العشرية، وكان السوري. الشعبي. البسيط. البعيد عن محرقة النظام. خير من يجسد -من خلال وجهة نظري-أنموذجاً روحياً، جعل السوريين. جميعهم، على مختلف مكوناتهم، مميزين، وإن كان-في الحقيقة-لكل بلد، أو لكل شعب، ما يميزهما من سمات، إلا أن طوفان حرب العشر سنوات صدم رؤيتي هاتيك، بعد أن وجدت بعض النخب السورية ذاتها يتهافت في ميدان الحرب عليه، وثمة من رهن صوته في هذا المزاد العلني المفتوح والمفضوح، أو ذاك، لقاء ثمن زهيد. رخيص. بخس، ولست هنا

ضد استحصال أي كان على لقمته بشرف، إلا أن لي موقفي الأخلاقي من مساومة السوري على أخيه، في بازارات أعداء إنسانه ومكانه!

روايتي التي كتبتْها الثورة

لقد غرقت في مرحلة- ما قبل الثورة- في كتابة المقال، وضمن موجة- ربيع دمشق- سواء عندما كنت ضمن البلاد، أم بعد اضطراري للخروج من الوطن، مكرهاً، بسبب كتاباتي، وموقفي من النظام، والخطر الذي كان يهددني، ولقد بلغ الأمر بي، إلى درجة- نسيان أمر مخطوطاتي الشعرية- وعدم التفكير بطباعتها، لأنني لست من هؤلاء الذين يستطيعون- في آن- الفكاك، كتابياً، عن الحالة التي يعيشونها، حياتياً، ومن دون أن أسترسل- هنا- فإن عالم الرواية كان محلوماً به من قبلي، وأؤجل كتابة- روايتي المنتظرة- بعد تجربة أولى في غمارها لم يشأ لها أن تطبع وتنشر، إلا أن عنوان شارع بيتي- شارع الحرية- الذي كان في الأصل عنوان فصل من كتابي السيروي- ممحاة المسافة: صور، ظلال وأغبرة - بات يلح علي دافعاً بي للإقدام على مغامرة سرد من نوع آخر، هو السرد الروائي، وقد وجدتني مقبلاً على كتابتها، بعد أن تم استهداف شارع منزلي في- قامشلي- وإن تم التفجير في شارع متقاطع منه إلا أن ضحاياه كانوا، في أكثرهم، جيراني، وأعرف أعداداً منهم: شخصياً أو أسرياً، بل إن التفجير الإرهابي الذي تم ودمر بيوتات ومحالاً وحصد أرواح أبرياء هزَّ. المدينة. الحي، والشارع الذي كنت أودع في بيتي الذي يحضنه بقايا كائنات مكتبتي التي تساقطت من أرففها، بالرغم من ابتعاد موقع الحدث ما يزيد عن مئتي متر عن هذا البيت.

تابعت صور الشهداء/ الضحايا، وهكذا الجرحى، وشؤون بعض الجيران الذين لم ينج أحد منهم، أومن دفع كثيرون من بيت واحد حيواتهم نتيجة هذا العمل الإرهابي، ومن بينهم الطبيب ابن الصديق، أو طالبة الطب ابن الصديق، أو المهندسة زوجة الصديق التي لطالما استقبلتني في بيتها، أو شقيقه، أو ابنة الجيران، أو الفران، أو الصيدلاني

الطيب، أو العامل، أو من يعد الساعات المتبقية لإقامة عرسه، ما دفعني أن أعتكف على الإقدام على مغامرة الكتابة في هذا الميدان، من دون أن أضع في حساباتي التقيد بشروط الرواية التقليدية، وهوما سأفعله مع عملين آخرين من بعد هذه الرواية: شنكالنانة- جمهورية الكلب، وكلتا الروايتين على علاقة بالحرب أو هجرة السوريين، ولا أريد أن أتوقف كثيراً عند هذه التجربة، إلا في حدود ما هو مطلوب مني للتحدث فيه عن أثر الحرب على بوصلة الكتابة لدي!

أكاديمية الثورة العليا

العنوان الفرعي، أعلاه، هو عنوان إحدى مقالاتي التي كتبتها في فترة بدايات الثورة السورية، وتحدثت خلاله عن الجيل الشاب الجديد الذي حطم جدار الخوف، إذ لطالما رحت أردد: أبناؤنا معلمونا في الثورة، وغير بعيد عن هذا العالم، وإن في شأن كتابي، لا في شأن نضالي يومي، وإن كانت الكتابة وجه الثورة- الآن- ولا تنفك عنها البتة، إذ إن كثيرين من الجيل الجديد بات يبدع في مجالات الكتابة أو الإعلام، في زمن الثورة، وإن إجراء أية إحصاءات في هذا الميدان سيؤكد أن الثورة كانت- بحق- خير رحم لولادة أصحاب المواهب في الشؤون الكتابية، وإن كنت أزعم أن الكتابة في مجال الشعر قد انحسرت، أو أن ما قدم في هذا العالم لم يتجاوز ما سبق وحققته الأجيال السابقة، وأقولها ضمن حدود متابعاتي لبعض وسائل النشر، إلا أن وفرة وسائل الإعلام: المسموع والمرئي والمكتوب- افتراضاً على نحو خاص- بعد موات ما هو ورقي، قدم أعداداً كبيرة من الإعلاميين، كما أن أسماء كثيرة ظهرت في دنيا السرد، على نحو خاص، وثمة من راح يكتب مذكراته في زمن الحرب، أو روايته، وفي هذا دلالات كثيرة، أولها استمرارية التعويل على الكتابة في معادلة الثورة، بعد أن عاث العنف دماراً، وقتلاً، وتهجيراً، وإفراغاً للبلاد من سكانها، ناهيك عن ثقة حتى الأجيال التي نضجت أدواتها في أتون الثورة/ الحرب بالكتابة، على أنها في طليعة وسائل تناول تفاصيل السنوات العشر، وتوثيقها، وإن جمالياً، أو فنياً، بالرغم من حضور وثائق

التوثيق ما بعد الحداثي، إلى جانب أسلحة الحرب ما بعد الحداثية التي تم تجريبها في سوريا، من قبل النظام ومعارضته، بل ومن قبل القوى الدولية التي أوصلت سوريا إلى مهاوي الكارثية، عبر تدخلها، لمفاقمة ما هو كائن، بعد أن كان النظام يمارس تدريبات القتل، بحذر، خشية موقف الأسرة الدولية، وكانت أمام عيونه: صورة نظام صدام حسين، بل صور: زين العابدين بن علي- حسني مبارك ومعمر القذافي أو حتى علي عبدالله صالح!

الكتابة بين اللاجدوى والاستراتيجيا:

إن كنت مازلت أتصور أن الكتابة ذات بعد استراتيجي، وأن هناك ما لانهاية له من أعمال إبداعية ستتناول الثورة والحرب، ولن تتوقف الكتابة عند الأجيال التي عاشت وعانت من آفات ألسنة نيران الحرب التي كوتها، وألظتها، فإن ثمة جيلاً آخر، بل أجيالاً أخرى قادمة، من أحفاد هؤلاء، سيتناولون، لامحالة، هذه الحرب، بطرقهم، ومن منظور كل منهم، لأنها ممكنة الاستعادة وثائقياً عبر أفلام أو مسلسلات أو غيرها، وهذا من حق طفل يتمته آلة الحرب ووجد نفسه في بيت ألماني، أو إيطالي، أو سويدي، أو إفريقي، يسأل يوماً ما" من هما والداي الحقيقيان؟"" ماذا جرى لوطني سوريا؟"" لم ارتكب الطاغية المجنون كل هذا القتل؟"" لم تناوم الضمير العالمي أمام هذه المسرحية الكارثية؟" "لماذا تدخلت الدول الكبرى أو الإقليمية أو غيرها لأجل مؤازرة النظام؟". إنها أسئلة افتراضية لابد وأن نجد مثيلاً لها، وإجابات إبداعية: كتابة أو تصويراً!

أجل، بالرغم من مثل هذا الافتراض اليقيني الذي يجعلني- بعد كل خساراتي- كمحترق في أتون الكتابة أن أعول على الكتابة كمطهر، وكمعادل للوجود، إلا أنني أرى، في الوقت ذاته، أن كل ما كتب في فضاء الثورة السورية حتى الآن لم يستطع أن يؤمن قطرة حليب لطفل تهدم البيت فوق أسرته وبقي يصرخ في مهده طويلاً، ولا كسرة رغيف لطفلة صغيرة من ضحايا الحرب اضطرت لترك مقاعد مدرستها وراحت تبيع- العلكة-

أو- محارم الكلينكس- على مفارق الطرق، في مثل هذا الزمهرير الكانوني اللعين، لتؤمن ثمن دواء أمها المرملة المريضة في أحد كامبات دول الجوار، ولا أن تمنع قناصاً لئيماً أن يطلق الرصاص الغادر على رب بيت خرج في أوج الحرب اللعينة لتأمين حسوة ماء لزوجته الجريحة، إلى ما لانهاية لها من أمثلة ذهب ضحيتها السوريون. نتيجة غباء، أو هلوسة وهستيريا وجبن الدكتاتور الذي ضاقت به الأرض، في بلدنا، إلا أن قوى الشر في البلدان التي تتحكم بمصائر السوريين راحت تمدد عمر الدكتاتور وبطانته الزبانية، ثأراً من بلد كان يمكن لإنسانه لولا فكر البعث الذي أنتج هذا النظام أن يكون في عداد طليعة بلدان العالم، لا الشرق الأوسط وحده، اقتصادياً ومعرفياً وحضارياً!

الكتابة خياراً عظيماً:

لا أخفي يأسي الكبير من النخب الثقافية في بلدنا، في ظل الواقع الحالي. هذه النخب التي وجدناها غير مؤثرة أو فاعلة، منذ بدايات الحرب على السوريين، إذ إن المثقف الذي ظل في الوطن إما أنه انخرط في-لعبة الدفاع عن النظام-طوعاً أو كراهية، أو التزم الصمت، وصار بعض المنتمين إلى هذا الصنف من عداد الرماديين، ولقد وجدنا كثيرين حتى من خارج الوطن، اتخذ الموقف الخنثوي ذاته. كل هذا مقابل أعداد كبيرة من المثقفين الذين انخرطوا في لجة الثورة، من داخل الوطن، أو حتى من خارجه، وكتبوا لها، وواكبوا يومياتها، لاسيما في ظل إمكان كل مواطن عالمي أن يكون صاحب منبر، إلا أن أحداً لم يولها الاهتمام، لا النظام ولا معارضته المقصية أو المخصية، ولا أعني روح المعارضة العظيمة غير المكتراة والمهمشة والمغيبة. وإذا كنا، الآن، نتحدث من موقع الموقف من النظام، مع التحفظ بخصوص واجهات المعارضة التي ظلت تحت وطأة تأثيرات الجهات الممولة أو الحاضنة، فإن المثقف الذي اتخذ موقفه وبكل بسالة من النظام، ووقف إلى جانب الثورة، بل دخل في لجتها، لم يؤخذ رأيه على امتداد السنوات العشر، وهو ما حدث مع كتائب الكتاب الذين جندهم النظام إذ راحوا

يسوغون جرائم النظام، ويروجون لسرديته في تخوين الثورة التي مازلت أراها- في لحظة ولادتها- ومواجهتها للنظام أعظم ثورات ربيع المنطقة، في مواجهة الطغاة، وإن كنت أؤمن برأي أراه جد مهم وهو أن من جملة وسائل محاولات النظام لتدمير روح الثقافة، ورسالتها، فإنه اشتغل على تشويه صورة المثقف وعزله، على امتداد عقود، في الوقت الذي بات يقزم في عيون من عوَّل عليه من المضطهدين، وإن كان في الأمر، كما أرى، ثمة إجحافاً بحق هذه النخب، لأن المثقف- وهنا أعني منتج الثقافة غير التابع- أول من مهد للثورة، وراح يكسر هيبة الطاغية، في الوقت الذي تم فيه اختراق السياسي وحزبه، فما أكثر هؤلاء المثقفين الذين دفعوا ثمن مواقفهم من آلة النظام، وتمت محاربتهم في حيواتهم، أو لقمتهم، ليتم تحييدهم، أو تشويههم والفتك بهم، حتى من قبل بعض من دأب على الدفاع عن كرامتهم، ووجودهم، ولقمتهم، وحقهم في الحياة!

إيسن/ ألمانيا

الذكرى العاشرة لانطلاقة الثورة السورية

إيلينا كيتي*

مترجمة إيطالية

قبل عشر سنوات كنت أتابع الأخبار من تونس ومصر بحماس. بعد رحيل بن علي ومبارك، وعلى الرغم من القمع المستمر في ليبيا واليمن والبحرين، شعرت أنني على وشك أن أرى سقوط الأنظمة الاستبدادية في العالم العربي. كان هناك بعض الاحتجاجات المحدودة في سوريا قبل 15 آذار، لكن الحركة لم تكن ضخمة أبداً. قال لي زميل سوري مقيم في فرنسا: "آمل ألا تنتشر وتتسع حركة الاحتجاجات والتظاهرات في البلد، لأن النظام سيذبح الشعب، فنظام الأسد ليس مثل تونس أو مصر". لم أردّ في ذلك الوقت. لكني كنت أشعر بالعكس، وكنت أتمنى أن أرى ثورة في سوريا.

في ذلك الوقت كنت أترجم رواية "لها مرايا" للكاتبة السورية سمر يزبك، التي التقيتها في معرض تورينو للكتاب عام 2010. على الرغم من الوقت الذي كنت أقضيه في مشاهدة أخبار الثورات، إلا أن العمل في الترجمة كان يسير على ما يرام. ومع ذلك، في مرحلة ما، وجدت نفسي أشكك في ترجمة بعض المصطلحات المرتبطة بالطائفة العلوية. من واجبي كمترجمة، في مثل هذه الحالة، التواصل مع المؤلفة وإشراكها في عملية الترجمة. ولكن لم أقم بواجبي، إذ كانت الثورة السورية قد انتشرت في الفترة نفسها، بعد اعتقال بعض الأطفال في درعا ثم إطلاق سراحهم بعد التعذيب.

سمر، في دمشق، كانت توثق التظاهرات والقمع وترسل تقارير إلى عدة جرائد أوروبية. علمت أن النظام كان يراقبها. لم أرغب في إثارة المزيد من المتاعب لها من خلال رسائل البريد الإلكتروني من أوروبا، إذ اتُّهِم المتظاهرون بأنهم عملاء أجانب وخونة

لبلدهم. ذهبت إلى المكتبة وحاولت الاستفادة من المصادر القليلة التي وجدتها حول المعتقدات العلوية. تعاملت مع الكتّاب في إطار الثورة. قلت لنفسي: لا يمكنني أن أكون المترجمة التي كنتها قبل الثورة.

بعد بضع سنوات، كتب صحفي إيطالي تعليقا على مجموعتين شعريتين لفرج بيرقدار، كنتُ ترجمتُها إلى الإيطالية. لم ير فيهما إلا وثائق للوضع في السجون السورية في عهد حافظ الأسد ونوعاً من التحذير الاستباقي من القمع والحرب الحالية.

بالطبع رددت عليه بقوة منطوق القصائد وأشرت إلى قيمتها الأدبية، بما يتجاوز كل الاعتبارات السياسية. أخبرته أنه لا ينبغي معاملة الكتب في إطار الثورة فقط. وقلت لنفسي: لا يمكنني أن أكون مترجمة مختلفة عن المترجمة التي كنتها قبل الثورة.

طبعاً، هذا تناقض. ولكن هذه هي الثورة، ما دامت توجد تناقضات ونعترف بها فالثورة مستمرة، لأن التناقضات تشير إلى عدم قبول الوضع الحالي، وإلى صعوبات التعامل معه، حتى في حياة المترجمين البسيطة.

في السنوات التالية، ركزت على ترجمة الكتاب السوريين، ولا سيما الشعراء: بعد فرج بيرقدار، قمت بترجمة هالا محمد، خولة دنيا، وداد نبي، مروان علي. كل الكاتبات والكتاب الذين ترجمتهم وقفوا مع الثورة. من ناحية، كان هذا اختياري الواعي. أردت أن أرى ما جلبته الثورة للثقافة، فعملت مع بعض الزملاء المترجمين على مختارات شعرية عربية مرتبطة بالثورات في الشرق الأوسط. من ناحية أخرى، فإن أهم الكتاب السوريين، باستثناء أدونيس ونزيه أبو عفش، قد دعموا الثورة، وكانت متابعتهم جميعاً في رأيي مجرد متابعة للأدب السوري في الوقت الراهن.

***من مواليد 1979، حائزة على دكتوراه في التاريخ المصري الحديث، وباحثة ومدرّسة في جامعة ستوكهولم. تتقن العربية قراءة وكتابة، وتتحدثها بطلاقة بلكنة فلسطينية.**

أحلام اليقظة

حسين جرود

شاعر سوري

إلى أي درجة يستطيع الإنسان الفرد أن يؤثّر في هذا المجتمع؟ لا شيء.

بينما كانت أحلامنا العلمية والفنية كبيرة كان اقتناعنا بعدم قدرتنا على إحداث تغيير في السياسة أو المجتمع مسيطراً، السفر أو التفوّق العلمي أو الملّذات الفردية من أحلام اليقظة التي نعيشها، وتحقيق تلك الأشياء يخضع أيضاً للظروف والحظ.

لم يتوقّع أحد أن هذا الركود الكبير يمكن أن ينفجر، الطاغية كان إلهاً إلى الأبد، وكل شيء في مكانه، وهناك نكتة يتم تداولها أن المواطن إن اشتكى سيقول أن عدد الخوازيق في الشوارع قليل.

بل وصل الأمر إلى حدّ التماهي مع النظام وإقناع أنفسنا أن قصائد أحمد مطر ونزار قباني السياسية تتحدث عن حكّام دول الخليج وليس عن القذّافي وحافظ وصدّام. ويقال إن عادل إمام طمأن القذّافي عندما شاهد مسرحية الزعيم أنها تتحدث عن ديكتاتور من أمريكا اللاتينية أما نحن لدينا قادة ثورات.

11 شباط، يوم سقوط مبارك، بدأت أسئلة التغيير بشكل جدي: هل يمكن أن يحدث ذلك هنا؟

الثورة السورية مغدورة مثل ولادتها، تخلّى عنها الجميع. وبغض النظر عن قول النظام أنها مؤامرة فإن القول إنها مؤامرة على الشعب يستحقّ النظر، فئة هائلة من الناس – قد لا يكونون مؤيدين أو معارضين–وجدوا أنفسهم في هذا المأزق والمنعطف التاريخي.

الثورة السورية فاجأت العالم بأسره فمن الطبيعي أن تفاجئ السوريين وإذا كان النظام العالمي الذي سعى إلى تخريبها ظلّ مرتبكاً لسنوات فما حال شباب ونشطاء يخطون أولى خطواتهم في السياسة دون أن يروا أي ممارسة ديمقراطية بأعينهم خلال عمرهم القصير.

النظام العالمي لا يسمح بقيام ديمقراطية بجانب إسرائيل وتم استغلال تطورات الأمور وتجييرها لإضعاف النظام وإضعاف المعارضة وتدمير البلاد.

فإيجاد حل سياسي وإيقاف حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل شيء ليس له علاقة بالثورة بل هو واجب إنساني على سبعة مليار إنسان.

ما الذي تعنيه الثورة بالنسبة لنا؟

في آذار 2011، قال رأس النظام أنه استلم الحكم منذ عشر سنوات أي أن من كان عمره عشر سنوات أصبح عمره عشرين، كنتُ من ضمن من يتحدّث عنهم.

قبل الثورة بيومين، 13 آذار، كنت عائداً من حلب لأرى ملاكاً من الذين يظهرون في قصص هاروكي موراكامي وبانانا يوشيموتو.

أتى صوت من خلفي متسائلاً: أتقرأ جريدة تشرين؟ مشيراً إلى ما في يدي، تمّ تعارفنا بسرعة وجلسنا بجانب السائق ننتظر الانطلاق.

ولا أعرف هل منظر الجريدة الشاذ أم شَعري الخفيف –الذي يُظهِرني أكبر من عمري– أم أحلام اليقظة هي التي دفعت الملاك إلى التحدث معي.

"اليوم عيد ميلادي"، قلت له بينما أقرأ مواصفات مواليد ذلك اليوم.

"أنا كل يوم عيد ميلادي"، أجاب.

جبران خليل جبران، أشعار خفيفة، كلمات متقاطعة، برامج تلفزيونية في الفضائيات العربية، دراما سورية، أفلام خفيفة، أقصى ما تتحمّله أيامنا.

مما يجعل بدء حديث مع شخص ما يدور حول الأغنيات الشبابية أو المسلسلات.

كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً ونظارات شمسية ويشبه أحد الممثلين الكومبارس مع أن لباسه ليس بعيداً عن فيلم الماتريكس.

حدّثته عن الحب فقال لي: "لا تعرفون شيئاً عن الحب، ما زلتم على الضفاف"، وكرر كلمة الضفاف بنبرات صوتية مختلفة كأنه فرح بها.

لم أعرف اسمه ولا أي معلومة مفيدة عنه، هل هو ممثل أم رجل أعمال أم معيد في جامعة. في تلك الأيام، كنا كلنا أناساً عاديين.

قال لي إن له في قريتي أصدقاء وأحباب وأنه يزورها باستمرار.

***

عندما يسألني أصدقائي عما فعلته منذ 2012 حتى الآن أقول: "كنت أشاهد فيلماً". من قال إني أريد أن أفعل شيئاً عمر العشرين للتجريب.

نعم، تركنا أشياء كثيرة لا نحبها وحاولنا فعل ما نحب، وكنا نعاقب على هذا دائماً.

وأستطيع أن أبدأ جلسة ردح قبل إنهاء الموضوع مثلاً:

– ما تكتبه بشغف وحب ينشر بصعوبة وما تكتبه بشكل مكرّس تفتح له الأبواب.

– المتسلقون والمرتزقة يحصدون الوظائف والأمجاد ويعاقب أي شخص يملك رأياً أو موقف أو شخصية في بلاد تعيش الاستبداد في عقليات الإدارة وتعيش الدعشنة والتشبيح في المحادثات والعلاقات والأعمال.

– لا يختلف فساد المعارضة عن فساد النظام في شيء، ولا تغيب عقلية الديكتاتور. لو حظي أي رئيس مجلس محلي أو قائد فصيل بقوة ما، ماذا سيفعل؟

– كل ما يحدث غريب عنا ولا علاقة له بفكرة الثورة البسيطة وفي بداية ظهور الفصائل المتنوعة كان الأمر كوميديا جداً. ماذا يحدث؟ وماذا يريد هؤلاء؟ ومن هم؟ طبعاً النظام صنع الدواعش من قبل الثورة، فالعسكر والإرهاب لا يعيشان دون بعضهما.

– يسخر حتى المثقفون من نيتشه وماركس وأفلاطون... ويريدون ثقافة على مقاسهم ومقاس جهلهم.

– في بلادنا حتى الشخص المعتدل يريد من الناس أن يكونوا معتدلين بدرجة اعتداله نفسها، هل نعرف شيئاً عن الحرية والحضارة؟ هل نعرف شيئاً؟ أي شيء.

يكفي هذا، فلم يغب عن أذهاننا يوماً أننا مبتدؤون في الحياة ونجرب من أجل إيجاد طريق وامتلكنا ميزة رمي كل شيء بلحظة واحدة هذه الميزة التي تعني الثورة. لكننا نراوح في المكان، من بقي منا في سوريا يراوح بين البطالة وأعمال بسيطة وأكثر من أتحدث عنهم سافر.

ما زلنا نطارد السراب، ولا أظن أن أحلام اليقظة كانت أقرب أو أصبحت أبعد.



سوريا انتصار الدم على السيف

حنا حيمو

شاعر سوري

الثورة السورية تكمل سنواتها العشر هذه الأيام. لم أكن أعتقد أنها ستطول. كنت أراهن على شهر أو شهرين، وأراهن على التدخل الدولي، أراهن على السلمية ثم أراهن على السلاح، أراهن على روح الشعب وأراهن على قوته، خسرتُ كل الرهانات.

سوريا اليوم تكون قد فقدت ما يقارب المليون إنسان بكل أنواع الأسلحة البيضاء والسوداء، العادية والكيميائية، تم تهجير ما يقارب العشرة ملايين بني آدم وحواء سوريين، الى داخل البلد وخارجه. التهمت البحار والمحيطات الآلاف في طريقهم إلى الأمان، والتهمَ القجقجية ثمن بيوتهم. البنية التحتية للبلد ستحتاج إلى مشروع مارشال لبنائها، وليس هناك من يدفع لغير اثنين، النظام والقوى السلفية.

سمعنا الكثير من الأصوات من مختلف الاتجاهات: تريدون حرية؟ دولة علمانية؟ طيب تعالوا وحاربوا باسم العلمانية أو ماركس أو الشيطان، وكان ردي واحداً لا يختلف، لسنا نحن العلمانيون من فرض الحرب أو اختارها، كان العلمانيون هم من افتتح الثورة سلميّاً، النظام فرضَ انشقاق الجيش، وفرض الحرب بقتله المتظاهرين، والعلمانيون كانوا أول من أسس نواة الجيش الحر، وآخر من تحوّل إلى شحاذ على أبواب التسليح الخليجي والتركي.

هذا الموت السوري سيطول، وإن انتهت الحرب بسقوط النظام، وهذا ما سيحدث طبعاً، فسندخل متاهة الحروب الداخلية والتفجيرات والقتل على سنة الله ورسوله والمؤمنين.

ليس هناك في المدى المنظور أي بصيص ضوء في هذا النفق الذي لا أرى نهايته، لكني أستطيع اليوم وغداً وفي كل ساعة أن أقول ما يلي وألاّ أتراجع عنه: نظام آل الأسد هو المسؤول الأول والأخير عن كل ما يحدث في سوريا، النظام هو من جرّنا إلى ما نحن عليه، النظام سحق الحياة السياسية والقضائية في سوريا وحوّلنا عنوةً إلى مرتشين من أجل لقمة العيش.

نظام آل الأسد هو من خلق السلفيين الإسلاميين، وهو من جهّزهم بالسلاح والعتاد وحاربهم أمام أعيننا وتركهم يأكلون أكبادنا ويحزّون رؤوسنا ويتناحرون أمام الجميع في كل القنوات الفضائية والأرضية.

ثورة الشعب السوري المظلوم ولدت يتيمةً، اغتال عبد الرحمن بن ملجم أباها، ثم ساقها العالم بأسره إلى كربلائها، وقطع أيديي أقمارها حين طلبوا الحياة، وبقر أكباد أطفالها بسهام الحقد، ثم حزّ رأسها ووضعه على رأس الرمح وطاف به في اليوتيوب، وها هم سباياها يُباعون في كل العواصم ويعضون التراب وعيونهم لا تحيد عن اتجاه دمشق. دمشق يا أحبتي عاصمة السماء. وسوريا ستكون، كما نحن نردد اليوم عن كربلاء، انتصار الدم على السيف.



نحو مقاومة جديدة

د. سماح هدايا

كاتبة سورية

"الثورة هي التمرد الذي تحول إلى نظرية وإلى نسق"

أوكتافيو باث

تتطلّع الثورات لإنتاج نظرة جديدة للمستقبل بما يلائم أهدافها في قضايا الحريّات والحقوق والفكر والثقافة، وتطلق العنان للتغيير بإيجاد قوى وبنى جديدة مهيّأة لتغيير الواقع والمجتمع والنظام السياسي وفق هذه الأهداف؛ فماذا أنجزت الثورة السّورية بعد عقدٍ من الزمن من سياقات جديدة؟

الثورات لا تنتج التغيير المطلوب بعشر سنوات، فنضوج ذلك يتطلب وقتاً، لكنها تخلق تناقضات كثيرة وإشكاليات سياسية واجتماعية وثقافية وفكرية، تمهيداً لحقبة جديدة. وقد توعّرت الطرق أمام نجاح الثورة السورية في إسقاط النظام السياسي، بسبب الحرب المضادة والضعف الداخلي.

الحكم على الثورة السورية سلبا أو إيجابا يتطلب وقتاً ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار التضحيات العظيمة والجهود الكبيرة المبذولة في ظل حرب غير عاديّة وظروف إنسانيّة قاسية جدا. صحيح أنّ أخطاء كثيرة وكبيرة حدثت وتحدث، لكنْ لا يمكن عزلها عن ظروف سوريا التاريخية والواقع الإقليمي والدولي.

الثورة السورية مثل كثير من الثورات العالميّة، قد حوربت وألحق بها الحروب الأهليّة والفوضى والاقتتال قبل أن تنجز مطالبها. القوى التمثيليّة للثورة لا تتحمل وحدها

مسؤولية ما آلت إليه الأمور؛ فالتدخلات الدوليّة والحرب على الثورة على رأس قائمة المسؤوليّة، يتبع ذلك ما في المجتمع من انقسام، واستبداد، ثم ما ناله من استنزاف للطاقات وارتباك بسبب الحرب والجرائم المرتكبة.

انقسام

الثورة لم تبدأ بعملية التقسيم في سوريا كما يشاع؛ فلذلك تاريخ طويل ومعقّد. وقد نشأت الثورة في مجتمع منقسمٍ جداً، ويعجّ بالاختلاف والخلاف والتّباين وتنتشر فيه القيم المتناقضة والمصالح المتضاربة، استهلكته فتن التقسيم والعصبيات لتاريخٍ امتدّ أكثر من قرن، وقد أدركت الثورة منذ بداياتها حجم الانقسام وحدّته وأرادت تجنّبه؛ لذلك رفعت الشعار المقصود "واحد واحد واحد الشعب السوري واحد".

تحوّل الانقسام القائم في المجتمع إلى العلن وتموضع جغرافياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً في سلطات سياسية متعدّدة داخل سوريا، ولم تسلم أطراف المعارضة الدينيّة والحزبيّة والعسكريّة والثقافيّة من الانقسام والتناحر؛ فهي لم تتعاون وتعمل بتنسيق على مشروعٍ وطني مشترك؛ ولم تضع الاختلاف والخلاف جانبا من أجل بناء المستقبل. كما لم يتم تمكينها دوليا إلا لمصلحة ما، وظلت صلاحياتها أقل من صلاحيات منظمة دوليّة صغيرة.

سوريا منذ استقلالها عن فرنسا، عاشت اقتتالا سياسيا داخليا، ولم يدم فيها حكم وطني مستقل عن تدخل القوى الخارجية؛ فالاستعمار نظّم انقسامها الاجتماعي والثقافي والديني في جماعات حزبيّة متطرّفة بين يسار وعلمانية وقومية، ودينية، وفرّق بينها ليستمر نفوذه، وبدل أن يثمر التنوّع الثقافي التاريخي في سوريا، تحوّل لفتن عنصريّة وحرب كراهية وصراعات دموية مزّقت الشعب السوري وزرعت فيه الخوف والارتياب من الآخر، وجعلت القوى تتقاتل وتستقوي بدول خارجيّة وتعمل بما يخدم مطامعها، للوصول للسلطة وبسط النفوذ.

الانقسام على الأفكار والقيم والقضايا السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة والأخلاقيّة سهّل وصول جماعة الأسد التي استخدمت العنف وتسلّحت بالدعم الخارجي للحكم والاستئثار به وتصفية الخصوم؛ وشق نظامها الطاغي طريقه باستغلال العصبيات وإثارة الفتن وصولا إلى الحرب الأهلية ضدّ ثورة الحرية والكرامة.

لا يمكن إنكار الظرف التاريخي الانقسامي قديمه وحديثه في تعويق الثورة، وما أوجده من عدم الاتفاق على مرجعيّة سياسية فكريّة، لكن، لا حل إلا التصدي للفكر التقسيمي بالتعاون والتضامن والعمل المشترك، فهو ضرورة للوجود وليس بخيار اعتباطي. التضامن حتى لا يكون الاختلاف طريقا لتقسيم الوطن الواحد ومجتمعه ومصيره، ولا طريقا للكراهية والعداوة والتحارب.

استبداد

الأساس في الاستبداد السياسي هو قمع الحريات والأفكار الخارجة على النظم السلطوية التي تخدم مصالح السلطة الحاكمة.

كانت شعارات الثورة ضد الاستبداد والاضطهاد والعنصريّة، وضد واقع اجتماعي فيه مظالم كثيرة، ومع ذلك استمر الاستبداد في المنظومات الجديدة للمعارضة من سياسية ودينية وثقافية وتعليمية وإعلامية وبالجماعات المتنفذّة والمموّلة، ولم تنشأ سياقات متطورة وناضجة ومتنوّرة، بل أضيف استبداد جديد، وهو الاستبداد بمقولات الحرية.

انهيار الواقع السوري بعد الثورة سببه هيمنة منظومة الاستبداد والفساد التي حفرها النظام الأسدي عميقا في المجتمع، ووقعت قوى المعارضة والثورة في فخوخها؛ فإشكاليّة الشرعيّة التي واجهتها أضعفت قدرتها على المساءلة التي تتطلب شرعيّة لا تملكها بسبب بقائها الرسمي بيد النظام الحاكم الطاغية، كما تقيّد في صفوفها الموقف النقدي الفردي لعدم وجود المناخ المناسب لنمو نظام اجتماعي قيمي متماسك يحمي حريات الناس وحقوقها في القضايا المصيرية والجوهرية. ولعل قوى التمثيل السياسي

للمعارضة والثورة التي هيمنت على المشهد لم تجد أمامها طريقا لتمكين سلطتها الهزيلة سوى الاعتماد على دعم الدول الخارجيّة وتمويلها، وهو ما شكك في مصداقيتها.

المرجعيات في المعارضة استمرّت تتصرف كأنّها تملك الحقيقة والحلول، تحاول احتكار المعرفة والتمثيل سواء بالدين أو الفكر أو السياسة أو الإعلام، ممّا أخّر ديمقراطيّة الأداء السياسي، وعرقل دخول دماء جديدة واعية وذات حس وطني ناضج لتطوّر عمل قوى المعارضة والثورة وتوسع قاعدته. المرجعيات السياسية التمثيلية للثورة أو العسكريّة أو القانونيّة لا تملك الحسم والحل في سوريا، فالأمر بيد الدول الكبرى والواقع الدولي.

والممارسات المفروضة عليها بالتفاوض مع النظام وبمحادثات دستورية أمر عبثي لم يخدم الحل السياسي، بل شرعن نظام الأسد، وقد أثبتت الأيام وهن عملها وهدرها الوقت على جدول أعمال القوى الخارجيّة بدل العمل وطنياً على هيئة حكم انتقالي من الشخصيات الموثوقة.

اما الأحزاب؛ فليس هناك أحزاب حقيقية؛ لأن الاحزاب تتطلّب عملاً جماعياً مبنيا على نظريّة وأفكار سياسية مشتركة، وتتطلب حالة ديمقراطيّة، فأين الدولة والشعب المستقران للعمل الديمقراطي؟

قد تنشأ أحزاب بهدف سد الفراغ أو الحصول على تمثيل في الائتلاف وحكومته، لكنها تبقى مصنوعة لمرحلة مؤقتة. الأحزاب المصنوعة لدخول انتخابات تحت مظلة النظام القائم باسم الديمقراطية، فلا علاقة لها بالثورة وبمطالبها الوطنيّة في الحرية والديمقراطيّة.

هناك حاجة شديدة وملحّة للعمل على مرحلة جديدة تعيد النظر في الأشكال التمثيلة كلها والظاهرة في مشهد المعارضة الواسع، والعمل بتنسيق مشترك على أرض سورية واحدة وشعب واحد بتناغم مكوّناته الثقافية.

ارتباك وصدمة

الإحباط وفقدان الثقة من الصعوبات التي تواجهها الثورات ويؤخّر نجاحها. فالحرب التي أعقبت الثورة تهديم وتخريب. وليس بالسهل تقديم النظرة الجديدة والتغيير المنشود وسط الموت والجوع والضعف والخوف وانعدام اليقين والتّشتت وتداعي مؤسسات الدولة ووجود انتهازيين هنا وهناك؛ فالأولوية للسلّة الغذائية والخيمة ومياه الشرب والدواء والبقاء بأمن وسلام.

الصدمة والارتباك أمام فداحة الجرائم شغلت الناس والمنكوبين والمنخرطين في الثورة وشتّت قواهم النفسية والعاطفية في دوامة مآسيها وصراعاتها؛ مع كثرة الفئات الاجتماعية التي تضرّرت عاطفيا واقتصاديا واجتماعيا وأمنياً وفقدت أبناءها. سوريون من رواد العطاء، عملوا من البداية لمساعدة اللاجئين والأيتام والمتضررين وتنظيم أمورهم المعيشية والتعليمية، لكنّ الأعباء كانت فوق قدرتهم. واستمر النازحون يواجهون الظروف القاسية والثلوج والسيول والبرد والحرائق والاعتداء والعنصريّة في خيم بائسة. المنظمات الدوليّة والجمعيات دخلت وعملت على الإغاثة والدعم النفسي والتعليم والتوعية بالحقوق الاجتماعية والتمكين وحماية الأطفال، وأفادت في ملفات كثيرة إنسانيّة وأسريّة وتشغيليّة صغيرة؛ لكنها لم تسلم من الانتفاع والتكسّب بمأساة الضعفاء، ولم تسلم من المصالح السياسية والأيدولوجيّة التي استغلّت العمل، ولم تتمكن من تقديم خدمات مستدامة وشاملة، وعرقلت ببرامجها غير المكتملة بناء مؤسسات عمل وطنيّة وإنسانيّة ناضجة فيها الشفافية والمصداقية والمساءلة. حتى الحراك الشبابي والنسوي الذي تميز بالنشاط؛ فمستقطب منها؛ أو ملاحق من الجماعات المتسلّطة المستقّوية بالخارج، أو عامل تحت مظلتها ووفق مصالحها.

استنزاف واستقطاب

الحديث في الأشياء التافهة وإلهاء المنكوبين بها يعطي قيمة للهراء على حساب المهم والعظيم، وفي الوضع السوري فإنه جلب مزيد الاستنزاف والاستقطاب بصراعات تافهة

وطموحات ساذجة؛ فتأخر بذلك نضوج الحلول العقلانية لمواجهة المظالم القائمة. فقاعة الإعلام الجديد عزّزت ذهنية التمرد المغرور على الضوابط الأخلاقية والدينيّة والسياسيّة والاجتماعية؛ فانتشر خطاب الأهواء الشخصية وتطرّفت الحريات الفردية التي استبّدت برأيها تحت مسمى الحرية وطغت على الآخر. ازدواجية وعبثيّة دعمها واقع الاغتراب المكاني وما رافقه من انهيار مركزية الوطن ومرجعيّته كشرعيّة.

الاشتغال بتتبّع ما يعرضه الإعلام مكرّراً ومضلِّلاً من أفكار وأخبار مجزوءة وتحليلات منحازة، وما يملأ صفحات التواصل بقصص السوريين النافعة والعاطلة والانشغال الذهني بأحداثها وشخصياتها وأخبار أعلامها والدردشة في الموضوعات المستهلكة، أكبر من الوقت النافع والجهد المبذول في تأمل المشاكل والبحث عن حلول والتعاون للعمل عليها. الإعلام نما، مثل سوق جديدة، ودعم ملفات مهمة مثل المعتقلين والمعنّفين والمهجرين والقاصرات، وأسهم في التوعية بمفاهيم العدالة والدساتير، لكنّه بدأ وظل رهين الأجندات السياسية مرتبطاً بالسوق السياسي وما يحتاجه، وقد استنزف العقل السوري بخطاب الشعبوية والخصومة. هذا الاستنزاف لا ينفي جود تجارب عمل فردية رائعة سوريّة خارج إطار الاستقطاب تاقت للانعتاق من التفاهة والتدجين وعملت بالعلم والتفكير وتميّزت في واقعها.

عندما يفكر الناس بعقولهم ويعملون بها، ولا يندفعون للعمل بأهوائهم؛ فقد ينجون من شرك الاستقطاب الذي يستزف الجهود والعواطف والأفكار ويستطيعون تمييز القصص والأخبار الحقيقيّة من القصص الخاطئة والأخبار المزيفة.

الألم الكبير تطهير كبير

الغرق يجعل الانسان يتعلق بأيّ شيء حتى ينجو، ولو بقشة. تمسّكَ السوريون الأقوياء بالأمل، وأضاع الضعفاء البوصلة... الأمّل ولّد بالألم العميق تجارب إبداع. فظهرت أعمال فنيّة كثيرة وجميلة من أفلام تسجيلية وتوثيقيّة وموسيقى وغناء وقصص وأشعار وأهازيج ونحت وكاريكاتير وجداريات، كلّها أبدعت من ظلمة المحنة. هذه المبادرات

الإبداعيّة التي تحدّت بإبداعها الحرب والظلم والاستبداد، مغموسة حتى الجذور بالفعل العاطفيّ والإنساني، هي قطرات أولى في هطل الإبداع، تستحق التوقف عندها للبحث والدراسة. وحتى تنمو فنّياً، فتحتاج فكرا ونقدا جديدين يدعمانها ويرقيان خطابها.

الإبداع لا يكفي فيه الألم وصدق التجربة، لابد من كسر حاجز التقليد كاملاً، والتخلّص من هيمنة الحزبي والأيديولوجي وترك المجال أمام أصالة العقل للتفكير والتّخيّل والتجديد. عمليّة الإبداع الفني المميّزة في الثورة السوريّة ستتطوّر بتطوير الفكر والقيم وصياغة آليّة نقديّة ملائمة للمفاهيم الجديدة، وسينعكس التأمل التحليلي في تجارب الإنسان السوري خلال الثورة والحرب إيجابا في الرؤية الفنيّة.

خاتمة

الثورة بدأت وتستمر. ما حصل عبر السنوات العشر كان قاسيا وعنيفا يجب التعلّم منه والخروج بتجربة جديدة إلى مطالب سياسية واجتماعية وثقافيّة وقانونية. ولا يعني أن يكون هناك تطابق في الآراء لدى الجميع وشمولية في التفكير والرؤية، بل يعني التعاون والتآلف والعمل لردم الكراهية والنزاع والاجتماع على مشتركات إنسانية مهما كان الاختلاف دفاعا عن الوجود.

إعادة النظر بقيمنا، باختلافنا وتشابهنا، والتجهّز لمرحلة جديدة في الثورة وخلق نماذج جديدة بديلة. التحولات قد لا تكون واضحة الآن بالشكل الإيجابي، لكنها ستحصل وستغيّر الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والقانوني.

بعد عشر سنوات دامية، هل من أمل؟

سوسن جميل حسن

طبيبة وروائية سورية

"إنّ فشل الثورات سيخلق وضعاً جديداً، سيشعل شرارة صيرورة ثورية من جديد". هذا ما قال جيل دولوز، إنها حركة التاريخ ومنطق الحركة، لا توجد لحظة تشبه التي قبلها أو التي بعدها، لكن في الوقت نفسه لا يمكن فصلها عما قبلها وعمّا سيحصل بعدها، إنها جزء من السياق.

من حيث المبدأ أخمّن أن ليس من الطبيعي فصل ما قبل الثورة عمّا بعدها، أو عمّا آلت إليه الأمور، هو عقد من الزمان، أو سنوات عشر من الحرب والدمار والتهجير والفقر والجوع والانهيارات على مستويات عدة من مجتمع ودولة وفرد، صحيح. لكن هذه السنوات صدّعت كل شيء، عرّت الواقع وكشفت كل ما هو مخبوء تحت قشرته، وليس كل ما هو مخبوء سيئاً ومعيقاً، بل بقدر جحيم هذا الواقع وبقدر الصدمة التي أحدثها اكتشاف الهشاشة وسرعة تهتك النسيج المجتمعي، هناك أيضاً الكثير من المسكوت عنه صار تحت الأضواء الكاشفة، من قضايا اجتماعية ودينية وسياسية وثقافية وغيرها، نلمسها عند جيل جديد من الشباب بما يقدمون من منجز على أصعدة كثيرة، يضعنا، نحن الجيل السابق أو جيل الآباء أمام تجاربنا وجهاً لوجه، أو أمام مرايا كاشفة، هذه الحالة كان لا بد من مواجهتها، برغم كل ما قدّم البعض سابقاً من تضحيات في سبيل القضايا التي آمنوا، ويصبح السؤال عن مسؤولية النخب قبل الانتفاضة مشروعاً بل وضروريّاً. هل ما قدّمته تلك النخب من تضحياتٍ جسيمةٍ ذهب أدراج الرياح، ولم يكن أكثر من سحابة صيف؟ قبل العام 2011، تعامل النظام

بوحشية مع أي تهديداتٍ طاولته، سُجن معارضوه أو اغتيلوا، أو انتحروا "بأكثر من رصاصة"، أو تم التعامل معهم بوسائل قمعية أخرى، وما زال كثيرون منهم على قيد الحياة يروون قصصهم ومسيراتهم النضالية المعمّدة بالشوك والألم والقهر. ومع هذا لم يستطيعوا، على الرغم من صدقهم وحقيقية نضالاتهم، أن يزرعوا بذور الوعي، ويؤسّسوا قواعد جماهيرية واسعة وقوية وتعرف طريقها.

هل كان من المحتم أن تتحوّل الثورة إلى حرب؟ سؤال آخر يفرضه منطق النقد الذاتي الذي أكثر ما نحتاجه في نهاية عقد من الدم والدمار، لقد تدخّلت قوى ودول عديدة في الحرب وكان لكل منها أجندتها الخاصة وأدواتها الخاصة، إن كان لمساندة النظام او الفصائل المعارضة، لكن الأمور مشت باتجاه تقسيم سوريا إلى مناطق نفوذ متنوعة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سيطرة القوى الإسلامية الراديكالية على الحراك، وبرامجها التي تغلق الباب على أي وعد في المستقبل بدولة مدنية ومجتمع تعددي، وتقضي شعاراتها على أي احتمال بانتهاج الديموقراطية.

أخطأ العديد من النخب الثقافية في الالتحاق بالسياسة وكان من الأجدر بهم الابتعاد والاضطلاع بدورهم المطلوب وهو رصد التحولات والانزياحات والهزات الارتدادية التي تصيب جسد المجتمع والعمل على الاشتغال عليها وتسليط الضوء، فلم يكن ينقص الشعب المنكوب ما يمارس بحقه من تضليل وتجييش، فهناك وعي عام بحاجة إلى تنقية من موروث ثقيل، هناك شخصية امتثالية متجذرة، ليس بشكل فردي فقط، إنما على شكل جماعات تعيش ضمن قوالب محكمة زادتها الحرب انغلاقًا وإحكامًا، تقع على النخب الثقافية مسؤولية الاشتغال على فك أقفالها، ولا يكفي أن تنجز كتاباتهم في اللحظة الراهنة، بل يجب أن تنتمي إلى تلك اللحظة بكل متغيراتها، وهذا يميّز بعض الشيء كتابات الجيل الجديد.

في نهاية العقد السوري الدامي يمكن القول إن هناك فارقاً ما قد حدث، وأن الواقع تغيّر، ويمكن انتظار النتائج بالرغم من أن الزمن حارق بما يكفي في انتظارها، فالثورة

لا تفشل، هي تتعثر في مسيرتها، لكنها لا تسقط بشكل نهائي، بل تنهض ولا تتوقف عن الحدوث.



سؤال الثورة السورية بعد عشر سنوات

ضاهر عيطة

كاتب وروائي

ربما تكمن الإجابة عن سؤال الثورة، بعد مرور عشر سنوات على انطلاقتها، في هذا الكم الهائل من الخراب والدمار، الذي طال البنيان والعمران على امتداد الجغرافية السورية، يضاف إليه، مئات الآلاف من المعتقلين والمغيبين، والملايين من الضحايا والمهجرين والمشردين، مما يستدعي السؤال عن الغاية من كل ذلك، وسرعان ما تحضر الثورة كمستهدف رئيسي من هذه الوحشية، بوصفها حالة جمالية، بديلة عن البشاعة التي تعمل على إزاحة كل ما يناقضها، فالوحشية والبشاعة المجسدة في التنظيم الأسدي وأعوانه، لا تحتمل فكرة أن يكون للثورة حضوراً منافساً لها، يكشف النقاب عن مدى تأصل هذه الصفات فيها، ما يعني أن هذه الكم الهائل من الخراب والدمار والقتل والاعتقال والتعذيب والتهجير والتشريد، لم يكن هدفًا بحد ذاته، إنما جاء كوسيلة تهدف القضاء على ثورة، كان، ولم يزل يؤمل منها أن تحتفي بالجمال، وأن تبني وتحرر وتجمع، وتعيد الاعتبار لكرامة وكيان الإنسان السوري، وهذا تمامًا ما لا يريده التنظيم الأسدي، وعليها فكلما اضطر الإمعان أكثر في القتل والحصار والتجويع، كلما اتضح المؤشر على تجذر الثورة وفاعليتها في الوجدان السوري، ورغبتها في التطلع نحو المستقبل، لاسيما وأن الخراب والدمار والقتل بمعناه القيمي والأخلاقي، ينتمي إلى العطالة والجمود المضمر فعليًا في مصطلح الأبدية، الذي اجتهد التنظيم الأسدي على تكريسه، وعليه فمن غير المنطقي احالة هذا الخراب والدمار، وحال اليأس والعدمية التي وصلت إليها الحياة السورية، إلى الثورة، إنما مبعث ذلك يرجع

إلى الكيفية التي عوملت فيها الثورة، كردة فعل عليها من قبل جميع الأطراف الساعية للعطالة والجمود، وتشمل هنا التنظيم الأسدي، وعصاباته من التكفيريين، وروسيا وإيران وحزب الله، والكثير من العروش والممالك العربية، إذ أن جميعها هذه الأطراف سعت، وكل حسب دوره ومصالحه، لخنق الثورة، وطالما وأن منجزات الخراب المنبثقة عن تلك الأطراف، التي أخلصت لمشروعها الهمجي، ما زالت آثارها مخيمة على حياة السوريين، تبقى الثورة حاضرة بوصفها المشروع الجمالي، والإنساني البديل عن هذه البشاعة والوحشية، ولعله من المفيد الابتعاد، ولو افتراضياً، عن مشاهد الدمار والخراب، وفتح نافذة تطل على مشهدية مغايرة، تشي بمشروعية وتطلعات الثورة، وتؤكد مرارًا وتكرارًا، ما تضمره في وجدان صناعها، من توق الانعتاق من الهمجية والوحشية، وأكثر ما يتجلى ذلك، لدى جيل الشاب، سواء كانوا في الداخل السوري، أم خارجه، فقد شكل هذه الجيل العصب الأساسي للحراك الثوري، ولم يزل يواصل عمليات الخلق والابتكار والإبداع، لاسيما وأنه بات يمتلك آليات تفكير جديدة، أهلته لأن يبدع في كافة الصعد، وبغتة، وفي غفلة عنا ظهرت مواهب شابة تحتفي بكل ما هو حيوي وجمالي، وهي بما تتمتع به من طاقات خلاقة، تعمل على نحو مدرك، أو غير مدرك، للإطاحة بكل ما تم التأسيس والاشتغال عليه على مدار عقود من حكم التنظيم الأسدي، وكما نلحظ الآن ثمة آلاف من الشباب والشابات، ينتجون ويبتكرون في الفكر والفن والعلم والأدب، شعرًا ورواية ومسرحًا وموسيقى وسينما، في حين لم يزل أعداء الثورة، متمسكين بوحشيتهم وبطشهم، رافضين الانفتاح على ممكنات بديلة، حرصاً منهم على البقاء في عتمة ما هو كائن وثابت وأبدي، على عكس أبناء الثورة، الذين اختاروا الانفتاح على كل ما هو مغاير عما ألفوه في سابق حياتهم التي حكمها التنظيم الأسدي. وانطلاقاً من هذه الرؤية المستقبلية، راحوا يجربون كافة الاحتمالات والممكنات في الحقول المعرفية والفكرية والفنية والأدبية والسياسية والعلمية، ولو أنهم لم يثوروا على السلطة القمعية، وبقوا في ذلك الثبات، لما أمكن لهم أن يكونوا على ما هم عليه الآن، من تحرر في الفكر والوعي، وشغف الشك بكل القيم والمقدسات التي روج لها التنظيم

الأسدي طوال عقود، وهذا بحد ذاته حدث ثوري، ففي الشك يكمن السؤال حول طبيعة وشكل ومضمون المستقبل، وهو ما كان محرمًا الاقتراب منه، وللحؤول دون حدوث ذلك تم ارتكاب كل تلك المجازر والفظائع، ولكن رغم فداحتها ووحشيّتها لم تحقق المراد منها، وبقيت كردة همجية، تحركها البشاعة الكامنة في مفاصل التنظيم الأسدي، حين يقلق راحتها صخب الجمال والتطلع للمستقبل.



عشرة أعوام على اندلاع الحرب الأهلية في سوريا

وحل الخروج من الأزمة

عامر درويش

كاتب كردي سوري

لطالما أساء الكثيرون فهم كلمات مثل "الحرية" و"الاستقلالية" و"الحقوق"، وقد أدى ذلك إلى إطلاق العنان للعنف الذي لم يتوقف حتى الأن.

وبالماضي وتحديداً بين عامي 1642 و1651 حدثت حالة مماثلة في إنجلترا، عندما دخلت البلاد في حرب أهلية. في ذلك الوقت، دفع الوضع الشاعر الإنجليزي والمترجم والطبيب والفيلسوف توماس هوبز إلى كتابة أهم عمل في حياته (اللفياثان) لإنقاذ بلاده من الحرب الأهلية الدموية.

يمكن أن تكون "الحرية والاستقلالية" كلمتان خطيرتان عند جمعهما معاً، حيث يمكن أن تؤدي الحرية، بأقصى حدودها، إلى الفوضى، وقد ينخرط البعض في السعي وراء الحرية في أفعال تشمل إزهاق أرواح الآخرين، وكما رأينا على مدار السنوات العشر الماضية في سوريا. فالحرية تشمل السماح للإنسان بإيذاء الآخرين.

وقد أعتقد هوبز أن الفهم الخاطئ للحرية تسبب في الكثير من المشاكل في الوقت الذي كان يُنظر فيه إلى الحرية، على أنها تعبر عن الحياة بشكل مستقل بعيداً عن السلطة التعسفية في ظل دولة حرة، وكرجال أحرار ومعارضين للملكية.

كان تعريف "الرجل الحر" شائعاً في إنجلترا في أربعينيات القرن السادس عشر، كما هو الحال في سوريا الحالية. وغالباً ما كان مرتبطاً بالماجنا كارتا أو الميثاق الأعظم

والتعاريف الليبرالية الأخرى، مثل الحق في محاكمة حرة، والتحرر من الاعتقال التعسفي، والحقوق السياسية. وبالمثل، فإن تعريف الحرية شائع في سوريا ومرتبط بحرية الكلام والتعبير، والحقوق السياسية، وبالتأكيد التحرر من الاعتقال التعسفي.

بالقول إن "لكل إنسان الحق في كل شيء؛ حتى بالنسبة لجسد الآخر، أوضح هوبز بوضوح أن جميع الرجال لديهم الحق في بعضهم البعض عندما يكونون في حالة حرب ولا شيء يقيدهم. يلمح هوبز أيضاً إلى أن هذا الاستحقاق لجسد الآخر يؤدي إلى العنف، وأن العنف يؤدي إلى حالة حرب مستمرة". *

هذه الحالة هي حالة ما قبل سياسية للإنسان وتظهر أن البشر بشكل عام ليسوا ناضجين بما يكفي لدخول عالم السياسة. الجميع في الحالة الطبيعية يحسدون، ولا يثقون، وفي النهاية يحاربون بعضهم البعض، كما هو الحال حاليا في سوريا. هذا عندما تصبح الحياة، كما هو الحال الآن في سوريا منعزلة، وفقيرة، بذيئة، وحشيه، وقصيرة.

"يمكن تجنب هذا من خلال وجود سيادة عليا قادرة على التصرف بحزم ضد أولئك الذين يغيرون من طبيعتهم البشرية ويبدأون في قتل الآخرين من أجل الحصول على ممتلكات أو مصالح سياسية أو غير ذلك من أشكال الكسب".

لتجنب حالة الحرب، وهذه الأجواء السياسية المتوترة يتعين على الأشخاص في سوريا اللجوء إلى السيادة العليا أو الحاكم. بالنسبة لهوبز، هذا يعني أن الرجال سيعودون إلى الحالة الطبيعة حيث ستتسبب مصالحهم المتعددة في بدء الحرب ضد الجميع إذا رفضوا طاعة ليفياثان (الحاكم). فهذا الحاكم سوف يتجنب وينهي الحروب المستقبلية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الملك المطلق بمثابة قانون إلهي غير قابل للكسر للحفاظ على سلامة الجميع.

يمكن للرجال بعد ذلك التخلي عن الحالة الطبيعة من خلال الوعد بطاعة ليفياثان الذي سينقذ حياتهم من الحالة الطبيعة القاسية في سوريا. بهذه الطريقة أيضاً يدخل الناس إلى المجتمع بطريقة أكثر حضارة مما يفعلون الآن في سوريا. يتم ذلك لأن ليفياثان هو الحاكم المطلق الوحيد ذو السيادة الذي ليس لديه آخرين للتنافس معه ولإحداث صراعات كما هو الحال في الحالة الطبيعة.

فيما يتعلق بحقوق الإنسان، فهي أساسية جداً عندما تكون في حالة حرب، كما يسميها توماس هوبز. هذا هو الحق في التنفس، والحق في الحركة دون خوف من القتل، والإنسان حر في أن يفعل ما يشاء، ويشمل ذلك الحركة والأكل والشرب واللباس والدفاع عن النفس.

من الجدير بالذكر، كما كان ليفياثان، أن السيادة في سوريا ستكون من صنع شعبها لكبح طبيعة الإنسان وتجنب الحرب التي كانت ستحدث في الحالة الطبيعة.

ويعزز هوبز النقطة القائلة بأن الناس جعلوا السيادة العليا وحدة حقيقية لهم جميعاً، ولكنها مدمجة في شخص واحد، تم إنشاؤها بموجب عهد كل إنسان مع كل إنسان.

هذا يعني أن الحاكم والمحكوم واحد تلقائياً؛ لا يمكن لأي منهما السيطرة على الآخر، لأن الإنسان بطبيعته (وفقاً لهوبز) لا يحب أن يتم السيطرة عليه.

أعطى هوبز الناس القدرة على إنهاء السيادة متى أرادوا، ويمكن للشعب السوري أن يفعل الشيء نفسه. عندما يتوقف ليفياثان عن حمايتهم، عندها يمكنهم اتخاذ قرار جماعي بإزالته أو استبداله.

ليس هذا فقط، ليس فقط يمكن للشعب إنهاء السيادة عندما تنتهي الحماية، ولكن يمكنهم أيضاً إنهاؤها متى اعتقدوا أن صاحب السيادة لم يعد مفيداً لهم.

هذا يعني أن الأشخاص في اقتراح هوبز هم الحكم النهائي على مصيرهم، وهم من يقررون من يحكمهم ومتى، وهو أمر يمكن للشعب السوري فعله.

لذا فإن كلمات هوبز تحد من إساءة استخدام السلطة السيادية وتقوضها وتمنعها. وهذا يجعل صاحب السيادة الحامي المطلق، هو المصدر الذي يوفر الأمان إلى الأشخاص، من ناحية أخرى سوف يكون لديهم الحق المطلق في إنهاء السيادة عندما ينتهي الأمان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السيادة العليا تمثل الشعب، فلها نفس الحقوق التي يتمتع بها الشعب، مما يعني أن الاعتداء عليها هو اعتداء على أحد أفراد الجمهور. بهذه الطريقة، إذا قرر الأفراد في سوريا مهاجمة صاحب السيادة، في ذلك الوقت، يجب على السيادة العليا الانتقام، لأن هذا هجوم على جميع السوريين.

عندما يتم تحقيق هذا التعاون بين جميع الأطراف، ستصبح الحياة غنية؛ إن إشارة هوبز إلى "قناعات الحياة والشعور بالرضا"، دون الخوف من فقدان الأمان، هي القول بأن الإنسان يتمتع بالحرية والحرية التي تتجاوز المعنى المادي لأي عائق. إنه السماح للإنسانية بالازدهار حيث أن الأمان يولد المعرفة، ومن ثم يحول العلم إلى نجاح اقتصادي، وهكذا.

وبهذه الطريقة يتم استبدال طاعة الإنسان في سوريا بالسلام والأمن وحماية الممتلكات ودرع مادي شامل من الموضوعات الأخرى، وهذا بدوره سيؤدي إلى ازدهار المجتمع واقتصاده.

حيث سيتم التخلي عن حق الإنسان في العنف، ولكن ليس حقه في الدفاع عن نفسه؛ بعبارة أخرى، عندما يهاجمه شخص ما، سيردّ عليه، لكن لا ينبغي أن يبدأ العنف.

أصبح ليفياثان بهذه الطريقة اقتراحاً مطلقاً، حيث يمكن للشعب السوري أن يصنع الحاكم. هذا يسمح للإنسان أن يقرر مصيره ويمنحه الحرية الحقيقية. كفل اقتراح هوبز السلامة، وحماية الرعايا، والحرية، وحماية الملكية، وحماية الحقوق، والحق في سن القوانين، والحرية الشاملة لتغيير السيادة عندما تكون غير كافية.

نعم، ليفياثان هو المطلق في توفير كل هذا، ولكن قبل كل شيء، فإن ليفياثان ليس مطلقاً في الدلالة الاستبدادية السلبية للكلمة. لم يستطع هوبز توضيح الأمر بشكل أكبر عند الإشارة إلى الليفياثان على أنها "عهود بدون سيف".

عندما يقطع الإنسان علاقته بالسيادة العليا، في ذلك الوقت ستعود حقوقه وحريته في العنف مرة أخرى وستبدأ الحرب من جديد. هذه ليست وصفة للديكتاتورية أو الاستبداد، ولكنها وصفة لعيش الحياة بأمان دون تفكير، "هل يمكنني مغادرة المنزل والعودة إليه بأمان؟" إنها وصفة لإنقاذ الأرواح.

لا يهم من يحكم سوريا طالما أنه يظهر الحكم السليم والقدرة على كبح جماح العنف، وإعطاء الناس الحق في العيش مرة أخرى دون خوف من التعرض للقتل، لأن هذا هو "الحق" الأهم للجميع.

وسواء كان الحاكم يُدعى بشار، أو بطرس، أو بولس، أو أياً كان –فهو الأمن والأمان الذي يحتاجه شعب سوريا وليس مجرد حرية التعبير أو التحلل من القيود.



ثورة أم حرب أهلية؟

سجال "الليفياثان" في نسخته السورية

أنور بدر

رئيس التحرير

بداية أحب التأكيد أنّ "رابطة الكتاب السوريين" منظمة مدنية تنتمي لثورة السوريين ضد نظام الفساد والاستبداد الذي حكم سوريا لعقود خلت، وبالتالي المنظمة ومجلة "أوراق" هي مساحة ومنبر لكل الكتاب والمثقفين السوريين الذين يؤمنون بسوريّتهم وحقهم بدولة المواطنة والحرية والكرامة، ولا ينتمون لنظام الطاغية المستبد، ولا يدافعون عن فساده وجرائمه بحق سوريا والسوريين، فهذه الشريحة التي نعرف أنها موجودة لها منابرها وتنظيماتها التي غادرناها منذ بدأت الثورة.

واليوم بمناسبة مرور عشر سنوات على ذكرى انطلاقة الثورة السورية فتحت مجلة "أوراق" ملفها لسؤال الثورة بعد عشر سنوات، وقد جاء هذا الملف غنيا بمشاركاتٍ لطيف واسع من الكتاب والمثقفين السوريين، عبروا من خلاله عن موقفهم من هذه الثورة ومن انكساراتها وخيبات الأمل التي مرت بها، كما وردتنا مشاركة وحيدة من الكاتب والشاعر عامر درويش، يرى أن ما حصل في سوريا هو حرب أهلية وليس ثورة.

هذه الموضوعة تردد صداها في السنوات السابقة بصيغ استفهامية تارة، وبمقاربات تنعي الثورة التي انطلقت للمطالبة بالحرية والمواطنة المتساوية حين سرقت الثورة، قضيّ عليها، أو انتهت أو انتقلت إلى خانة الحرب الأهلية، وهذه مقاربات تفتح مساحة

للسجال معها، لأننا نعرف أن الذين نزلوا إلى شوارع سوريا مطالبين بالكرامة والحرية سلمياً، لم يكونوا إرهابيين، ولم يكونوا مسلحين، قبل أن تبدأ أجهزة الأمن وميليشيات النظام بقتل المتظاهرين الشجعان، واغتيال أصواتهم الحرة، لتأكيد مقولة وجود مؤامرة كونية تستهدف صمود النظام وممانعته كحامي للأقليات، وهو ما سهل الانتقال بعد عام تقريبا وبتسارع باتجاه الأسلمة والعسكرة، فالثوار السلميّين المطالبين بالحرية ليسوا هم الذين سطوا على الشارع بالعنف وحولوا الثورة إلى حرب أهلية خاسرة بكل معايير الوطن والوطنية وتوازن القوى أيضاً، لكنّه النظام أولاً هو الذي سار باتجاه العنف وقتل المتظاهرين، ولاحقاً جاءت التدخلات الإقليمية لتغذي هذا المنحى لأهداف متعددة ومتناقضة أيضاً.

الصديق عامر درويش لم يجد أياً من هذه المقدمات، ولم يرَ في كل ما حصل إلا تعبيراً عن الحرب الأهلية، مؤسسا رأيه على فهم نظري، وجدّنا في هيئة تحرير "أوراق" ضرورة السجال معه، رغم أننا لسنا معنيين، بعد كل الطوفانات التي جَرت تحت الجسر وفوقه، بسجال من يَروّن أنّ بشار أو أياً كان اسمه "هو الأمن والأمان الذي يحتاجه شعب سوريا، وليس مجرد حرية التعبير أو التحلل من القيود"، لاعتقادنا أن الأحرار هم الذين يطالبون بالحرية دائماً، والعبيد فقط من يمكن لبعضهم أن يستكين لقيوده، رافضاً التحلل منها والمطالبة بالحرية.

لكن ما يلفت انتباه القارئ أن كاتب المادة بنى كل تحليلاته على كتاب "الليفياثان" لكاتبه توماس هوبز، الذي نُشر عام 1651، مع انتهاء سلسة الحروب الأهلية التي حصلت في إنكلترا، والتي أفضت بالمحصلة إلى انتصار البرلمان على الملك الذي أُحتفِظَ له بدور رمزي، دون أن نتجاهل الجذر الديني لهذه الحروب والتي انحاز هوبز فيها لسلطة الحاكم أو الدولة كبديل عن سلطة الدين أو اللاهوت.

يبدو أن هاجس البحث عن صيغة قانونية وسياسية انطلاقا من الحقوق الشرعية للعلاقة بين الحاكم والمحكوم شغلت توماس "هوبز" في تلك الحقبة، واستمر هذا الاهتمام لاحقا

مع "جون لوك" و"جان جاك روسو" حيث نشر هذا الأخير كتابه "العقد الاجتماعي" عام 1762، وبقيّت هذه الموضوعة مسار اجتهادات لاحقة مع تطور علوم السياسة وفلسفة القانون لاحقاً، وصولاً إلى اعتماد الشرعة الدولية لحقوق الإنسان من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1948، بدءاً من حق الحياة وليس انتهاءً بحق التعبير.

لذلك يمكننا التساؤل: لماذا توقف عامر درويش مع هوبز فقط؟ ولماذا يسقط الحالة السورية اسقاطاً تعسّفياً على استنتاجات نُشرت قبل 370 عاما مع صدور كتاب "الليفياثان"، بعيداً عن سياقات الزمان والمكان التي تحرك في فضائها هوبز؟!

يُشير السيد عامر اعتماداً على فهم هوبز إلى خطورة جمع كلمتي "الحرية والاستقلالية" بحيث يُصبح "السعي وراء الحرية ... في أفعال تشمل إزهاق أرواح الآخرين، وكما رأينا على مدار السنوات العشر الماضية في سوريا. فالحرية تشمل السماح للإنسان بإيذاء الآخرين"!

أليس طريفاً هذا الفهم للحرية باعتبارها الطريق إلى إيذاء الآخرين؟ وحتى لو قبلنا بهذا الفهم، يبقى السؤال: من الذي يزهق الأرواح في سوريا؟ ومن قتل أكثر من نصف مليون سوري وفق الإحصائيات الرسمية؟، من ضرب البراميل وقصف بالصواريخ ومن استخدم الكيماوي في قتل شعبه؟ هل هم الناس؟ أم الشعب؟ أم المواطنون؟ أم النظام؟

يذهب بنا الكاتب من تعريف الحرية زمن هوبز المأخوذ من وثيقة "الماجنا كارتا" وليس من "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، بأن "تعريف الحرية شائع في سوريا ومرتبط بحرية الكلام والتعبير، والحقوق السياسية، وبالتأكيد التحرر من الاعتقال التعسفي"، ومما يثير الاستغراب حقاً، هذه القدرة على استخدام تعابير وجمل عامة مثل "تعريف الحرية شائع في سوريا"، لتأكيد مسائل قانونية وسياسية هي في حيّز الراهن والملموس، وكان بإمكان الصديق عامر الاستشهاد ببعض بنود الدستور السوري التي تكفل هذه الحريات، وهي مواد موجودة في نص الدستور، وحينها ستبدو مقنعة أكثر لقارئه، لكنه

لو كتب بهذه الطريقة المباشرة والدقيقة في الاستدلال، سيجد لزاما عليه القول أن النظام السوري أخضع البلد والمجتمع خلال العقود الخمسة السابقة لقانون الطوارئ الذي أوقف العمل بالدستور، وبالتالي سينسف الأساس القانوي لمزاعمه.

أما تأكيده "التحرر من الاعتقال السياسي، أو الاعتقال التعسفي"، فليسمح لنا السيد عامر بعدم تصديق ذلك، لأنّ هذه التعابير لم تفلح بشق طريقها إلى لغة وقواميس النظام، ويمكنه مراجعة سجل سوريا في مجال حقوق الإنسان وحريات التعبير ليكتشف أنه الأسوأ عالميا، وربما لا تصدق يا صديقي وجود سوريين أمضوا في سجون ديكتاتورية الأسد أكثر من سنوات عمرك التي عشتها حتى الآن، ليس لأنهم لجأوا إلى العنف، وليس لأنهم حملوا السلاح، وليس لأنهم إرهابيين، فقط لأنهم عبّروا عن رأيهم، أو كتبوا ذلك، ويسجل لنظام الأسد أنه لم يميّز في سجونه ومعتقلاته بين السوريين العرب والكرد والفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والأردنيين، وحتى من دول الجوار غير العربية أيضا!

هل تعرف شيئا يا صديقي عن معتقلي الرأي في سوريا، هل تعرف شيئا عن نشطاء المجتمع المدني الذين دخلوا السجن لمجردِ أنهم تحدثوا بآرائهم، وهل تعرف أنّ كل هذه الممارسات كانت خارج سلطة القضاء عبر الأجهزة الأمنية، ومن أحيل منها إلى القضاء كان مصيرها عند محكمة الميدان العسكرية أو محكمة أمن الدولة، التي أصبحت لاحقاً "محكمة الإرهاب"، وكلها محاكم استثنائية لا تتمتع بأي شرعية قانونية.

دعني أخبرك أن هذا النظام الذي تدافع عن شرعيته، جاء إلى السلطة عبر سلسلة من الانقلابات العسكرية، ولم يأتِ بطريق ديموقراطية قط، فهو الذي قتل وصفّى رفاقه في قيادة الحزب والدولة إما عبر الاغتيال المباشر أو في السجون، وهو الذي هجّر الكثير من السوريين عرباً وكرداً كي يستولي على ممتلكاتهم، كما أمم المصانع والشركات، في سبيل بناء عالم اشتراكي وردي بلغة شعرائه، لكنه في المحصلة دمّر الاقتصاد السوري، وأدار البلاد كمزرعة له ولأتباعه وعدّلَ الدستور في مسرحية من فصل واحد

لم يستغرق عرضها أكثر من دقائق قليلة، كي يتاح لنجل "الليفياثان" الذي تدافع عنه أن يصبح في لعبة الاستفتاء الديمقراطي رئيسا للأبد في سوريا.

حدث هذا كله منذ عقود مضت، وأعرف أنّ جزءاً كبيراً من هذا التاريخ حصل قبل ميلادك يا صديقي، لكنّه واقع عاشه السوريون بكل انتماءاتهم وتلاوينهم الاجتماعية والجغرافية والسياسية حتى وإن لم تعشه أنت، واقع عشناه قبل انطلاق ثورة الحرية والكرامة في آذار 2011، أما بعد الثورة فهو تاريخ آخر كتبه السوريون بدمائهم وحيواتهم حين قالوا "لا" لاستمرا هذه العائلة الفاسدة، فلم يشأ أن يواجههم "الليفياثان" إلا بالعنف والقتل مهما تعدّدت أدواته ومسمياته.

مع أنك تقدم معادلة صحيحة بأن التخلّي عن العنف لا يعني التخلي عن حقه بالدفاع عن نفسه، دون أن نعرف منك موقف هذا الانسان إذا كان العنف الواقع ضده مصدره السلطة العليا أو "الليفياثان"؟ وكيف إذا كان الأمر لا يتعلق بالعنف ضد إنسان فرد بل ضد الإنسان بحالته المجتمعية كشعب أو مواطنين أو سكان؟

المفارقة أنك تمنح "الليفياثان" كممثل للسيادة العليا حق "الانتقام من الشعب، إذا هاجم الشعب هذه السيادة"، لأنّ هذه السيادة العليا وفق هذا المنطق السفسطائي تصبح ممثلة لكل السوريين، بينما الشعب هم أعداء السوريين! ألا تعتقد أن في هذا الاستنتاج اعتداء سافر على المنطق وعلى السوريين وعلى الشعب؟

يبدوا أن استنتاجك هذا اعتداء أو تناقض مع مرشدك الوحيد "هوبز" ذاته، إذ يؤكد أن السكان/ المواطنين ليسوا ملزمين بالخضوع إلى الحكومة عندما تكون أضعف من أن تتصرف بحزم لتمنع التحزب والاضطراب المدني، ويذهب "روسو" أبعد من ذلك في حال فشل الحكومة في تأمين الحقوق الاجتماعية، أو عجزها عن تلبية اهتمامات المجتمع الأساسية، فيصبح المواطنون في حلٍّ من طاعة الحكومة، بل يذهب للحديث عن وسائل تغيير الحكومة أو السلطة بدءاً بالانتخابات وانتهاءً بالعنف إن لزم الأمر.

وقد خلص "جان جاك روسو" إلى أنّ "الديمقراطية" هي الطريق الأمثل للحكم، وربما لذلك لم ترغب بالبحث زمنيا أبعد من صديقك "هوبز" الذي أكادُ أجّزمُ أنك ظلمته بطريق اسقاط مقولاته على الحالة السورية، مع الإشارة إلى تجاوز كل الفلسفات اللاحقة: الليبرالية والهيغلية والماركسية لمفهوم العقد الاجتماعي، الذي نُصر نحن السوريون الديمقراطيون عليه الآن، إنما بصيغته التي تتجاوز استبداد القرون الوسطى، باتجاه مزيد من الربط بين الحريات وحقوق الإنسان والديمقراطية.

بعد أن اعتبرتَ الحرية طريقاً لممارسة الأذى للآخرين، تعود لتبشرنا أنها "الحرية التي تتجاوز المعنى المادي لأي عائق. إنه السماح للإنسانية بالازدهار حيث أن الأمان يولد المعرفة، ومن ثم يحول العلم إلى نجاح اقتصادي"، فهل أنت جاد في هذه الفقرة؟ وعن أي معرفة وعلم تتحدث في سوريا التي دمّر النظام أكثر من 70% من مؤسساتها التعليمية، وعن أي ازدهار اقتصادي تتحدث في مجتمع لا يجد فيه المواطن رغيف الخبز؟!

من المحزن أن يؤمن بعض المثقفين بديماغوجيا النظام "أن البشر بشكل عام ليسوا ناضجين بما يكفي لدخول عالم السياسة.... كما هو الحال حاليا في سوريا"، وتضيف بكل أسف بإن "هذا الملك المطلق بمثابة قانون إلهي غير قابل للكسر للحفاظ على سلامة الجميع" أي "الوعد بطاعة الليفياثان الذي سينقذ حياتهم من الحالة الطبيعة القاسية في سوريا".

أي حياة سينقذها هذا "الليفياثان" يا صديقي، وهو لم يكتفِ بقتل الناس، بل قتل البشر والشجر، ودمر كل أسباب الحياة في سوريا، انتقاماً وتشفياً من الخصوم، والخصوم هنا هم السوريون أخوتك وأبناء بلدك وزملاؤك في الدراسة أو مئات الآلاف ممن لم تتوفر لهم إمكانية الدراسة أو اكتشاف القلم.

أعتقد يا صديقي ببساطة أنك لم تعش في سوريا أو لم تقرأ قصص السوريين، ولم تعرف معاناتهم عبر العقود الخمسة الأخيرة من طغيان سلالة "الليفياثان"، فقراءة الكتب شيء، وقراءة الواقع والتاريخ شيء آخر يا صديقي.

مع أنني لا أفترض سوء النيّة فيما كتبتَ، لكنه يُذكّرني بمواقف أغلب فقهاء المسلمين، اللذين حَرّموا الخروج على طاعة الحاكم، كما نُقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية في إجماع التابعين على طاعة السلطان المسلم مهما بلغ من ظلم الرعية وأخذ أموالهم.



لا أريد لهذه الثورة أن تنتهي*

عبد الله الحريري

شاعر سوري

بيني وبين الرقم (10) صداقة قديمة، ابتدأت منذ ولدت في العاشر من تشرين الأول (10/10)، كانت أمي مع ساعات الفجر تصيح: "لا أريده. خلصوني" وهي في عتبة البيت الأوسط من منزلنا المكون آنذاك من ثلاثة بيوت على استقامة واحدة بين شرق وغرب (كنا نسمي الغرفة بيت: بيت غربي– بيت نُصّاني– بيت شرقي)، على ما يبدو أنها لم تكن ولادة سهلة بالرغم من كوني العاشر والأخير بين إخوتي بجنسَيهم، لكن لأبوين لم يعودا شابين كما في السابق؛ هكذا تقص أمي روايتها الثانية عن ولادتي، بعد أن أفرط جدائلها وأغسل شعرها بالشامبو والماء الساخن تتشهد بالرتابة المعتادة وتحكيها بتفاصيلها أثناء تسريحي لشعرها بمشطها الذي يحمل الذاكرة نفسها منذ ذلك الوقت، أما فيما سبق فكان لأمي رواية أولى عن ولادتي: كانت تقول إن امرأة عجوزاً من قريباتها رأتني في الحلم ولمّا أزل جنيناً في بطنها، وقالت لها: "اسم ابنك أبو علاء"، وعن الولادة قالت إنها جاءت مفاجئة وسلسلة أثناء استحمامها في عتبة البيت الأوسط بعد ساعات طويلة من العمل على ترميم سقوف البيوت قبيل شتاء كان قاسياً تلك السنة؛ الحلم (المنام) جزء أصيل من حياة الريفيين، يجاري أحزانهم الصغيرة ويلبي آمالهم، نحن مرتبطون بشيء أفضل آت لا انفكاك لنا عنه، هو ذاته الذي يذكي في نفوسنا الكرم والإيجابية تجاه الآخر وتوقع الأفضل منه ما يسميه البعض (طيبة الريفيين)؛ نحن نسميها شهامة، ويذكي أيضاً الغضب والعناد ما يسميه البعض (حيونة الريفيين)؛ نحن نسميها كرامة، ونرى في ذلك ميزة قيمية (روحية وأخلاقية) لصالحنا

عن المدن التي تصهر أبناءها في حسابات مادية تنطرح أكثر ما تنطرح تحت مسننات الكسب في مركزها، والبقاء في أطرافها، والعلاقات المحكومة بالمصلحة مع الآخر؛ هناك فارق جشع بين الحياتين يأكل من الطبيعة لصالح الحياة الإسمنتية والعلاقات المعدنية والانفعالات المروّضة.

حين دخلتُ دمشق من بابها الجنوبي فرحاً كأي ريفي أصبح طالباً في كلية الطب البشري، لم أنتبه للحُلة المتشبثة بجدران أبنيتها كصدأ رمادي، ولم يثر هواؤها الملوث سعالي، حتى إن ازدحام شوارعها بالسيارات كان من المثيرات التي لم أعتدها من قبل، أنا ابن الفضاء المفتوح والاتجاهات المتاحة، هكذا أسلمت يدي لقيد دمشق حتى تعلقت بها وانصرفت عن الريف إليها فلم أعد أزور القرية إلا كل عدة شهور، في دمشق المنقسمة بين خطي دوار شمالي ودوار جنوبي انقسامات أخرى كثيرة بين منطقة وأخرى وشارع وآخر، أما نحن الحالمين فقد ضمتنا المدينة العجوز من شتى بقاع الريف والمدن الصغيرة في غرف سرية كأعشاش العصافير في مخيم اليرموك وجرمانا وجديدة عرطوز وعش الورور والصناعة والدويلعه ...إلخ، لم نكن لنكترث بانقساماتها إنما نغشى شوارعها وحاراتها آناء الليل وأطراف النهار، نمر في أسواقها وساحاتها، قرب فروع المخابرات ودور السينما ومبنى الإذاعة والتلفزيون والنهر الذي أصبح ساقية قاذورات كالحياديين الباحثين عن أماكنهم الحيادية متكررين عليها يزيدون كل عام قليلاً وينقصون قليلاً، هكذا تركتنا أمنا نلهو في خبأة جلبابها حتى فهمناها من مطلع الحجارة حتى غياهب السجون.

سنة 2004 عاد سالار إلى غرفته كحلياً من ضرب عناصر المخابرات كما سأصبح سنة 2011، جمعتني بصديقي الكردي من ريف الحسكة كلية الطب والسكن الطلابي، يملأ نصف كأس البيرة ملحاً كلما هم بالدراسة، وحين يذهب إلى قريته في ريف الحسكة يعود بأقراص أمه من البسكويت (الكليجة)، كنت أحب أن أزوره، فلغرف الأكراد رائحة خاصة، ربما تأتي من صابونهم أو ربما من جلودهم التي تبدو وكأنها نبتت من التراب

لا من الأرحام، لا يقص الكردي، كأغلب أبناء الريف، جذوره لكي يصبح لائقاً بشوارع المدن الكبيرة وبأهلها الذين يجيدون لف ربطات العنق، لذلك يبقون كعلامات فارقة هنا وهناك، تعرفهم بالشكل أو لون اللباس أو اللهجة، عناصر الأمن كالكلاب تشم روائحهم عن بعد، حين غاب سالار عن السكن الجامعي ظننت أنه سافر إلى قريته في الأيام التي اشتد فيها التدقيق الأمني على مداخل الجامعة والسكن الجامعي، بعد أسبوعين عاد سالار كحلياً، شرب الكثير من البيرة المالحة وبكى أكثر مما شرب، أحسست برغبة عارمة بالبكاء، لكني لم أفعل، حين انتهى من نشيج طويل أشار إلى حذائه المرمي عند الباب وقال: "أخذوا رباط الحذاء أولاد الشرموطة، هل تعلم أن هناك سجناً وراء مبنى الإذاعة والتلفزيون؟"، هكذا يعلم الكردي أن طريقه طويلة وأن رباط حذائه أهم ما في الأمر! أما طريق ذلك السجن فلن يعبره بعد الآن.

تعلمت من الأكراد أن أحب بصدق، وأن أكره بصدق، تعلمت ان هناك (لا) يمكن التصريح بها، لا أقول إنه لم تكن هناك (لاءات) في الريف، على العكس، فجارنا ابن عم أبي كان يسب حافظ الأسد على الدوام، وإخوتي أقاموا حفل شواء كبير حين مات باسل الأسد وتبادلوا التهاني عند وفاة حافظ الأسد –بالنسبة لي كان موت حافظ الأسد يعني راحة يوم من سقاية أشجار الزيتون– بل أقصد (لا) بعينها تقال في وقتها كلما دعت الضرورة لذلك دون تحسب لسامعيها، وهذا ما فعلته بيريفان الفتاة الكردية أمام الوحدة السابعة قبيل استفتاء 2007 لرئاسة الجمهورية، في ذلك اليوم أوقف الدوام الجامعي وأغلقت الأبواب الرئيسية للسكن الطلابي، ودُعيَ بمكبرات الصوت للاجتماع من أجل مسيرة الوفاء الطلابية لبشار الأسد، ذهبت إلى الوحدة السابعة لاصطحاب صديقتي معتبراً المسيرة حالة سيران، وهناك صادفت بيريفان شريكة صديقتي في الغرفة، حين رأتني خلعتْ عنها قميصاً أبيض عليه صورة بشار الأسد وقالت: "كس إختو"، لم تكن بريفان واثقة بي بقدر ما كانت تريد إثبات كرديتها لنفسها، إنها لا تساوم، حين نزلنا سوياً في مجموعة واحدة انحرفنا أنا وبريفان تدريجياً حتى تسللنا ووقفنا فوق الجسر أمام وزارة التعليم العالي ننظر إلى آلاف الطلاب المجتمعين يحملون مشاعل

كان الكثير منها مثقوباً ما أدى لتسرب الوقود وحرائق صغيرة، وقفنا لوقت طويل ولم نقل شيئاً.

أصبح للجامعة نكهة أخرى منذ ذلك اليوم، فأنا لم أشارك في المسيرة، يا الله كم كنا مقموعين لنرى في عدم المشاركة في مسيرة موقفاً! لكن أصدقائي في اتحاد الطلبة دعوني لإلقاء قصيدة في خيمة حزب البعث أمام مدرج الجامعة بعد أيام من المسيرة، أتذكر أن شاعرة سورية ألقت قصيدة ثم أتى دوري فألقيت قصيدة عن القدس وقبل أن أنهي قاطعني الدكتور فرح مطلق وقال لي بعد فترة التقينا فيها: "إنت بدك تروّح حالك وتروّحنا"، وبشكل تدريجي قادتني النقاشات الجريئة إلى خسارة بعض الأصدقاء وكسب الآخرين، فأصبح نقاشي مع عدنان كرداس وعمر سليمان يذهب إلى زوايا الأحزاب وتاريخها والمادة الثامنة من الدستور وجمال الأتاسي ...إلخ، بينما يأخذني النقاش مع وائل سعد الدين وعدنان حمدان وأحمد عزام إلى الأدب كأداة تغيير وتشكيل للوعي والمكتب السوري لحقوق الإنسان وجدالنا حول حقيقة حرب تموز وحزب الله اللبناني، وأحد نقاشاتي مع ممثل طلبة حزب الله الدارسين في كلية الطب البشري (محمد باقر) قادني إلى عدة ايام من التحقيق في فرع المنطقة 2006، ولا أقول إني كنت جاهزاً للمشاركة في الثورة لولا مخيم اليرموك، الشباب الفلسطيني يفضل الهامش على التصالح مع هوية مشوهة يفرضها الواقع، علموني أن سطح المستنقع وقاعه سيان، يجب أن تفكر بالخروج منه بأي وسيلة.

والآن تفصلني عن ذلك المحكوم بوعورة الطريق والحلم والأصدقاء ودمشق عشر سنوات، فما الذي تغير؟

أكثر ما يصح في وصف الثورة بالنسبة لي هو (الولادة الثانية) بمخاض طويل استغرق سنوات، لكنه لم يكن عسيراً لأنه واضح الوجهة والمسار، دوران وانقلاب ثم خروج الرأس ثم باقي الجسد، ثم صفعة على شكل فيديو سيء الصورة يُقتل فيه متظاهرون بإطلاق نار مباشر من عناصر الأمن، وهكذا تماماً، بعد بكاء ونشيج محتقن فيّ منذ

اعتقال سالار، أصبحت سورية أمي، من وقتها تغير كل شيء، لذلك لم يكن محيراً أو مجالاً للتردد انخراطي في الثورة ومظاهراتها، كانت الثورة جزءاً من المشروع الأدبي ذاته، إذ كيف لي أن أكتب للحرية دون تذوق طعمها؛ المتشوق إلى شيء يكتب عن تصوره الخاص حوله، أما السائر إلى شيء يكتب على الأقل عن طريقه إليه، وفي هذه الطريق تتالت القرارات التي ازدادت صعوبة مع تحول الثورة إلى حرب عاتية، في البدء كانت الفكرة: الثورة، السوريون، سورية، ثم برزت الهويات الأصغر من مناطقية وطائفية وقومية ...إلخ، ثم الجيوش المحتلة، بالنسبة لي اعتقلت مرتين وشاركت في المظاهرات والتنسيقيات والعمل الإغاثي وعملت في المشافي الميدانية وحين أوجدتْ داعش وجبهة النصرة ساهمتُ في تنظيم الجيش الحر ومثلته في (مفاوضات) محلية للمناطق المحاصرة جنوبي دمشق، في الحقيقة لم تكن مفاوضات بقدر ما كانت مواجهة لهزيمتنا في جنوب دمشق التي انتهت بتهجيرنا إلى الشمال السوري. فما الذي تغير؟

كم هو قاس هذا (الآن)، انفرط عقد الاصدقاء، أصبحنا موجودات منقولة رقمياً على شاشات مستطيلة لا نستطيع فيها ضرب كف بكف ولا سرقة ضمة على سبيل المساندة أو قبلة على سبيل الحب، نخوض نقاشات كثيرة تفتقد للحيوية والإدراك اليقيني لموقف أي منا، كأننا بحاجة لمواقف افتراضية يمكن تغييرها بين حين وآخر، على ما يبدو أن (خارج المكان) يحول الجذرية إلى أداة والمبدئية إلى ماركة غير مسجلة! طاولاتنا المفضلة في البارات، نمطيتنا التي اكتشفنا زيفها، ثقافة العناوين التي تنمرنا بها على زملائنا في الجامعة، كل ذلك أصبح أثراً بعد عين، غرباء في بلاد كنا نحلم بأن تقبل طلبات لجوئنا لننعم بالحرية، لكننا لا نحبها مهجرين.. لاجئين حقيقيين، بهذه الكثرة الموحية بالكارثة، وكل شيء مختلف في الجوار، خارج سورية، أي خارج القضية، حتى السوريون أنفسهم، أصبح الوجود عربياً في المنافي كهاربين من حقيقتنا، من هوياتنا التي شربناها منذ مائة عام، هل كان كل شيء فاسداً من أصله؟! هل خدعنا إلى هذا الحد؟! إذا لم نكن كذلك، فلماذا تستمر دائرة الفساد والضياع والارتهان إلى كل صغيرة وكبيرة في حياتنا، في السياسة والإعلام والأدب والمنظمات والعلاقات

الاجتماعية والمصلحية الطاغية على كل ردود أفعالنا؟! لماذا نخلع عنا كل شيء لنمشي في العواصم كسياح فارين من اكتئاب الرخاء وبلادة الحياد؟!

عشر سنوات علمتني أن الثورة أكبر من مفهومها السياسي الذي تحصده الأحزاب والتيارات (الوطنية منها وغير الوطنية)، وأنها بطبيعتها خير باهظ الثمن، من دونه لا حركة في عجلة التاريخ، ولا حركة دون محاكمة التاريخ نفسه قريبه وبعيده ودون وقوف واضح أمام الهوية المثالية/المبدئية أو الواقعية الناتجة عنه وأمام المطلب/الهدف الناتج عن الهوية، إذاً كيف لي أن أفسر سعي وتقبل الثورات العربية لدعم أمريكا التي تدعم إسرائيل (العدو المفترض) ومن ثم لدعم إسرائيل ذاتها؟ فهل كانت الديمقراطية المنشودة انتماء فوق قومي أو ديني؟ وكيف تنصهر الأقلية الدينية أو القومية في الحراك على أنها ليست أقلية؟ فالثائر الحقيقي من يحمل من سمات النبوة (بما تعنيه من جدة الفكرة وتضحية وتحمل) ما يؤهله لإحداث انقلاب فكري في من حوله قبل أن يضمن تضافرهم معه، والانقلاب الفكري لا يكون دون وقوف واضح أمام القضايا الإشكالية، والثورة بلا حامل فكري واضح لا تفقد من صدقيتها وأحقيتها لكنها ستحيد بالضرورة عن المسار الغائب أساساً، ومن هنا أخالف مقولة المعارض السوري المعتقل (أتمنى سلامته وإطلاق سراحه قريباً) الدكتور عبد العزيز الخير: "إذا تسلحت الثورة تأسلمت، وإذا تأسلمت تطيفت" وبغض النظر عن قناعتي بأنه لا قوة كانت ستمنع حمل السلاح في الثورة السورية إلا تنحي بشار الأسد منذ 2011 عن السلطة وأن بقاءه مرهون بقدوم إيران وحزب الله إلى سورية (تصريحات حسن نصر الله ونوري المالكي أثبتت ذلك بعد عشر سنوات) ما يعني أنها معركة دفاع وتحرير من أساسها، وأن إنكار هذه الحقيقة كان شكلاً من أشكال الانسحاب من تحمل أعباء القيادة الميدانية من قبل المعارضة التي تعودت على المعارضة لا الطموح إلى السلطة، فأرى أن الطريق كانت مؤدية بكل الحالات إلى التطيف والانشطار العمودي لأن الشعب السوري منقسم بالأساس عمودياً، ولكل جماعة من جماعاته رموزها وتاريخها الخاص غير المنصهر في شخصية وطنية كلية، وكم لمسنا ذلك في انتخابات اتحاد الطلبة في الجامعة قبل

الثورة بعشر سنين، كان الصدع ممتداً أعمق مما يمكن تجاهله؛ يمكنني ببساطة أن أقارن بين طبيعة العمل المسلح وطبيعة العمل غير المسلح (السياسي وغير السياسي الذي نشط خارج سورية على وجه الخصوص)، فأول بنى المعارضة قامت على تفاهمات المحاصصة، ثم ضمت الفصائل العسكرية ضمنها على أساس قوة الفصيل ودعمه الدولي لا وطنيته، وإذا توافقنا مع من يقول (إن الكلمة أفتك من رصاصة) لشهدنا على الكثير من المعارك (بين الإخوة كما يقال) بين معارضين وأحزاب وإعلاميين وشبكات إعلامية ومنظمات ومجالس وأفراد كانت الشائعة والتخوين وتشويه السمعة أداة التنافس/الصراع المتبادلة بينهم على حد السواء بدوافع مصلحية أو خدمية لوكالات الاستخبارات، وإن كانت هذه الحرب توقفت نسبياً في الميدان العسكري بسبب انحسار مناطق السيطرة فهي ما زالت مستعرة الأوار هنا: خارج الميدان بحكم مصالح معقدة ومتشابكة وتدخل إقليمي ودولي؛ صحيح أنها قامرت بحياة السوريين عسكرياً لكنها قامرت أيضاً بمستقبلهم وبسورية كاملة خارجه، سؤالي هو: "لو لم تتسلح الثورة، ما الذي كان سيحصل؟ هل ستفشل خطة النظام في التجييش الطائفي؟ هل سيمتنع حزب الله وإيران عن التدخل عسكرياً في سورية؟ وهل كان يراهن على موقف الجيش السوري أو مجلس الأمن إذا تدخلا؟ هل ستكون هناك عملية سياسية وتداول سلمي للسلطة بعيداً عن الانقسامات الجماعاتية؟ هل سنعتبر وصول الإسلاميين إلى السلطة ديمقراطية لا تطرفاً؟ الصحيح أن ندرة القيادات الوطنية (وبالتالي غياب الرؤية) في ميدان الثورة يؤدي إلى انحرافها سواء كانت مسلحة أم غير مسلحة، لأنها في شعب عمل على تمزيقه خلال عقود من الديكتاتورية العميلة؛ إذاً: هل كانت المشكلة في حمل السلاحّ؟! أم فيمن تأخر عن إدراك حتمية فرض السلاح فتخلّف عن حمله، وبعدها قَبِله شريكاً مفروضاً بالقوة لا بتوجهاته الوطنية؟!

هارباً من تردي الواقع، أتساءل: ماذا لو كان الشعراء قادة في الجيش الحر، والروائيون يكتبون من خلف البندقية الوطنية ويسقطون البندقية الأخرى؟ ماذا لو عاش كاتب السيناريو مع المحاصرين؟ هل يمكننا تخيل الشعر والأغاني والدراما ووسائل التواصل

الاجتماعي ومسار الثورة لو حصل ذلك؟ فيلم واحد مثل (من أجل سما) يرينا الفارق المحتمل، أتخيل ثورة من المفكرين والشعراء والروائيين والقصاصين والفنانين والصحافيين، ليسوا كشهود عيان وضحايا خارج المكان، بل كفاعلين، حيت يتحد الراوي بشخوصه والشاعر بصوره، ألم تكن تلك رسالة المتنبي حين مات ببيته الشهير:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لكنها علة التاريخ في نجاة الكتّاب شهوداً، ليحكوا سير الأبطال الحقيقيين، نعم، إنه موت الأبطال بداية الثورات، والكتابة استمرارها في تحد لغوي للغة ذاتها كمشَكِّلة للثقافة أو ناتجة عنها، الشعراء على وجه الخصوص يجيدون تكريس القضايا، فالشاعر أحد الأبطال الدائمين على مسرح قصائده، انفرد بنفسه حين حاصرته الديكتاتورية، وعودته إلى مسارح مشرعة الأبواب بين الذاتي والعام إحدى علامات التحول الثوري على مستوى المجتمع، وارتقاء النص إلى حالة المجزرة بلغة مواكبة تعطي الموت قدسية وجمالية في الطريق إلى حياة مشتهاة هي الحرية عينها، هو الذي يجعل (الثورة فعلاً مضارعاً)، وماذا يريد الكاتب غير الحرية؟! هكذا يتقاطر الأبطال نحو حريتهم. وليس المطلوب من الكاتب أن يكون بطلاً؛ فالمتخيل عن المفاهيم، العلاقة بين الشخص وقيمه الخاصة، ستتغير بالحتمية عند وقوفه مباشرة أمامها، والأكثر بطولة لا ينجون عادة، وقليل من الكتاب والفنانين والشعراء من يختار المواجهة المباشرة مع موته كما وقف فرج بيرقدار أمام محكمته أو بشير العاني أمام داعش، فالموت الطارئ المباغت يبقى أقل مخاطرة: عبوة، رصاصة من خلف كاتم صوت؛ يعطينا نجاة واهمة، وهكذا نموت غير قاصدين وإن كنا نعي تماماً أننا أهداف قريبة سهلة، إذا كان ولا بد منه فليكن مثل موت بشير العاني أو مثل حياة فرج بيرقدار، فرج بيرقدار يقول:

"من ليس نهراً

أين تدفن ضفتاه؟!"

وبشير العاني يقول:

"منذه..

منذ كرباج يلعلع فوق أجساد الصحاب..

تنثقب الروح

تداهم القلب دوريات الحزن

ويندس الشعراء في الكتب الصفراء

يندسون..

شاعراً إثر شاعر.

يفتنني أولئك الذين يسيرون إلى موتهم كل يوم كأنه عمل اعتيادي في مظاهرة أو على خط اشتباك، الذين يواجهون قذائف الجلاد وسياطه وسيوفه وسكاكينه بجسارة الباحث عن نهاية لائقة، فيحطمون أرقاماً قياسية لا فائدة من محاولة كسرها، أما أنا فنجوت! لكنني أحمل كيس الذكريات على ظهري لأبطال مروا إلى حتفهم قاصدين، يصدق فيهم ما جاء في مقدمة (التغريبة الفلسطينية) للمخرج حاتم علي والكاتب وليد سيف على لسان (الدكتور علي) حين مات أبو صالح: "رحل الرجل الكبير، وتركني وراءه أتساءل عن معنى البطولة، أخي أحمد، أبو صالح، لن تعلن خبر وفاته الصحف والإذاعات ولن يتسابق الكتاب إلى استدعاء سيرته وذكر مآثره، وقريباً يموت آخر الشهود المجهولين آخر الرواة المنسيين، أولئك الذين عرفوه أيام شبابه جواداً برياً لم يسرج بغير الريح، فمن يحمل عبء الذاكرة، ومن يكتب سيرة من لا سيرة لهم في بطون الكتب، أولئك الذين قسموا أجسامهم على جسوم الناس، وخلفوا آثاراً عميقة تدل على غيرهم ولكنها لا تدل عليهم".

الثورة لا تعد أحداً بالنصر بقدر ما تطالبه بالتضحية، والتضحية فعل إنساني بامتياز إذا كان واعياً في توجهه للآخر، والانفتاح على الآخر كشريك مكافئ، ضمن عملية عطاء متبادل متوقعة، هو الأساس في بناء المجتمع، ومهما عظمت التضحية، فهي خسارة للديكتاتور وكسب للمجتمع، وهنا لا يصح في تحويل المضحين إلى ضحايا أي مبرر، ولكن حين تكون التضحية ضمن فهم فردي أو فئوي أو مصلحي فيكون الجميع خاسرين لأن النتيجة ستكون زوال كل شيء، والكل في هذه الحال ضحايا، هناك ضحايا الديكتاتور نفسه الذين يقضون في المعتقلات وتحت القصف والتجويع ..إلخ أو حتى في زبانيته وأتباعه فهم ضحايا اغترارهم به، وهناك ضحايا أنفسهم بما يعنيه من دوافعهم للتضحية (ثأراً، من أجل المال، طفيليو الحروب، من أجل الشهرة، من أجل السلطة ...إلخ)، ولا يوجد رابح في هذه المعادلة، لذلك عندما تطول الثورات وتعظم التضحيات يترتب على الكتّاب تقديم الرؤية الواعية والموجهة من أجل الحفاظ على رغبة الأجيال في التغيير المستمر كأسلوب حياة، وعدم زجهم في دوائر المظلوميات التي تورث العداء التوحشي تجاه آخر ينبغي أن يكون في يوم من الأيام شريكاً مساهماً في بناء المجتمع، الشاعر كثيراً ما يرتبك –خصوصاً بعد المعارك الخاسرة– بين الذاتي والعام، بين الوطني والإنساني، بين القيمي والوصفي/التفسيري، بين الجمالي والمادي، وهنا وقفت طويلاً أمام عبارة وردت في مجموعة الشاعر السوري (حسن إبراهيم الحسن) يقول فيها:

(في الثورة انتصر الجميع

وعدت وحدي خاسراً)

وكنت أتساءل: من المؤكد أن هناك الكثير من الخاسرين أو المضحين في الثورات، ولكن، كيف يمكن لثورة أن ينتصر فيها الجميع؟! حتى وجدت ضالتي في (حيرة العائد) لمحمود درويش: (... حين يطول زمن الطوارئ، يجد كل شاعر وقتاً للتأمل في خصوصيته، وليدرك أن فاعلية الشعر تأتي من جماليته، وأن جمالية الشعر تأتي من

طريقته الخاصة في التعامل مع الواقع العيني، وتحويله إلى واقع لغوي مجازي.) أي أن مصدر الجمالية هو الواقع العيني لا المتخيل، الواعي لا الحالم؛ هو الفارق البسيط بين المتخيل والمجازي.

عندما يموت الأبطال تبدأ الثورات، وحين يموت آخر الشعراء تموت القضايا، هكذا تصبح الحياة بلا قصيدة منتظرة في جريدة، بديهية متوقعة غير مفاجئة، لا غضب فيها ولا غيرة ولا عنف (إيجابي)، وأنا على المستوى الشخصي أخاف على أمي التي بدأت تخلط بين قصص ولادة أبنائها المتناثرين على خطوط الطول والعرض، وأخشى أن يكون موت مريد البرغوثي علامة موت المرحلة، ولا أريد لهذه الثورة أن تنتهي، أفهم ذلك جيداً حين ترك المعلم الكبير رسالته الأخيرة لشاعر سيأتي بعده.

* العنوان عن (لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي)



سؤال الثورة وامتحان الأفكار

عمّار ديّوب

كاتب سوري

كل ما حدث في سورية بعد 2011، هو من تأثيرات الثورة الشعبية في ذلك التاريخ. وكل التطورات التي حدثت، والأزمات التي دخلت فيها الثورة، والأسلمة والاحتلالات الخارجية وضعف النظام، أقول كلها لم تلغ تأثير تلك الثورة. ضعف قوى الثورة ورداءة المعارضة وكثرة احتلالات واستعادة مناطق واسعة من الفصائل، أقول كلها لا تساوى دحر الثورة واستعادة النظام لديكتاتوريته. تراجع قوى الثورة لا يعني تقدم قوى النظام، ولهذا يقال إن المسالة السورية أصبحت مسالة إقليمية ودولية. وأن تصير إقليمية ودولية، فهذا يعني أن النظام القائم لم يعد مقبولاً، وهناك ضرورة لنظامٍ جديد، وأما معالمه، فهي ستكون رهينة التسويات الإقليمية والدولية، والأخيرة لم تنضج تسويها بعد، وهذا يعني أن مأساة سورية ما تزال مفتوحة رغم اكتمال العام العاشر للثورة.

سؤال الثورة، وهل ما زال قائماً، وكذلك سؤال الخيبات والانكسارات. نقول، كلما ساد الكلام عن سيطرة النظام نرى مشكلة جديدة تقف أمامه، وتوضح مقدار هشاشته وضعفه، فكيف لو دققنا بتلك الاحتلالات، وهذا وحده يوضح أزمته العميقة وإغلاق إمكانية تعويمه من جديد. الآن هناك نقاش جديد عن احتمال احتجاجات في المناطق التي اعتُبرت موالية وخاضعة، ولن تتغيّر ومهما تبدلت أحوال النظام، وأقصد مع ترسخ النفوذ الاقليمي للدول المتدخلة في سورية، وتردي العملة باضطراد، تجد أغلبية السوريين الواقعين تحت سيطرة النظام أن أوضاعها كارثية، وصارت تمرّر أيامها ولياليها في طوابير الخبز والوقود والبحث عن العمل والكهرباء المقطوعة وسواه، وبالتالي صرنا

نقرأ عن اشكال جديدة من الرفض للنظام فكيف، سيما أن النظام يعمل من أجل ترشيح رئيسه ليحكم سورية لسبعٍ عجاف من جديد!

الثورة ليست فكرة كما قيل يوماً، بل كان الاحتجاج الرافض للفكرة أعلاه، يؤكد أن لا وصفة جاهزة للثورات، نستقيها من تاريخ هذه الدولة أو تلك، وبالتالي هي ليست مجرد حسابات للربح وللخسارة. ربما هي كذلك للانتهازين الذين التحقوا بها، والأن نرى كتل في المعارضة من تلك الكتل. الثورة بدأت من أجل تغييرٍ تاريخي كبير، يُنهي أوضاع سورية التاريخية، وأقلها من 1970، وبالتأكيد هي نتاج انهيارات جزئية للأوضاع الاقتصادية قبل 2011، حيث اعتمد النظام سياسات اقتصادية مناهضة للأغلبية الشعبية، ونقصد "سياسة السوق الاجتماعي" وهذا أدى لانهيار أوضاع الزراعة والصناعة، وهناك أسباب تتعلق بإغلاق النظام لكوّة الإصلاحات السياسية بعد عام 2000، وضمن ذلك، وبدءاً من عام 1970 تركزت الثروة في أيدي حيتان السلطة والمال، وهذا أفضى إلى ضرورة الثورة، وهو ما حدث في 2011، وهناك تأثير الثورات العربية، التي ظروف القائمين فيها تشبه الظروف السورية، وكذلك الاستبداد، إذاً كانت الثورة السورية من أجل التغيير نحو الأفضل وفي كافة مجالات الحياة، ودلالة ذلك، الشعار الدقيق في تلك الاثناء "الشعب السوري واحد" والذي كان من أجل حشد أغلبية السوريين في إطار الثورة ومن أجل طيّ مرحلة الثمانينيات، والانقسام الطائفي على إثره، وطي كل انقسام تعزز بعد ذلك التاريخ. الشعار هذا حاربه النظام، وحاربه الاخوان المسلمين وكل قوى طائفية بعد 2011، وكذلك الخارج.

قضية امتحان أفكارنا التي كنا نحملها في 2011، وعلى ضوء عشر سنوات من الثورة، هي قضية المثقفين بامتياز، وكذلك هي قضية السياسيين، والفاعلين بهذه المجالات. أولاً لم تكن إلّا قلّة تتوقع حدوث ثورة عام 2011، وحينما حدثت حاولت أطراف المعارضة التاريخية الاستيلاء عليها، ولكن أغلبية المثقفين كذلك لم يتوقعوا حدوثها. هناك دعوات في السنوات الأخيرة، ومن أجل نقاش الرؤى والتصورات التي حملتها

الثورة والمعارضين للنظام، ولكنها حتى الان هامشية وضعيفة، وهناك رفض من قبل قيادات المعارضة لمسؤوليتها القيادية منذ 2011 وحتى الأن. هذه قضية دقيقة، ودون القيام بها، وبجديةٍ عالية، ستزدهر الأوهام والانكسارات والإحباطات، وهذا ما يجب القيام به، وليس الاستمرار في تجاهله، وكأن الثورة لم تتأزم وما زالت هي هي عام 2011، وهذا غير صحيح، وقد حاولنا تلمس بعض ملامحه "التأزم" بعد 2011 أعلاه.



الثورة المغدورة.

غسان المفلح

كاتب سوري

هذا ليس استعارة لعنوان كتاب تروتسكي "الثورة المغدورة" الذي كتبه عام 1937 ويرى أن الستالينية غدرت بثورة اكتوبر الروسية. بل لأنني كتبت مقالا منذ عشر سنوات تقريبا بعنوان "الثورة السورية التي يراد غدرها" بتاريخ 5.10.2011. يمكن للقارئ الكريم العودة إليه على موقع جريدة ايلاف الالكتروني.

"كشفت الثورة كيفية تبادل المواقع والمصالح، وحجم التواطؤ في هذا الشرق الأوسط. روسيا والصين والهند وتقاعس الدول الغربية والعربية يلتقي مع المصلحة الاسرائيلية في استمرار النظام، أو تحويل سورية إلى مقبرة لشعبها، أو أن تدخل في نفق حرب أهلية طويلة المدى".

هذا ما كتبته حينها. وما عبرت عنه أيضا في أكثر من مادة وفي أكثر من اجتماع للمعارضة السورية منذ اللحظة الأولى لانطلاق الثورة السورية قبل عشر سنوات. بأنها استراتيجية أمريكية بنسخة أوبامية.

رغم ذلك ورغم هذه الهزيمة سيبقى سؤال الثورة قائما. سؤال الثورة مرتبط بوجود نظام أسدي وليس لسبب آخر. سيبقى قائما لعدالته، لما حملته الثورة المغدورة من إحساس بالحرية لدى السوري. ما جعلته يقارب سؤال الحرية. مهما حدث من انكسارات وخيبات

سيبقى سؤال الحرية والكرامة حاضرا. لن تتوقف الأجيال عن إنتاج المعنى في كافة المجالات. الثورة بقدر ما هي صيرورة نحو مستقبل أفضل، بقدر ماهي خاضعة لحسابات الربح والخسارة في ظل عالم لا يعتمد سوى ميزان القوى الغاشم معياراً.

الثورة مفاجأة على كافة المستويات حتى لأصحابها. من كان يعتقد ان تظاهرة في درعا يمكن ان تنتج ثورة؟ حتى أهل المظاهرة الأولى لم يعرفوا وفوجئوا كما فوجئ متظاهرون آخرون في أمكنة أخرى. كما فوجئت المعارضة بكل تياراتها والأسدية أيضا. بانطلاق عموم المدن والقرى تقريبا في سورية بتظاهرات تطالب بالحرية وبإعادة الكرامة للفرد المسحوق بترميزات الأسدية المادي منها والمعنوي. ما حصل في ثورات الربيع العربي مفاجأة تخص الربيع ذاته لا تخص مسبقات أخرى. ولن تخص ما يأتي بعدها من ثورات. حتى لو شكل هذا الربيع العربي ذاكرة خبرة، وتقليد لا يمنع المفاجأة في المستقبل. الثورة مفاجأة. حتى النظام القاتل فوجئ، لو كان يعتقد أنه سيستدعي الروس والإيرانيين وكل شذاذ الآفاق، ربما كان تصرف بغير هذه الطريقة. أي حديث عن الثورة السورية بدون سؤال المفاجأة هذا يكون في إطار مسبقات لا قيمة لها.

لأنها مفاجأة غدرت بهذه الطريقة الابادية والوحشية من قبل وحوش هذا العالم. لأنها مفاجأة كانت ستودي بكل مترسخ عبر عقود خمسة وأكثر سوريا وإقليميا وبالتالي سينعكس دوليا.

إنها مفاجأة الحرية والكرامة التي لا تنتهي. إنها السؤال المفتوح أبدا على إجابات لا حصر لها.

انتهاء ديكتاتورية المعنى بانفتاح الأجيال السورية على تجاربهم الذاتية وتجارب الآخرين. كتبوها وأرّخوها وورووها وقصّوها. هزيمة الثورة أو الغدر بها كما توقعت، التوقع لا يعني فقدان الأمل.

هزيمة الثورة لا يعني أنها لم تترك أثراً ولم تُحدث تغييرات ستطال المستقبل سلباً أم إيجابا. لهذا سأختم بلوحة مختصرة للثورة المغدورة ولسورية وشعبها بعد مضي عقد من الزمن: بشار الأسد كان ديكتاتوراً أوحد في سورية قبل الثورة، يسيطر بأجهزة قمعه على كامل مساحة سورية. الآن الأسد لا يسيطر سوى على 15% من الحدود مع سورية، وبات له شركاء في المناطق التي لا يزال يسيطر عليها وهي تقارب ال 60% من مساحة سورية والباقي خارج سيطرته كلياً. الروس والإيرانيون يشاركونه القرار السيادي تحول إلى مسخ سيطرة. صورة النظام في أبشع حالة. كل هذا من أجل ألا يقدم أي تنازل للشعب السوري. هذه كانت إمكانيات الثورة رغم كل هؤلاء الأعداء.



مسارات الرفاق ومصائرهم

فايز سارة

كاتب وسياسي سوري

انشغلت في الأسبوع الماضي بالعودة إلى الأرشيف لاستخراج مجموعة صور تتصل بحياتي ونشاطاتي العامة، لتكون في خلفية مقابلة مصورة، تعدّها إحدى الفضائيات بمناسبة مرور عشر سنوات على ثورة السوريين ضد نظام الأسد، ومن أجل الوصول إلى صور مناسبة كان علي العودة إلى أرشيفي الشخصي الورقي والالكتروني معاً، والعودة أيضاً إلى الأرشيف الإلكتروني العام الذي توفر محركات البحث (ولا سيما غوغل) لنا فرصة الوصول إليه بما فيه من أخبار ومستندات وصور، وإن كانت عامة، إلا أنها في بعض الجوانب تعتبر خاصة لبعض الناس ممن شاركوا فيها أو كانوا شهوداً عليها أو قريبين منها.

في عملية البحث، ركزت خصوصاً على العشرين عاماً الأخيرة، التي كانت الأكثر حساسية وأثراً في حياة عموم السوريين وفي حياتي كواحد منهم، لأنها شهدت أهم تطورات في التاريخ السوري الحديث والمعاصر، بل إنها الأهم حتى في التاريخ القديم أيضاً، وقد اخترت من تلك التطورات، مقاربة بعض جوانب تجربة الرفاق، وهي صفة رأيت أن أشمل فيها مجموعة من السوريين تقاربت مع بعضها في العقد الأول من القرن، وشاركت في تجربة ربيع دمشق، التي كانت مقدمة مشاركات أخرى لاحقة.

وبسبب من أهمية وخطورة ما شهدتّه سوريا في العقدين الماضيين، رأيت أن أتناولها في العشرية التي سبقت الثورة، والتي بدأت مع موت حافظ الأسد الشخص الأهم والأبرز في تاريخ الدكتاتورية في سوريا، وتولي خليفته بشار السلطة بإرادة دولية،

وتمرير سوري على أمل إصلاح سلمي هادئ ومتدرج على نحو ما قدّر بعضنا، انه ممكن، وقد أثبتت سنوات العقد الأول من سلطة الأسد الابن خطأ مراهنة النفر القليل من الشجعان السوريين من مثقفين ومدنيين وسياسيين، انخرطوا في ربيع دمشق، واعتقل عشرة منهم في إطار مساعي النظام لمواجهة حركة البيانات والمنتديات والجمعيات الحقوقية والمدنية وإيقاف مسار القول والكتابة، التي كانت دائماً بين أهم المحرمات في سوريا، وقد تبين أن كل ما تمّ القيام به من جانب الشجعان السوريين، لا يتجاوز خرمشة أظافر على لوح صلب، يغلف دكتاتورية وطائفية ودموية وإجرام نظام ورثه الابن عن الأب، ومضى على طريقه إلى الأبعد في العشرية الثانية.

من أحداث العشرية الأولى، اعتقال مجموعة نشطاء ربيع دمشق الأوائل، أو العشرة الأفاضل كما أسميناهم، لكن الأسبق من اعتقالهم قيام الراحل أنطون المقدسي شيخنا وأستاذنا، بإلقاء محاضرته عن المجتمع المدني في 13 أيلول 2000 في أول جلسات منتدى الحوار الوطني الذي أسسه رياض سيف، وهذا بعض من جهده في تلك الأيام، إضافة إلى رسالته الشهيرة إلى بشار الأسد في 14 آب 2000، التي كانت تمثل تحدياً، لم يفعله مثقف سوري من قبل في تعامله مع منصب الرئاسة الذي حوّله الأسد الأب إلى تابو، يمنع الاقتراب منه، ولا النظر إليه.

بدت المنتديات في تلك الأيام مساحة محدثة للحرية وللحق في التفكير والقول العلني، وهو ما تجسّد في جلسات منتدى الحوار الوطني وفي أنشطة منتديات غيره في دمشق ومدن سورية أخرى، وبعض تلك المنتديات كانت مرسومة لأهداف معينة، لكن بعضها الآخر، كان حقيقياً وفي صلب المحاولة المجيدة للشجّعان السوريين على نحو ما بدا منتدى جمال الأتاسي في دمشق، وشهد في إحدى ندواته، حدثاً أعتقد أنه بين الأهم في نشاط المنتديات، إذ توالى على الحديث في تلك الامسية متحدثون باسم الأحزاب والجماعات السياسية ولجان إحياء المجتمع المدني، عرضوا فيها خلاصات مواقف

جماعاتهم في الحال السوري، وكانت هذه الجلسة سبباً في اعتقال أعضاء مجلس إدارة المنتدى جميعاً في أيار 2005، وكانت مقدمة لمنع نشاطاته تالياً.

وطالما أن الحديث يتصل بالنشاطات، فإن الاعتصامات كانت بين أبرزها، وتشارك في تنظيمها ناشطون مدنيون وحقوقيون وسياسيون في دمشق ومدن سورية أخرى، ورغم تعدد وتنوع اعتصامات تلك المرحلة، فقد كان الأهم فيها نوعان أولهما يقام أمام قصر العدل بمناسبة استيلاء البعث على السلطة في سوريا وإعلان حالة الطوارئ في الثامن من آذار، والثاني يقام في العاشر من كانون الأول في اليوم العالمي لحقوق الإنسان، وتنوعت أماكن إقامته، ولعل أفظع الاعتصامات قيام النظام بجلب طلبة جامعة دمشق وتحت حراسة الأمن واتحاد الطلبة لضرب المعتصمين أمام قصر العدل بوسط دمشق في آذار 2005، ومازالت في أذهان من حضروا الاعتصام عمليات ضرب وسحل مشاركين ومشاركات في ذلك اليوم.

وكان لتشكيل تحالف المعارضة السورية المعروف باسم إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي في العام 2005 أهمية كبرى في تطورات تلك الفترة، بما مثله من إنجاز كانت الساحة السياسية والمدنية بحاجة ملحة لتجميع قدراتها وجهودها، تشارك في انجازه أشخاص طرحوا الفكرة، وانضم آخرون للمساهمة في الحوارات حوله، والمشاركة في قياداته الأولى، التي ضمت رموزاً من مكونات الجماعة الوطنية ومن مختلف التوجهات الفكرية والسياسية، التي رأت أنه آن الأوان ليكون للمعارضة السورية إطار واحد في مواجهة نظام، لا يملك حواسَّ ولا قدرة له خارج العنف، خاصة بعد حملته الشهيرة على الإعلان في أعقاب اجتماع مجلسه الوطني الأول بدمشق أواخر 2007 والذي رأي فيه النظام خرقاً لمنظومته الأمنية، واعتقل عشرات من نشطاء الإعلان، قبل أن يستقر في السجن منهم اثني عشر شخصاً، كان من الواضح أن النظام اعتبرهم بين المجموعة الأكثر تأثيراً بالمعارضة في ذلك الوقت، وقد انتهت فترة سجنهم قبل

الثورة بأشهر لا غير، وهو أمر جاء بمحض الصدفة قرب نهاية العشرية الأولى من رئاسة بشار الأسد.

وإذا كان العقد الأول، قد حمل ذلك القدر غير المشهود من الأحداث، وأبرز قضايا وأشخاص بصورة لم تحدث في عقود ما بعد إعلان الكيان السوري الحديث عام 1936، فإن العقد الثاني ما بين 2011 و2020 شهد أحداثاً كثيرة، ليست لها سوابق في التاريخ السوري القديم والحديث كلاهما على نحو ماهي عليه ثورة السوريين، بل إن بعض الأحداث ليس لها مثيل في التاريخ البشري كله على نحو ما ظهرت في المقتلة السورية، التي نفذها نظام الأسد وشارك فيها حلفاؤه الروس والايرانيون وميليشياتهم، قبل أن ينضم إليها متطرفو وإرهابيو الجماعات الإسلامية والعصابات المسلحة، وبعض الدول المحسوبة على أصدقاء الشعب السوري تحت حجة مكافحة الإرهاب، فيما كانت عملياتهم تشمل أهدافاً مدنية لا علاقة لها بـ"داعش" ولا أمثالها من المتطرفين.

ورغم أهمية حضور الأفراد ودورهم في أحداث العقد الثاني، فإن حضور ودور الجموع السورية صارت الأهم في الصورة السورية. فقد امتلأت شوارع وساحات مدن وقرى بالسوريين، وفي بعض الحالات قاربت تظاهرات مدن حدود المليون حاملين أعلاماً ولافتات ومرددين هتافات وأغنيات من أجل الكرامة والحرية والحياة الجديدة، ولم تعد حملات القمع والإرهاب توجه لأشخاص أو مجموعات، بل لمدن وقرى ولعموم سوريا، وجرى حصار وتدمير كثير منها وتهجير سكانها، وقد صار الأخير ظاهرة سورية، نقلت ملايين السوريين داخل البلاد، ونقلت ملايين إلى دول الجوار أو إلى الأبعد منها، وكله جرى وسط معاناة وآلام، لم يعرف العالم لها مثيلاً في تاريخه.

وبدا من الطبيعي، أن ينعكس التحول العام من النخبة إلى الجموع على حركة المعارضة والحراك المدني، وبدل المئات أو الآلاف الذين لا يزيدون عن أصابع اليد الواحدة في العقد السابق، صارت أعداد المعارضين والناشطين المدنيين بعشرات الآلاف، وانطلقت

في خاصرتهم عشرات أخرى لتشكل جماعات مسلحة باسم الجيش الحر، قبل أن يتحول بعضها لاحقاً إلى جماعات إسلامية وإرهابية متطرفة، أو يتم تدميرها لصالح الأخيرة.

وسط تحولات العقد الثاني في الانتقال السوري من نشاط الأفراد والجماعات الصغيرة إلى الجموع، صار حضور ودور الرفاق محدوداً، بل إن توسع الجغرافيا السورية في انتقالها من مساحة الـ (185) ألف كيلو متر مربع إلى دول كثيرة، يزيد فيها عدد السوريين عن نصف مليون نسمة، وهو أمر ساهم مع غيره في تخفيف حضور ودور الرفاق وتغيير مسارات بعضهم في العقد الثاني، بل إن بعضهم غيّر مساره في أواخر العقد الأول.

لقد بدت أكثرية رفاق المسار الصعب في العقد الأول ممن شاركوا في موجة البيانات والمنتديات والاعتصامات والجمعيات المدنية والحقوقية وصولاً إلى إعلان دمشق مجموعة متماسكة، وملتزمة بما بدأته، ولا يقتصر دليل ذلك على استمرار الأسماء حاضرة ومتابعة في أغلب الفعاليات، بل يمكن تلمس دليل آخر في أن من جرى اعتقالهم في بداية تلك الفترة، عادوا للمشاركة في أنشطة الحراك العام، والقلة التي غابت، كان غيابها قهرياً إما بسبب الاعتقال الذي طال العديد من الشخصيات المعروفة أو السفر خارج سوريا أو الموت الذي طالهم كحال راحلنا أنطون المقدسي.

عند بداية العقد الثاني، كان أغلب الرفاق حاضرين، حتى السجناء منهم، كانوا أنهوا سنوات سجنهم في العام 2010 وبداية العام التالي، لكن عودتهم إلى نشاطاتهم كانت محدودة، لأن بعضهم اتجه الى إعادة ترميم أوضاعه، أو بفعل خلافات واختلافات مستمدة من تفاصيل تجربة العقد الماضي ولاسيما في تجربة إعلان دمشق، وكان لكل طرف أعذاره ومبرراته.

ولئن دفعت الأجواء، التي سبقت ورافقت انطلاق الثورة في آذار 2011 إلى إعادة تواصل وتقارب بين الرفاق، فإن ذلك لم يكن كافياً لطي ملف الخلافات، لأن أشهراً مرّت كانت تظاهرات السوريين فيها تتواصل في كثير من المدن والقرى، وتتصاعد

رغم التكلفة الكبيرة في الاعتقال والقتل والتهجير والتدمير، دون أن تدفع الرفاق للوصول إلى إطار تحالفي يجمعهم على غرار ما تم في إعلان دمشق عام 2005، كان إرث التجربة الماضية وحساسيات شخصية بين بعض الفاعلين والمراهنات الخاطئة أسباباً، وعندما تم إقامة جسم جديد للمعارضة باسم هيئة التنسيق الوطنية، جاءت النتيجة ناقصة فكرست انقساماً، لم يستطع أحد تجاوزه طوال العشر سنوات التالية.

لقد لخص العجز أو عدم قدرة أو رغبة الرفاق في توليد قوة موحدة تساهم في قيادة الثورة أو تقودها، ظواهر المرض عند غالبيتهم، وجزء منهم فاجأته الثورة فوقف يعيد ترتيب أوراقه، حتى ان بعضهم نسي أو تناسى تجربته المرة مع نظام الأسد وسنوات ملاحقته وسجنه الطويلة، وقرر البقاء قريباً من النظام بحجة المخاوف من الثورة وحواضنها الاجتماعية، وما قيل استباقاً عن أسلمة وتسليح الثورة، كان بعضاً من حملات النظام الديماغوجية.

والرفاق الذين ذهبوا إلى صف الثورة، أغلبهم إن لم نقل كلهم، اعتقدوا أن مكانهم في ظل الثورة هو القيادة، كاشفين بصورة لا تقبل الجدل عن جهلهم بالفارق بين لعب دور المعارض في مواجهة نظام آمن على نفسه، ودور القائد الذي يدير جمهوراً لا يعرفه بصورة جيدة من جهة، ويخوض صراعاً مع نظام كشف وجهه الدموي الى آخر الحدود، ولم يكن الوهم السابق إلا بعض واقع كثرت تحدياته، وكان بينه تشتت أغلب الرفاق في توجهاتهم، التي كانت مخفية في سنوات وجودهم في المعارضة.

ففي ظل الثورة، اعتقد أغلبهم، أن بعض التعبيرات الفكرية والسياسية ولاسيما الإسلامية، ستتمكن من فرض نفسها، فراح باتجاه التقرب منها وموالاتها قناعة أو تقرباً، وزاد البعض في ذلك إظهار بعض ميول في معاداة طائفة بعينها، وقد أشاد العديد من الرفاق في مرحلة ما بجماعات اسلامية متشددة، وقيل عن رفيق في مدينة الرقة، أنه كان على تواصل مع جماعات متشددة، الأمر الذي أدى إلى تغيبه، وتحالف عدد من الرفاق في تجربتي المجلس الوطني والائتلاف الوطني مع إسلاميين بينهم الإخوان

المسلمين وتفرعاتهم، إضافة الى آخرين بينوا أكثر من مرة، أنهم يقاربون النصرة وداعش في كثير من آرائهم.

غير أن الأهم في مسارات الرفاق ومصائرهم، هو قيام أكثرهم بقطع الصلات بين بعضهم البعض، وهذا لم يحصل بين غير المتجانسين فقط، بل شمل حتى المقربين من بعضهم، وجرى خوض معارك معلنة بين الرفاق، لم يقتصر خوضها على الغرف المغلقة وحفلات النميمة، بل وصلت حد الكلام المكتوب في الصحف الذي جانب الحقائق، أو اخترع قصصاً لم تحدث في الواقع أبداً، وساق اتهامات غير حقيقية، تعزيزاً لجهوده في إدانة الآخر.

مسار الرفاق ومصائرهم، يستحق ما هو أكثر من حيز نحن فيه، لأن في التجربة كثير مما يستحق أن يُكشف ويقال، ليس لإدانة أحد ولا دفاعاً عن أحد، ولهذا أغفلت الأسماء، بل لأن هذه التجربة ورغم محدوديتها، فإنها تؤشر إلى بعض جوانب، فشلنا ليس باعتبارنا أشخاصاً وجماعة معارضة، بل كسوريين طحنتنا السنوات العشر الماضية، وما زلنا ندور بين حجري رحاها.

ما أحب أن أختم به هو خلاصة مختصرة. كان الرفاق الشجعان في العشرية الأولى من وجهة نظري مثالاً في الموقف من الشعب وقضاياه، متفهمين ومتفاهمين ومتضامنين أكثر، رغم كل ما أحاط بتلك التجربة من مشاكل وتحديات، وفي العشرية الثانية أثبتوا عجزاً وضعفاً وتشتتاً، أسقط دورهم، وأخرجهم على نحو عام من دائرة الصراع، ووضعهم على هوامشها، ماعدا قلة منهم بعضهم غيبهم الموت منهم حسين العودات والطيب تيزيني، وآخرين غيبهم الخطف والاعتقال كما خليل معتوق ورزان زيتونة وسميرة خليل وعبد العزيز الخير ورجاء الناصر واسماعيل الحامض، إضافة الى آخرين مازالوا يقبضون على الجمر، ويتابعون ما أمكن مسارهم الأول ولو بتعديلات طفيفة، وبقي أن أشير أخيراً إلى أنّ من كتب من الرفاق عن تلك التجربة، سعى لأن ينجو بنفسه، ويلقي العبء على الآخرين ليس أكثر.

الثورة وأسئلة المصير.

فرحان المطر

كاتب وصحفي سوري

أعرف أن الثورة "أية ثورة في العالم" هي بالأساس محصلة للأسئلة، وبالتالي فإن العلاقة بين الثورة والأسئلة جدلية لا تنتهي، من هنا فإننا مع اقتراب موعد ذكرى انطلاقة الثورة كل عام نستعيد تلك الأسئلة التي ترافقت أولاً مع موجبات انطلاق الثورة ذاتها على هيئة التساؤل التالي: ما الذي حققته الثورة حتى اللحظة، وما الذي لم يتحقق منها بعد؟!.

هذا من البديهيات التي لا تقتصر علينا كسوريين في ثورتنا فحسب، غير أن الأسئلة مع التقدم في الزمن، ومع الذكرى العاشرة لها، أي بعد عقد من الزمن فهي تأخذ منحىً آخر، يتناسب مع الفشل في تحقيق الأهداف، وفي مقدمتها: إسقاط النظام.

هل هذا الفشل بحد ذاته يعني موت الثورة؟!. عدم مشروعية قيامها أساساً؟!. عدم نضج الظروف الذاتية والموضوعية لها؟!. حقيقةً يبقى باب الأسئلة مفتوحاً الآن على مصراعيه، ولا يمكن الإحاطة بكل ما يطرح، ولكن.

أليس مجرد الطرح بهذه الصياغة يعني وكأننا سلمنا بموت الثورة، وهو أمر خطير، فالثورة التي هي فكرة أساساً لم ولن تموت على الرغم من كل قتامة المشهد الحالي، حيث هذا الدمار والتشرد والموت، وبقاء النظام كما هو، بالإضافة إلى عدد من الاحتلالات الأجنبية على الأرض السورية، فالثورة / الفكرة هنا باقية ما دام هناك

سوريون يعانون داخل وخارج الوطن من الويلات التي سببها هذا النظام الذي قامت الثورة لاقتلاعه سلمياً أولاً.

لقد انتقلت التطورات الميدانية بالثورة إلى ضفة أخرى هذا مؤكد، بداية من خذلان ما يسمى أصدقاء الشعب السوري في المراحل الأولى، وتدخل المال الخليجي الداعم لأطراف تم تصنيعها لتخدم أي شيء يعادي أهداف الثورة، وهو ما أعطى المسوغات للروايات المختلقة التي كان النظام السوري يحاول ترويجها عن عصابات إرهابية مسلحة تحاول زعزعة استقرار الأمن وترويع السكان، وهذا ما حصل حرفياً نتيجة هذا المال الخليجي الذي أوجد عملياً على الأرض عصابات إرهابية يقودها زعران، بينما كان المنشقون العسكريون الذين أسسوا بدايات نواة عسكرية نظامية قادرة، ومؤهلة وحدها لمقارعة النظام عسكرياً في حال وصلت الأمور إلى ذلك الاستحقاق.

تلك الانكسارات والخيبات هي نتاج الثورة المضادة التي ظهرت على الأرض باسم تلك التيارات والتشكيلات العسكرية التي رفعت شعارات الإسلام السياسي واجهة لها، أرى أن الإخوان المسلمين، والسلفيين السوريين وارتباطاتهم المباشرة مع التنظيمات الإرهابية العالمية التقوا مباشرة على الأرض مع ما يخطط له النظام السوري ومن ورائه المخابرات الروسية والإيرانية وحزب الله، إذا لم أقل إنهم كانوا يخططون معه ولصالحه بشكل ما.

لذلك أرى أن تجليات الثورة المضادة للثورة السورية هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن هذا الانتقال إلى حيث لا نريد كثوار سوريين مدنيين نؤمن بقيم الديمقراطية والحرية والمساواة وبناء مجتمع جديد قائم على سيادة القانون أولاً، في وطن لكل السوريين.

هذه الثورة المضادة، هي التي يجب علينا رصدها ووعيها والتصدي لها.

الثورة ليست مجرد حسابات للربح والخسارة؟

أنا لا أرى رابطاً بأي شكل كان بين الثورة، وما يسمى حسابات الربح والخسارة!!.. ربح وخسارة ماذا؟!. فقط عندما تصبح الثورة باب ارتزاق يمكن القول عندها: إنها باب مفتوح لحسابات الربح والخسارة.

إلا إذا كان المقصود من السؤال هو الإشارة إلى أولئك الذين قرروا بلحظة ركوب موجة الثورة لأنهم اعتقدوا أنها قاب قوسين أو أدنى من الانتصار في لحظة معينة، لكي ينجوا بأنفسهم من تبعات البقاء تحت مظلة النظام، أو أولئك الذين اعتقدوا أيضاً أن صف المعارضة بالنسبة لهم قادر على تأمين مكاسب مادية، وهذا ما حدث عملياً من خلال الارتزاق لدى الدكاكين التي حملت اسم الثورة زوراً، وهنا لا تسمية سوى: الارتزاق، فمثلما يوجد في العالم مرتزقة عسكريون، هناك أيضاً مرتزقة إعلاميون، وسياسيون.

الثورة صيرورة لصنع ما هو أفضل للإنسان والمجتمع؟ كان يجب أن تكون الثورة قد اندلعت في سوريا قبل آذار 2011 بسنوات، وفي ظروف أخرى ذلك أنها بالفعل ضرورة اجتماعية ثقافية سياسية أساساً قبل أن تصل إلى الأمور في سوريا إلى هذا الحال من التخلف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ونشوء دولة الرعب على مدى عقود من حكم البعث والأسدين الأب والابن.



بعد عشر سنوات على الثورة

فواز حداد

روائي سوري

لن يغيب سؤال الثورة، طالما ما استدعاها ما زال قائما، وإذا كانت في حينها قبل عشر سنوات حتمية، فقد كانت كذلك على مدار أربعة عقود سبقتها من تسلط العسكر والبعث، ما حول سوريا إلى دولة شمولية بات اسقاطها ضرورة إنسانية وتاريخية، وهدفاً مستمراً، ما زال اليوم مطلوباً، بعدما أضاف الطغيان خراباً واستبداداً، انتشر على الأرض السورية، حصيلته؛ ملايين الشهداء والمعاقين والمعتقلين والمغيبين قسرياً والمفقودين والمهجرين والنازحين، وأربعة احتلالات، وبلاد تنهب. ولم ينج الداخل من الغلاء والفقر وطوابير الخبز، حتى أصبحت الطبقة المتوسطة مهددة بالجوع. أما الأثرياء، فأثرياء الحرب.

لا يهم النظام سوى البقاء، ولو كان فوق الأشلاء والدمار، بحماية الروس والإيرانيين. أسباب الثورة متوافرة، ما زلنا في الضفة نفسها، وإذا كانت الوسائل وعدم القدرة مفتقدة حاليا، والمجتمع الدولي إن لم يكن عاجزاً، لا يرغب في التدخل. لا يعني هذا إلغاء الثورة من حساباتنا. وفي حال كان لها أن تحدث فبديناميكية مختلفة، فالحياة مفتوحة على احتمالات لا تنضب، طالما النظام يتهرب من الحل السياسي ومن قرارت الأمم المتحدة، ما دام تحت رعاية الفيتوات الروسية.

الثورة مفهوم عريض، لو أنّ النظام لم يواجه المظاهرات الشعبية بالرصاص، واستجاب لمطالب المحتجين، لنجحت الثورة السلمية، وأدّت إلى إصلاحات يعوّل عليها في إجراء متغيرات مع الوقت، ولو بالتدريج، لكنّ النظام لم يتنازل عن القمع والسجون والاعتقالات. لم تنجح الثورات في أغلب بلاد العالم، لكن حتى في هزيمتها أدت إلى

حراك على المدى البعيد أسقط الدكتاتوريات، لولا إرادة التغيير لم تظفر الشعوب بالحرية والديمقراطية.

يمكن ابتداع أساليب متعددة، لإسقاط نظام الحكم: مدنية، سياسية، جهود دولية. فالثورة لا تعني العسكرية فقط، بل الاستفادة من السبل المتاحة. وإذا بدا في سورية، ألا بديل عن السلاح من فرط تعنت النظام، فلأنه لم يترك للسوريين حلا آخر، لكن ليس هناك طريق واحد للثورة.

نعم هناك حساب للخسارات، كانت أكثر مما تحتمله سوريا أو تطيقه، لكنها اضطرت إليه، ربما كانت الثورة السورية من أكثر الثورات التي سجلت خسارات فادحة في الأرواح والبنى التحتية وحصدت الموت والخوف، كذلك تصدع النسيج المجتمعي، ولم تعدم الأرباح، رغم أنها كانت ممزوجة بالفجائع والماسي، وهي أن الانسان السوري، لم يعد رهينة أكاذيب الدولة الشمولية ووعودها ومكرماتها، ولا يعتقد بالزعيم الأوحد، ولا بمهزلة الخلود والأبد. لم يعد ينظر إلى الدكتاتور وبطانته إلا كمجرمين، لن يخدعهم الأمان المبطن بالقتل والتهديدات، ولا النهب المبرمج.

أما ماذا يعني البقاء على قيد الثورة، فهو أن يبذل كل منا أفضل ما عنده في أي مجال كان، سياسياً، اقتصادياً، إعلامياً، علمياً، فنياً، ادبياً.... يجب أن نتحامل على خسائرنا ونواصل العمل نحو تحقيق هدف واحد، دولة ديمقراطية مدنية تحت سيادة القانون، الجميع فيها سواسية.

إن في استغلال هذه النتائج، مهما كان مردودها، بامتحان أفكارنا وتجربتنا. يجب أن تكون لدينا الجرأة على مراجعة ليس السنوات العشر الماضية، بل منذ الاستقلال السوري، وما تبعه من انقلابات، إذ لا يمكن الخطو نحو المستقبل، قبل تصفية الحساب مع الماضي، وقراءته جيدا، لا القطيعة معه، كي نحمله معنا ذخيرة لا عبئاً.

الثورة والمتغيرات

محاسن سبع العرب

كاتبة سورية

إن الثورة فكر ولا يمكن للفكر أن يتغير أو يتحول أمام العقبات والطوارئ التي تحصل أو تعيق عمل الثورة وتقدمها لأنها مطلب جماهيري وضرورة فرضها الواقع المؤلم والحالة المزرية التي وصلت إليها الأمة نتيجة أفعال الحكام الذين لا يملكون الأهلية لقيادة الشعوب.

والثورة لم تنطلق إلا بعد أن اختمرت الأفكار في عقول الجماهير وترسخت على مدى أعوام طويلة من القهر والاستبداد.

صحيح أن الانكسارات التي حصلت قد ولدت الكثير من الألم لأنها أظهرت تآمر العالم الوقح وانهيار الشعارات البراقة كالديمقراطية وحقوق الإنسان إلا أنها زادت مفهوم الثورة رسوخا وتجذرا في أعماق النفس المكلومة وعمقت الإيمان بضرورة التغيير والخلاص من رموز الاستبداد العفنة الخائنة لشعوبها الفارغة من أي مضمون.

إن مسارات الثورة لم تتغير لكنها أصبحت أكثر وعورة وصعوبة وهنا يكمن الامتحان الصعب لقدرة الشعوب على الاستمرار والمثابرة لكن شعبنا لا يملك غير السير في هذا الطريق لأن خياراته محدودة جدا إن لم تكن معدومة أصلا.

والثورة مكلفة جداً فدونها آلاف الشهداء والمعتقلين والمعوقين وأنهار من الدماء إلا أنها لا تدخل ضمن حسابات الربح والخسارة لأنها فكر ومبدأ روته دماء الشهداء وصراخ

المعذبين والمكلومين وهي قدر أرسله الله ليعيد صياغة الأمة ويعدها من جديد لدورها التاريخي وتألقها المعهود فالثورة هي سراج الأمل وعجلة التغيير القادم وما علينا إلا الثبات وتطوير الأداء بعد أن كسرنا حاجز الخوف والصمت لنكون أكثر تميزا وإبداعا بعد أن امتلكنا زمام الحرية وحلقنا في فضاءات وعوالم لا تعرف الاستبداد ولا العبودية.



العقدة الغوردية والعشرية السورية السوداء والبيضاء

محمد زعل السلوم

كاتب سوري

أولئك الذين شاهدوا أول أفلام سلسلة إنديانا جونز عام 1981 سيتذكرون بالتأكيد، اللقطة التي يجد فيها هاريسون فورد ويجسد فيها دور البطل نفسه "الدكتور انديانا جونز" في مواجهة عدو عملاق يلوح بسيف ضخم في جميع الاتجاهات، والأمر الذي نتوقعه من تلك اللقطة السينمائية المبهرة حصول قتال صعب. ومع ذلك، فإن إنديانا راضٍ عن سحب مسدسه وقتل عدوه برصاصة.

وهكذا كانت الشخصية التي قطعت للتو العقدة الغوردية، لحل مشكلة بطريقة سريعة وفعالة.

يعود تاريخ تعبير "العقدة الغوردية" من أسطورة حول الإسكندر الأكبر، الفاتح الشهير، لكنه يبدأ قبل ذلك بقليل في آسيا الصغرى وبشكل أكثر تحديداً في فريجيا وفي عاصمة فريجيا، التي سيُطلق عليها فيما بعد غورديون، كان الملك قد وافته المنية دون وريث. ثم تنبأت عرافة بأن

أول شخص، وأول فلاح يصل إلى المدينة على عربة ثور، سيصبح ملكاً. هذه هي الطريقة التي تم بها تعيين غورديوس، الأب المستقبلي لميداس، والذي كان بالمصادفة الأول في هذه الحالة، حاكماً قبل صعوده العرش، ربط عمود ونير عربته ببعضهما البعض في عقدة لا تنفصم.

ثم توقعت عرافة أخرى أن أول من سينجح في حل هذه "العقدة الغوردية" سوف يغزو آسيا (أو العالم، حسب النسخة).

في عام 336 قبل الميلاد، لم يكن الإسكندر الأكبر الذي مر هناك، مخططاً بشكل مسبق من أجل تعزيز سلطته قبل حملته الفارسية، وفقاً للبعض، أم كان مروره الصدفة وفقا لآخرين، حاول فك العقدة. ولم يكن قادراً على فعل ذلك، لكنه امتشق سيفه وقطعه بحدة.

نحن نعلم ما حدث لفتوحاته فيما بعد، وبالتالي إثبات دقة العرافة، حتى لو كانت الوسائل المستخدمة لفك العقدة تفتقر إلى حد ما إلى الأناقة لكنها كانت عملية للغاية.

ومن هذه الأسطورة ولدت استعارة "العقدة الغوردية"، وهي صعوبة حل أمر معقد، ولكنها بطريقتها الخاصة تهزم كل من يحل المشكلة بطريقة جذرية إلى حد ما أو الذين يقطعون دابرها على وجه السرعة. عند اتخاذ القرار بكل بساطة.

إذا كان تاريخ ظهور هذه الاستعارة غير معروف بدقة، فيمكن ملاحظة أنه سبق ذكره في الطبعة الأولى من قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1694.

للتذكير فقط، يُهمس في أذن الفضوليين أن السبب هو أن هاريسون فورد، الممثل الذي لعب دور إنديانا جونز الجزء الأول، كان يعاني من مشاكل خطيرة في المعدة في اليوم الذي تم فيه تصوير السلسلة السينمائية الشهيرة، و أنه كان لا بد من تقصير المدة، وأنه كان سيقترح هذا الحل السريع غير المتوقع في السيناريو والذي بقي راسخاً في أذهان المتفرجين.

بالمقابل تقترب سورية من عشر سنوات على ثورتها، وكلنا يعلم أن بشار الأسد هو العقدة الغوردية في الكارثة السورية، ولا يمكن حلها دون تقديمه للمحاكمة وإنهاء هذا النظام الذي أكل عليه الزمن وشرب لإنهاء معاناة كامل الشعب السوري. وحل كافة

قضاياه المعلّقة وإعادة الإعمار. ربما مجرد تنفيذ القرار 2254 كافياً لمنع ترشحه للرئاسة في انتخابات هزلية، والانتقال السلمي للسلطة وإرساء دستور يعبر عن تطلعات هذا الشعب المنكوب.

عشرية سوداء لكنها بيضاء في الوقت ذاته...

عشر سنوات على الثورة السورية لإسقاط نظام الأسد، الذي تبنى سياسة تدمير الشعب السوري، وتبنى استراتيجية (الأسد أو نحرق البلد) لقمع الثورة التي بدأت سلمية ولازالت لها أشكال السلمية ليومنا هذا.

ورغم العشرية السوداء لاستمرار وجود رأس النظام فكانت بالمقابل عشرية بيضاء لن تعيد النظام إلى ما كان عليه قبل الثورة وبيضاء في استمرار سلميتها والكثير من الجوانب الإيجابية التي تجعلها بيضاء وأهم ما فيها حرية الشعب السوري وخياراته على تنوعها رغم كافة التصدعات والشروخ الاجتماعية والسياسية والتدخلات الإقليمية والدولية التي لم تغنِ ولم تسمن من جوع، ولجوء ونزوح نصف الشعب السوري وأكثر داخل وخارج سورية.

وسوداء عندما مارس الأسد الجينوسايد مستخدماً كافة الأسلحة التقليدية واللاتقليدية من كيماوي وبراميل أسقطها على رؤوس المدنيين، وتعذيب وقتل أكثر من نصف مليون معتقل ومجازر متنقلة في كافة أنحاء سورية والتسبب في تدخل ستة جيوش داخل الأراضي السورية، إضافة للفيمينيسايد وقتل النساء واعتقالهن أو اليوربيسايد وتدمير المدن السورية وأعرقها مثل حلب وحمص، والاستمرار بمنهجية الخراب الأسدي من تجويع وإذلال لكل من يعيش بمناطق سيطرته ضمن المزرعة الأسدية. وإصرار على التمسك بالسلطة وعدم تنفيذ القرار الدولي 2254 بالانتقال السلمي للسلطة.

لم تعد سورية مزرعة الأسد خلال السنوات العشر، بل ومن أول لحظة تم فيها تمزيق صوره في محكمة درعا ومحافظتها وتمزيق صور والده الذي أرسى عقلية استبدادية

جهنمية. ولو كان عاقلاً وأقصد الأسد الابن وهذا الأمر بعيد عنه بالطبع، لتنحى فور رؤيته لتلك اللقطات.

عشرية بيضاء رغم الآلام لأنها الفرصة التي انتظرها الشعب السوري بفارغ الصبر مع باكورة انطلاق ثورات الربيع العربي في مصر وتونس واليمن وليبيا. لأنها أنظمة تعفنت وأكل عليها الدهر وشرب. أنظمة شمولية غير قابلة للإصلاح والتغيير بأي شكلٍ من الأشكال.

الثورة لازالت قائمة على قدم وساق رغم كافة التحولات ورغم الانكسارات والتهجير والتغيير الديموغرافي، فأجمل ما فيها هو أنها ثورة حرية وكرامة، وعلى كافة المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية، بل وغيرت الذاكرة الجمعية للسوريين وتحولت لذاكرة إبداعية وحتى على مستوى الإعلام الحر والمجتمع المدني وتحولاته حققت الكثير من التحولات ولا زالت.

نعم واجهت سورية عشرية سوداء ولكنها عرفت بالمقابل بل وتذوقت عشرية بيضاء فقط لأنها اختارت وبكل بساطة طريق الحرية وهذا ما يؤكد أنها ستنتصر في نهاية المطاف.



لحظات أمام الحقيقة

محمد قنطار

كاتب سوري

لا زلت أستذكر الأيام الأولى للثورة السورية، وما قبلها ببضعة أشهر.

كنت قد بدأت ألاحظ أن ملامح الناس بدأت تتغيّر، نظراتهم لبعضهم البعض وإلى ما حولهم باتت مرتابةً وحائرة، ربما فرحة، أو متلهفة بانتظار شيءٍ ما، أو ربما كنت واهماً، وإنما هي بواعث الأمل في داخلي التي جعلتني أرى الأشياء بشكلٍ مختلف، لم أكن متيقّناً ولكن الأكيد أن هنالك شيءٌ قد بدأ يتغيّر إلى الأبد.

لا زلت أتذكر أول مظاهرةٍ قمنا بها بساحة كلية الآداب بجامعة حلب كان ذلك بتاريخ 13-4-2011، اتخذ القرار قبل أيامٍ في غرفة كانت تحمل رقم 332 بالوحدة السكنية الثامنة بالمدينة الجامعية في مدينة حلب.

كنّا مجموعةً صغيرةً جداً، كان الموقف مهيباً لحظة تحلّقنا حول بعضنا البعض وسط ساحة الكلّية لنبدأ بالمظاهرة، ولا أبالغ مطلقاً ولا أجد حرجاً بالوقت ذاته لأخبركم أن وجوهنا جميعاً كانت شاحبةً نتلفّت حولنا وكأننا نودّع العالم، وخصوصاً أن معظم الطلاب ممكن كانوا متواجدين في الساحة والحدائق المحيطة بها، يعلمون، أو كانوا قد أتوا لأنهم يعلمون، أن هنالك مظاهرةً مناهضةً للنظام ستنطلق بهذه اللحظة في ساحة الكلية، فزادنا وجود كل تلك الحشود إرباكاً، لكن لم يعد هنالك من مجال للتراجع، فصرنا ننمّي الأمل في نفوسنا، أنّ لعلهم جاؤوا للمشاركة فيما نحن عازمون عليه، وليس عكس ذلك.

كان عدد كبير منهم قد افترشوا عشب الحدائق المحيطة بالساحة، وآخرين كانوا يتظاهرون أنهم يتجوّلون داخلها بشكلٍ عفوي، يمكن لأي شخص حينها أن يرى بعينه المجردة في ذلك الموقف، الأدرينالين وهو يتصاعد من أجساد الطلاب المتواجدين بالمكان، وكأنه بخار حار يتصاعد من أجساد يلهبها الحماس والفضول والخوف وربما الرغبة بالمشاركة فيما لو سارت الأمور على ما يرام.

حينها كانت أبصار الجميع شاخصة، جميع من كانوا موجودين بالساحة، بمن فيهم نحن، تلك المجموعة الصغيرة التي ستطلق المظاهرة بعد لحظات، نتلّفت بريبةٍ حولنا وكأنّنا سقطنا بالفراغ، نحاول البحث عن شيء نتمسك به ليُعيدَ لنا توازننا الذي فقدناه نتيجة شعورٍ غريبٍ لم يكن أحد قادراً على تفسيره.

"مظاهرة"!!

حتى الكلمة ذاتها كانت غريبة، غريبة فعلاً على ثقافتنا وتراثنا وأدبياتنا وشعرنا وموروثنا وتراثنا الديني والاجتماعي منذ عقود طويلة بالفعل.

لم أسمع تلك الكلمة بحياتي كلها بشكلٍ مباشر، حتى ما قبل عزمنا على التظاهر ببضعة أيامٍ فقط، كنا حينما نردد تلك الكلمة فيما بيننا عندما كنا بصدد "الدعوة السرية" للمقربين من أصدقائنا لمشاركتنا بالتظاهر، نرددها بشيءٍ من الارتباك الذي يشوبه ذات القدر العظيم من الفرح والخوف.

لحظة تحلّقنا في تلك الساحة لنطلق تلك التظاهرة، وقفنا لدقائق -لا أعرف لماذا- ننظر لبعضنا البعض.

كان السؤال الجوهري الذي بدأ يجول ضمنياً في أذهاننا في لحظة الحقيقة تلك، هو كيف نتظاهر؟!

ماذا يفعل المتظاهرون؟ ثم ماذا سنقول؟ أين سنتجه؟ كيف سنختتم تلك المظاهرة؟

كانت الإجابات حول كل تلك الأسئلة جاهزةً ومدروسةً قبل المظاهرة بأيام، كنا نعيد الخطة فيما بيننا وبأذهاننا كمن يذاكر درساً ويستعد لامتحانٍ نهائيٍ سيحدد مصيره ومصير من سيلحق به لاحقاً لأجيال طويلة قادمة، فلا مجال للرسوب ولا مجال للنسيان أو فقدان التركيز.

ولكن رهبة الامتحان كانت كأشد ما يمكن أن يشعر به أي شخص يخضع لامتحان بالمطلق، حيث تبخّرت الإجابات لدقائق لحظة تجمعنا تلك.

كان أول هتافٍ أطلقناه، هو "واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد".

لا أدري حينها بتلك اللحظة بالتحديد فيما إذا كنا قد أطلقنا ذلك الهتاف، لنوصل فعلاً رسالة لمن حولنا وللسوريين والعالم بأننا نؤكد على وحدتنا الوطنية، أم أننا أطلقنا ذلك الهتاف لنطمئن بعضنا البعض، ولنطمئن من حولنا، برسالةٍ "دفاعية" مفادها: أننا لسنا ضدكم، فلا تكونوا ضدنا، وأننا ولو بدونا مختلفين في عيونكم أنتم يا من اعتادت عيونكم على رؤية الحياة بلون واحد، لكننا لا زلنا منكم، مع فارقٍ بسيطٍ هو أننا نريد أن نعبّر بشكل علني على أننا نريد مستقبلاً أفضل.

انطلقت المظاهرة، وبدأ مئات الطلاب بالتحشّد حولنا، لكننا ورغم ذلك كنا وحدنا من يهتف، وكانت الحشود حولنا فقط تتدافع باتجاهنا حيث بتنا نشكل المركز، كما الفراشات التي لا تعرف سبب اندفاعها التلقائي لمصدر النور حتى لو احترقت به، وكأن النور يغريها فلا تستطيع مقاومته، حتى لو كان التصاقها به سيسبب هلاكها، كانت الحشود فقط تتدافع باتجاهنا ويضغطوننا أكثر فأكثر باتجاه المركز، لا أدري سبب ذلك التدافع باتجاهنا من كل الاتجاهات لدرجة أننا لم نستطع التحرك ولا خطوة بأي اتجاه إلا بعد دقائق، استطعنا خلالها، أن نشق طريقاً باتجاه باب الكلية الذي أغلقه حرس الجامعة وعناصر الأمن في وجوهنا لمنعنا من الخروج.

ربما كان ذلك التدافع غريزياً بدافع الخوف والحماية، وربما كان الفضول والرغبة العارمة بالانضمام التي تحول دونها الجرأة على فعل ذلك.

عندما بدأنا الهتاف، شعرت أنني أهيم بالفضاء، رأيت الخوف شاخصاً أمامي، رأيته بأم عيني، صرخت بوجهه، انتشيت بصراخي بوجهه حتى تلاشى تماماً، بدأ فرحٌ غامر يتملّكني، شعرت بأنني أرغب بشدة بالرقص، والقفز، والصراخ.

شعرت أنني أصبحت مرئياً، لم يكن مهماً أبداً بصراحةٍ ماذا نهتف، والحقيقة أنني لا أذكر سوى أننا هتفنا "واحد واحد واحد الشعب السوري واحد"، لا أدري ما هي الهتافات التالية التي رددناها، ولم أكن أكترث أصلاً.

كانت الرغبة بالصراخ بالنسبة لي أشد بكثيرٍ من الرغبة في إيصال أي رسالة لأي أحد، شعرت أنني بحاجة للصراخ، أحببت صوتي حينها كثيراً، وبعبارةٍ أدق، لا أبالغ أنني أدركت حينها، أنني تفاجأت بصوتي الذي شعرت أنني بدأت أسمعه للمرة الأولى بحياتي كلها.

كنت مدركاً بأن السلطة لم تكشر عن أنيابها بوجه الشعب فقط لأنه كان يهتف "الشعب السوري واحد" أو "حرية" أو "الشعب السوري ما بينذل"، أقصد أنه ليست تلك العبارات بذاتها هي من أثارت كل بواعث التوحش لدى السلطة، بقدر ما كان صوت الناس، بغض النظر عما يقولون، هو ما يرعب السلطة ويثير جنونها، تلك السلطة التي لم تعتد سماع صوتهم منذ استيلائها على دولتهم، وهيمنتها على مجتمعهم.

بدأت نشوتي تتبدد شيئاً فشيئاً كلما عَلتْ أصواتٌ، بدأت خافتةً تأتي وكأنها من وادٍ سحيق، لتعلو فتطرق الأسماع بصخبٍ أكبر.

أصواتٌ لطالما سمعناها، تهتف بحياة المجرم وتفديه وتفدي نظامه، كانت وجوههم قبيحة بكل بساطة.

كانوا يهتفون للنظام بمنتهى الشراسة، بحقدٍ لم أره متجلياً على وجه شخص ما بحياتي كلها مثلما رأيته متجلياً في وجوههم.

كيف تفجّر كل ذلك الحقد فجأةً؟ كيف يستطيع شخص أن يظهر على وجهه ذلك القدر من الشراسة والاستكلاب؟ كنت مذهولاً تماماً، لكنهم بدوا مخيفين بالفعل.

انقضت التظاهرة، لألتقي مع مجموعةٍ من الأصدقاء ممن شاركوا بها، في منزل أحدهم، ضحكنا كما لم نفعل من قبل، ربما –وهو ما أرجحه– كان الفرح بنجاتنا كما لم نكن نتوقع، جلسنا ساعاتٍ طويلةٍ نستذكر تفاصيل التفاصيل كلّ لحظةٍ، نستذكر بسخريةٍ ملامح وجوه بعضنا البعض كيف بدت بنظر كلٍ منا في كل لحظةٍ، ورغم أننا وببساطة شديدةٍ، كنا قد اخذنا سيارات الأجرة لنبتعد عن المظاهرة بعد انفضاضها، لننطلق مباشرة لمنزل صديقنا، دون أن يحدث أي شيء استثنائي، لكننا روينا سرديّاتنا لتلك اللحظات حتى وصولنا لمنزل صديقنا وكأنها مغامرةٌ هوليودية قلّ من يستطيع الإقدام على فعلها.

عندما ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي، كان كل شيء أجمل بطريقةٍ سحريةٍ فعلاً، أحببت الناس والأماكن وما أنا عليه أكثر، صار الأمل يتراءى لي في الأجواء أينما نظرت، استعيد بنشوةٍ تلك اللحظات التي تجرأت فيها مع زملائي على ثقافة القطيع، لم أعد جزءاً من القطيع، شعرت أنني أصبحت معرّفاً بذاتي، أصبحت حراً رغم أنف المجتمع والسلطة، وصَارتْ هويتيّ مُذ ذاك "حرية للأبد"، لقد انتصرت حقاً.

بيض الوقواق في عش الثورة السورية

مصطفى الولي

قاص وكاتب فلسطيني سوري

عشر سنوات مضت على انطلاق الثورة السورية، لم يكن سهلا خلالها قبول فكرة ألا تنتصر الثورة، أو تفشل في تحقيق هدف الإطاحة بسلطة الاستبداد، كما لم تكن المخيلة العامة الجمعية، ومثلها مخيلة النخب المنحازة للثورة، وتلك المنخرطة فيها، تملك تصورا نظريا ناضجا ومتبلورا للمسار الذي يمكن ان تتجه نحوه قوى الشعب السوري المنادية بالحرية والخلاص من الاستبداد.

وذات الأمر في تشوش توقعاتها لما ستقدم عليه السلطة من أساليب للدفاع عن بقائها، ولإلحاق الهزيمة بثورة الحرية، وإن كان الجميع قد اعتقدوا، وكان اعتقادهم صائباً، بأن العنف والقمع سيكونان السبيل الأساسي الذي ستسلكه السلطة لحماية نفسها وإلحاق الهزيمة بالقوى الثائرة، غير أنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن يصل القمع الدموي الى مبتغاه بإلحاق الهزيمة بالثورة.

لعل مصطلح الهزيمة، عندما يستخدم لوصف المآل الذي يقف فيه الشعب السوري اليوم، يجرح ويصدم الأمل الكبير الذي ملأ النفوس خلال السنتين الأول من عمر الثورة. واذا بحثنا عن مصدر "صدمة الأمل" يمكن التوصل الى مقاربة لخلفيات ما أصفه بالصدمة.

أوهام كثيرة ملأت الوعي العام، ورسخت "الثقة" باستحالة نجاح السلطة في إبقاء سيطرتها على مقاليد الحكم في سوريا.

أولها: أن شجاعة الشعب في ميادين التظاهر والمواجهة، جعلت الاطمئنان لإلحاق الهزيمة بالسلطة أمرا شبه مؤكد، وكذلك كان مشهد شمول الثورة للمدن السورية كافة، ولو بدرجات متفاوتة بين مدينة وأخرى، إلى جانب درجة قصوى من الاستعداد للتضحية، يرسخ القناعة بحتمية الانتصار على سلطة الاستبداد والطغيان.

وثانيها: أن النجاح الجزئي لثورتي مصر وتونس، ثم سقوط سلطة القذافي في ليبيا، زاد من الأمل الكبير بحدوث نسخة مشابهة في سوريا، وبشكل عام، بعيدا عن تفاصيل كل واحدة من تلك التجارب.

ثالث تلك الآمال- الأوهام، قامت على تصديق الادعاءات الإقليمية والدولية بنصرة الشعب السوري، بحمايته والدفاع عنه، بما في ذلك من إشاعة مواقف تقول باستعداد تلك الدول للتدخل العسكري لمنع سلطة الاستبداد من الفتك بالشعب السوري وثورته.

أما الوهم الرابع، وهو الأخطر، ذلك التقدير الساذج والخاطئ لقدرة السلطة على البقاء، واستحالة نجاحها في الحاق الهزيمة بالثورة. فالجهل ببنيتها، والغموض في فهم أساليبها التي يمكن استخدامها للدفاع عن بقائها، وبأي ثمن، مضافا إلى ذلك أن الجهل بتحالفاتها الإقليمية والدولية كان سمة للوعي العام، ومعه وعي "النخب" المشاركة في الثورة وتلك المنحازة إليها، وهنا كانت الصدمة المتدحرجة خلال تداعيات الصراع المحتدم في الميادين، فلم يكن أحد ليتصور، أو يتوقع، أن تستخدم سلطة الأسد، وبتأييد ودعم من حلفائها،(موسكو وطهران) سلاح الطيران في قصف المدن الثائرة، واستخدام الصواريخ الباليستية، التي انطلقت من القطيفة في ريف دمشق لتصل إلى مدينتي الرقة وحلب، وصولا إلى القصف بالبراميل العمياء، والسلاح الكيماوي الرهيب والمحرم دولياً.

تلك المعطيات، مصدر الأوهام، جعلت القوى الحية في الشعب السوري، تلازم التخبط والارتباك والعشوائية، كعوامل منعت قوى الثورة من تعديل اتجاه عملها، وإعادة النظر بأساليبها، والعمل على تطوير بنيتها التنظيمية، وأدوات المواجهة في مراحل احتدام الصراع واتساعه ليشمل الأراضي السورية كافة.

في غضون ذلك، كان من المفترض نظريا، أن تسعى قوى الثورة لتطوير ذاتها بما يتناسب مع شروط المواجهة ضمن معطيات الصراع، وبما يتناسب مع ضرورة الانتقال من العفوية العشوائية التي كانت سمة رئيسية للثورة منذ لحظة انطلاقها، إلى انتاج ذاتها بشكل مختلف، أكثر وعيا وأرقى تنظيما، وأنضج أدوات، لوقف التدهور الذاتي، ولدرء أخطار السحق وإبعاد احتمالات الهزيمة على يد قوات السلطة وحلفائها.

بيد أن ما حصل، واعتبارا من نهايات العام الثاني للثورة، كان مغايرا لشروط إنقاذ الثورة، بتجاوزها لمعضلاتها المتفاقمة، من خلال انعدام القدرة "على تغيير الأحصنة خلال عبور النهر"،

إذ تكَفَل "طائر الوقواق"، بإجهاض الثورة من الداخل، حين راح يضع بيضه في عش الثورة، ليحول دون نجاح محاولة "تغيير أحصنة الثورة خلال عبور النهر".

طائر الوقواق هذا، معروف في دورة حياته الطبيعية، حيث يقوم بوضع بيضه في أعشاش طيور أخرى، بعد أن يكسر بيوض الطائر الأساسي صاحب العش، الذي بناه ليتكاثر وتتطور حياته بعد تفقيس بيض أنثاه. وحين تتسلل أنثى الوقواق إلى العش، تكسر بيضة، وتضع مكانها بيضتها، ودورة تفقيس بيضة الوقواق أسرع من تفقيس بيضة الطائر الأساسي الذي بنى العش بعمله وجهده، وإذا تصادف أن فقست بيضة للطائر الأساسي يقوم فرخ الوقواق الأكبر حجما والأقوى جسدا، بإلقاء الفراخ الأساسية خارج العش لتموت ولتكتمل دورة نموه وصولا إلى الطيران. وحسب خبرات علماء حياة الطيور، فلا ينجح طائر الوقواق بالتسلل إلى الأعشاش إلا عندما تكون الطيور المستهدفة أعشاشها، "غشيمة" لم يسبق لها أن تزاوجت، فتمر عليها بسهولة خدعة بيضة الوقواق، وتظنها بيضة من بيوضها، ولتنجح الطيور التي يستهدف الوقواق أعشاشها، لحماية بيضها، تحتاج لموسم تكاثر جديد، بعد أن تكون قد تعلمت كيف تحرس بيضها في العش، بمراقبة دائمة لأي طائر غريب يتسلل إلى العش، وإن صدف أن تسلل وباض بغفلة من انثى الطير صاحب العش، تكتشف الأنثى بخبرتها أن هذه

البيضة غريبة ولا تعود لها، فتلقي بها خارجاً، أو تكسرها قبل أن تفقس وتبني عشا جديدا لها يمكنها من التكاثر دون انتظار موسم آخر قادم.

في إحالتنا خدعة الوقواق تلك، ومكره وذكائه، إلى تجربة الثورة السورية، سنقف حيال القوى السلفية الأصولية، التي دخلت عش الثورة في غفلة من وعي أصحاب "العش– الثورة"، وشرعت بإنتاج كائنات غريبة عن طبيعة الثورة، ثم بدأت بقتل الثورة بتكسير "بيضها" وإن تأخرت عن التكسير، تقوم بقتل من فقستهم بيوض الطائر الذي بنى عش– أعشاش الثورة.

أكثر من وقواق تسلل إلى أعشاش الثورة السورية، وفي المدن السورية كافة، لقد كبرت فراخه، وحلقت، وراحت تتكاثر بأسماء مختلفة، وأخطرها ثلاثة أنواع من الوقاويق: جبهة النصرة، وداعش، وأحرار الشام، ومسميات أخرى لقوى اتخذت من الفكر الديني سلاحاً لمد نفوذها في الوعي الشعبي، وهي تتمايز عن بعضها، لكنها تتكامل في مهماتها بتدمير أعشاش الثورة وقتل مواليدها الجدد، أو إجهاض مخاض اكتمالها.

ومن المفيد أن نشير إلى اختلاف ألوان وأحجام "طيور الوقواق"، لكنها تشترك بصفة أساسية، وهي تدمير أعشاش سواها من الطيور وقتل فراخها وتكسير بيوضها. ذلك هو حال الثورة السورية، فكل الوحوش المفترسة التي انقضت عليها، وبما تملكه من امكانات وأدوات وخبرات، يمكن المغامرة بالقول: إنها لم تكن قادرة على سحق الثورة، والإجهاز عليها، بتلك السهولة، دون الوظيفة البشعة التي قامت بها طيور الوقواق، قبل أن تنمو أجنحة الثوار لتحلق في الفضاء المناسب لتحقيق أهدافها.

على أية حال، من الضروري التأكيد، على أن طائر الوقواق المخادع والقاتل، خرجت أصنافه الأخطر، من مخابئ سلطة الاستبداد في اللحظة المناسبة لخطة قادتها وحلفائهم. ومن لم يخرج من تلك المستودعات، وجاء من مواقع وفضاءات أخرى، مالبث أن حلَق في الفضاء ذاته الذي يخدم أعداء الثورة وحلفائهم.

وطالما التناقضات المتجذرة في سوريا، والآخذة في تهديد شروط البقاء قيد الحياة بحدها الأدنى المطلوب إنسانيا، على الصعد كافة، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، طال ما يدعى القاعدة الاجتماعية للسلطة، فأن ما يلوح في الأفق هو معاودة الشعب حراكه المتصادم مع السلطة الهمجية، وعليه فإن الدرس الواجب تمثله في تداعيات الصراع، متنوع الأشكال ومتباين المستويات، هو أن لا تتكرر تجربة الصراع الذي تفجر عفويا في آذار 2011، حتى لا تخربها "وقاويق" أخرى من أنواع جديدة، ويقتضي ذلك درجة من الوعي والتنظيم تمكن الفئات الشعبية من خوض المواجهة موحدة ومتكاملة، في تجاوز للتباينات المتنوعة في واقعها شديد التعقيد، وبما يكفل سلامة تطور النضال، وحمايته من الانحراف والاختراق واحتمالات الإجهاض وصولا إلى تكرار الهزيمة.

وتقول التجربة التاريخية للثورات:

إن أكثر من بروفا تسبق نجاح الثورات، وثمنها يكون باهظاً، لكن النصر سيكون حليفها، ولقد دفع السوريون أكبر الأثمان في تجربتهم الفريدة منذ آذار 2011، على طريق التخلص من الاستبداد.

ولا بأس أن نستعير، من تاريخ أعظم الثورات، شعار:

"ماتت الثورة.. عاشت الثورة".

مازال جسد بوعزيزي السوري يحترق

مصطفى علوش

كاتب سوري

انتظرناها طويلاً وحين بدأت في منتصف آذار عام 2011 بدأنا بخيانتها، وبدل أن نساند هويتها الوطنية السورية فقط تماهينا بقاتلها وأراد منها بعض أبنائها أن تكون مزرعة لأهل السنّة ولم يخجلوا من طرح شعار قائدنا للأبد سيدنا محمد، وحين كان على شعار الحرية أن يجمعنا كسوريين وجدنا أنه كبير على مقاسنا جداً، فتم تفصيله وتشويهه ليتحول إلى مزراب ذهب لعشاق الإتجار بالثورات، نعم هناك من أصبح ملياردير‌اً بفضل الثورة السورية، وخير برهان على ذلك حين تحولت ساحات الفيس بوك إلى ساحة للحرب الأهلية.

لم يقتلنا بشار الأسد ونظامه فقط إنما قتلنا نحن روح الثورة حين اعتقدنا أنها عمل عسكري فقط، في ميزان قوى عسكري خاسر سلفاً حيث بقي الطيران بيد النظام وبيد الثوار البنادق وبينهم داعش وجبهة النصرة ومخبري النظام. ومع الأيام استشهد الكثير من الثوار وبقي أمراء الحرب يتاجرون بالناس والثورة.

ناقشنا كل شيء، نحن الأحياء ولكننا بقينا خائفين من بعضنا البعض، بقينا مذعورين من بعضنا البعض. بقيت كل قوتنا العامة صفر على يسار الرقم. بسبب عدم الاتفاق على خريطة طريق سياسية واضحة.

كانت ثورتنا، كبيرة جداً علينا، كان علينا أن نقرأ في علم السياسة كثيراً قبل أن نتوقع أن هذا العالم لن يسمح بمجزرة حماه ثانية، كان علينا أن نقرأ سياسة ونمزجها بقراءات في علم النفس لنتعرف إلى هذا الجهل السوري القاتل الذي سمح لكل هذا العفن المتطرف بالوصول إلى قلوب الناس.

ليس بشار الأسد ونظامه وحاضنته وحلفاؤه من جعل النظام يبقى حتى الآن، إنما أيضاً شخصيات المعارضة مجتمعة ومنفردة بكل هيئاتها السياسية والتي لم نسمع من أي من أفرادها اعترافاً صريحاً بالفشل السياسي، وبالإخفاق، ولم نسمع من أي واحد من هؤلاء أنه عليه التقاعد سياسياً بسبب الخرف وزيادة الشحوم في الكتابة السياسية الأسبوعية التحليلية في الصحافة الممولة من دول عربية صغرى ترعى جبهة النصرة ومشتقاتها سياسياً وعسكرياً وعملت بالليل والنهار على إفشال الثورة من خلال الدخول إليها عبر كل الطرق، منظمات، أحزاب، برامج إثارة الطائفية.

الآن نحن عبارة عن مجموعة من الضحايا، والناجين، نحن مجموعة من الطوائف موزعون في القارات السبع، ولا أحد يريد الاعتراف صراحة بأن الثورة لا تدار بعقلية الثأر والنكايات والكراهية والحقد والانتقام.

نعم حتى اللحظة سياسياً فشلنا، ومازال بشار الأسد يلتقي بالإعلاميين ليشرح لهم أضرار الليبرالية الحديثة، لكن ثمة مسار حقوقي قانوني سوري يسير بخطوات واثقة وصادقة، تمكن مؤخراً حتى الآن من إيصال صف ضابط في استخبارات النظام إلى السجن، وأجد فيه أهم طريق للأمل لمتابعة الثورة لمن استطاع إليهه سبيلاً.

ورغم كل هذا البكاء المتسرب من كلامي، أنا متفائل لأن بيننا من يعمل بشرف في خدمة الثورة، يعمل في الليل والنهار حتى ترتاح أرواح الضحايا.

علينا أن نتعلم ونتفق على نخبة سياسية سورية جديدة تكون قادرة على العمل السياسي المنظم القائم على المتابعة والصبر، نخبة نتفق معها على برنامج وطني سياسي شامل.

وإلى أن يحدث ذلك ستحترق أجساد كثيرة لبوعزيزي السوري فقرا وقهراً واعتقالا.



هلوسات في لاهاي

مصعب الحمادي

كاتب سوري

خرجت متلهفاً من محطة القطار في لاهاي، رفعت رأسي محملقاً في البنايات العالية قبالة المحطة ودخلت في نوبةٍ من الضحك الهستيري غير مكترثٍ بحشود الناس من حولي. كنت في داخلي أردد هتافنا الشهير في ساحة المظاهرة في قلعة المضيق (وفي عموم سوريا) قبل عشر سنين:

"يا بشار باي باي! بدنا نشوفك في لاهاي"!

كان بنا من السذاجة السياسية يومها ما جعلنا نعتقد بطهرانية هذا العالم، وأن الكثيرين سيهبّون لمساعدتنا بالخلاص من قمع الدكتاتور، وخصوصاً أن حركتنا كانت محقّة ومنطقية في نفس الوقت، ومتناسبة مع رياح التاريخ وروح قوانينه التي تجلّت في المنطقة العربية فيما بات يُعرف بالربيع العربي. كما أنها كانت حركة شعبية وطنية التفّت حولها مختلف شرائح المجتمع وطوائفه، قبل أن تغزوها الجهادية بتواطؤٍ وتسهيل من النظام نفسه الذي راح يزعم كذباً في مرحلةٍ لاحقة أنه يحارب الإرهاب.

ارتفع صوتي بالقهقهة أمام المحطة وكدت أصيح: "يا ناس! يا هو! من رأى منكم بشار الأسد؟ نحن على موعدٍ معه هنا من عشر سنين؟"

ولكن اليوم يزول الوهم، وينبثق الوعي من مرارة التجربة. سبع سنين مرّت على انهيار الحلم ومغادرتي البلاد هرباً من إرهاب الأسد ودواعشه. وبعد التشرد في مدن تركيا، ومقاطعات فرنسا، وبلدات هولندا، ها أنا ذا الثائر المنهزم أفتح عينيّ لأجد نفسي في

لاهاي، مجرد طالب لجوءٍ، أشعث أغبر، مطرودٍ عن الأبواب، بينما ما يزال الأسد في مكانه في دمشق رئيساً شرعياً للدولة السورية قهراً وغَلَبا ورغماً عن أنفي وأنوف الملايين من السوريين، وغيرهم الكثير من أحرار العالم من ورائهم.

من كان ليتنبّأ أن قتل نصف مليون إنسان، وتشريد أكثر من عشر ملايين شخص سيمرّ بلا حساب في عالم التواصل الاجتماعي والإعلام المفتوح الذي برع به نشطاء الثورة السورية، حيث نقلوا الجريمة بالصوت والصورة، يوماً بيوم، بما جعل بشار الأسد متلبّساً بالإبادة، ومذنباً بالجرم المشبوه.

لم أستطع أن أخمن أياً من هذه البنايات الشاهقة أمامي هي التي تضم محكمة العدل الدولية، ولم أعد مهتماً أصلاً! فالمحكمة وإن وجدت عياناً إلا أنها فعلياً غير موجودة بالنسبة إلي كسوري. بل إن العدالة نفسها في نظري – عداك عما يسمى زوراً بالعدالة الدولية – ليس لها وجود في هذا العالم القاسي. فماذا عساه يفعل الشريد مثلي في هكذا مدينة؟

فطنتُ للسبب الذي جاء بي أصلاً لهذه المدينة قادماً من مخيمٍ للاجئين في شرق هولندا حيث أقيم مؤقتاً مع أسرتي. وهكذا انطلقت راجلاً باتجاه قلعة بينهوف التاريخية الجميلة لأعزّي النفس المنسحبة من ضجيج العالم بمشاهد الآثار القديمة التي تعكس شخصية هولندا كبلدٍ أوربي صغير لكن مجتهد ومتطور، بحيث أصبح قبلةً للخائفين والمُطاردين أمثالي.

بعد التجول في الأروقة والباحات الفخيمة، عرّجت على مزيدٍ من الأبنية القديمة والمنتزهات الغافية على ضفاف بحيرة هوف، ثم ركبت الترام رقم تسعة متوجهاً إلى شاطئ بحر الشمال الذي يشكل الحد الأبعد للحضارة الأوربية في أقصى الشمال الغربي من القارة. كان مشهد الأمواج المتلاطمة الغاضبة هو العزاء الوحيد لي بعد رحلة ساعتين بالقطار من مدينة نايميخن على الحدود الهولندية مع ألمانيا. في النهاية،

لم يعد أحدٌ بقادرٍ على أن يحمل أوجاع السوريين إلا البحار، فقد ضاقت بنا الأرض بما رحبت.

بعد تجوال ساعتين على الشط أمضيتها بين إراقة الدموع وجمع الأصداف الملونة ضربني جوع شديد فقصدت مطعماً بجانب الشط. وبسبب ظروف كورونا اضطررت لحمل الصندويشة معي لألتهمها كأي كلبٍ شارد على قارعة الطريق. التفّت حولي حمامتان جائعتان رحت أقذف لهما فتات الخبز، ثم انضم إليهما طائر نورسٍ كبير الحجم ومتطفل بشكل مزعج، حاصرني كأنه شبيح أسدي لا يرضيه إلا أن يأكل البيضة وقشرتها! قذفت الصندويشة أرضاً ليتصارع عليها النورس والحمامتان وقفلت راجعاً للمحطة حيث غادرت لاهاي التي لم أجد فيها من العدل ما يكفي لكي يهنأ بها لاجئٌ مظلوم بكسرةٍ من الطعام على قارعة الطريق.



المثقفون السوريون وعقد الثورة الأعجف

مصعب قاسم عزاوي

كاتب سوري

لم تكن ثورة الشعب السوري المظلوم في آذار من العام 2011 ثورة زنادها القادح اجتهاد المثقفين بأشكاله المعرفية والتنظيرية والإيديولوجية، وإنما ثورة شعب أدمن التنكيل به، وقهره، وتحويله إلى قطيع من الأسرى في سجن كبير اسمه الحرفي والتوصيفي في آن معاً «سورية الأسدية».

وبشكل أكثر تدقيقاً فقد كانت ثورة السوريين ثورة عفوية شارك فيها كل الشعب السوري المنكوب تاريخياً منذ وأد مسيرة نضجه الطبيعي كمجتمع وككيان سياسي في لحظة إذعانه للقومية الشعبوية العسكرتارية مشخصة بلحظة اجتراعه على مضض لمشروع الوحدة الاندماجية مع مصر في العام 1958 في تجربة إرادوية أصلَّت القمع كأسمى أدوات الفعل السياسي في المجتمع، ومأسست الدولة الأمنية وشبكة علائقها كنموذج حصري ليس سواه من بنيان وهيكل للبيروقراطية التنفيذية للكيان العياني المشخص لعلاقة الرعايا بحكامهم. وهو الواقع البائس الذي أعاد إنتاج نفسه بشكل أكثر قبحاً في انقلاب القوميين الفاشيين من البعثيين في العام 1963، وما تلاه من انقلاب البعثي «الخلبي» حافظ الأسد في العام 1970، واعتقاله لكل «رفاقه» من «رموز الفاشية البعثية»، ليفسح المجال لإعادة تعريف «حزب البعث الفاشي» بمضاهاته و مطابقته مع شخص «حافظ الأسد» نفسه ليتصعد بعدئذٍ إلى رتبة «القائد الملهم» الذي يختزل الوطن في «عظمته الفاشية والمافيوية والطائفية»، ويصير في ظله المجتمع السوري «سورية الأسد» التي كان المآل الطبيعي لصيرورتها الاستمساخية ممثلاً بتحولها «ملكية إقطاعية» يورث فيها «الفاشي الأب» ابنه «المأفون الممسوس» بواجبه المقدس

بالحفاظ على كينونة ما استولى عليه «سلفه بالحديد والنار»؛ وهو ما كان المقدمة للتعامل البربري المنفلت من كل عقال آدمي في تعامل كل المنتسبين إلى جسد «الدولة الأمنية السورية» والمنتفعين منها من مرتزقة و قناصي فرص مع أولئك المقهورين الذين خُيِّل لهم بأن الانعتاق من «أسرهم المزمن» في أوطانهم المحتلة من قبل طغاة الفاشية الأسدية وجلاوزتها وعسسها وبصاصيها ووشاتها قد أصبح قاب قوسين أو أدنى كما كان حال أشقائهم في القهر و الفجيعة المزمنة في «تونس الطاغية بن علي»؛ وهو ما كان ليتحقق فعلياً لولا تآمر كل الأفرقاء والأعدقاء الكونيين على الشعب السوري المظلوم، وتحويل أرضه إلى ساحة لتصفية حساباتهم بدماء الشعب السوري المكلوم.

وقد يستقيم القول بأن الكثير من المثقفين الأحقاق في سورية قد أخذوا على حين غرة بذلك الزخم الشعبي الثوري الاستثنائي مجتاحاً جُلَّ تفاصيل الخارطة السورية بشكل غير مسبوق استعصي استبطانه من قِبَل أولئك المثقفين الذين تدرب كثير منهم على «فن السير على الخطوط الحمراء دون تجاوزها»، أو الانكفاء إلى العمل الثقافي النخبوي فكرياً أو إبداعياً أو حتى أكاديمياً في محاولة لتجنب مفاعيل حلقة الترويع التاريخي التي قام بها نظام «الطاغية الأب» بتصفية وإعدام الحركية الثقافية في سياق تصحير المجتمع سياسياً وفكرياً ومعرفياً ضمن نسق أن «حزب البعث قائد للدولة والمجتمع»، وأن الحزب ومن لف لفه من أمساخ انتهازية ارتزاقية فيما كان يدعى «الجبهة الوطنية التقدمية» مشخص مختزل في كينونة وعظمة «القائد الملهم» الذي ليس من جهد ثقافي أو فكري أو معرفي يستحق القيام به في حضرته سوى «التسبيح بحمده بكرةً وعشياً».

وهو الواقع المأساوي الذي أنتج جحافلاً من «المثقفين الخلبيين» من فئة «المتعالمين الانتهازيين الوصوليين» الذين تمكنوا بقوة «إرهاب الدولة الأمنية وأجهزتها القمعية» من تأصيل معادلة قوامها أن المثقف الخالص في «سورية الأسدية» هو الأكثر «إبداعاً

و أصالة» في «فنون و ضروب» التحول إلى «تيس مستعار» مهمته نزع صفة «الحرام» عن الطغيان والاستبداد والفساد والإفساد المافيوي للدولة الأمنية وتحويله إلى «حلال زلال»، بالتوازي مع «تفتقه الثر» عن مداخل إخراجية جديدة تبز كل ما كان يقوم به «وعاظ السلاطين»، و تتجاوزه إلى رتبة جديدة من «نضال الرفاق المثقفين الأمنيين» الذين تصدرت إفرازاتهم كل المحافل الثقافية المحدودة على امتداد الخارطة السورية إبان الثورة، والتي قد يكون أبرزها «اتحاد كتاب علي عقلة عرسان»، و «اتحاد صحفيي البعث و الثورة و صابر فلحوط» الذين تمركز دورهما الوظيفي على تدجين المثقفين وترويضهم وتدريبهم على عدم تجاوز الخطوط الحمراء عبر «القبض على تلابيبهم المادية» من خلال ما يقومان بدفعه من مكافآت واستكتابات ومزايا هنا وهناك، دون أن يعني ذلك عدم حضور الآلة القمعية الجلمودية بكل ثقلها إذ سولت النفس الأمارة بالسوء لأي كاتب أو مثقف النشوز عما هو مرسوم له ليكون مصيره كمصير مئات الآلاف من المفقودين في غياهب السراديب الأمنية في الأفرع و الشعب الاستخباراتية التي قد لا يكون من المبالغة النظر إلى عددها بأنه كان دائماً أكبر من عدد المشافي والمدارس على امتداد الخارطة السورية دائماً في حقبة «عصور الظلام الأسدية».

وقد يكون من اللازم في سياق الحديث عن الثورة السورية اليتيمة التطرق إلى ما طغى هنا وهناك من نزعات نرجسية مبالغ بها لبعض «المثقفين الأحقاق» والكثير من «المتعالمين الخلبيين» لمحاولة امتطاء جسم الثورة وتصدر زخمها الاجتماعي والإعلامي، وهو ما تكرس لاحقاً في تشكل «رموز قيادية انتحالية مزورة» تصدرت الشاشات الإعلامية شرقاً وغرباً، بعد أن أصبحت الساحة الثورية مفرغة من قدرات فرز الغث عن السمين والانتهازي الوصولي عن «المثقف الانعتاقي المؤمن حقاً بثورة أهله وناسه» جراء ما تعرضت له انتفاضة الشعب السوري من بطش أمني في المراحل الأولى للثورة، ومن ثم عسكري على نهج النازيين والفاشيين بيمينهم ويسارهم في تخليق «الأرض المحروقة» و«الإبادة الجماعية» وصولاً إلى مختلف أشكال «التطهير العرقي

والمذهبي» في تراجيديا قد تكون الأكثر إيلاماً في تاريخ الثورات الاجتماعية في القرن الواحد والعشرين.

وهي الثورة السورية اليتيمة التي بدا زخمها الاستثنائي الصاعد في أشهرها الأولى بأنه تباشير الانتصار والانعتاق من طغيان «الطغمة المافيوية الأسدية»، مما حدا بالكثير من أولئك «المثقفين الطبالين» و«الأتياس الفكرية المستعارة» السالفة الذكر إلى القفز مبكراً من مركب «التسبيح بحمد الجلادين الأسديين والبعثيين» إلى مركب الثورة طمعاً في قطف مبكر لحصة أكبر من مكاسب الثورة التي كادت فعلياً أن تدرك مآربها في أكثر من منعطف في صيرورتها خلال الأشهر الأولى من عمرها الطهراني القصير. وذلك التوصيف الأخير يستدعي من كل ذي عقل وجنان لا زالت «الموضوعية والعقلانية» كسمتين واجبتين في خَلَدِ و جَنَانِ كل «مثقف صدوق» من التشديد على أن الثورات ليست كالحج الذي «يغسل ذنوب» المنخرط فيه، ويعيده «طاهراً كما ولد من بطن أمه»؛ إذ أن الهدف الطهراني السامي لكل الثورات الاجتماعية على امتداد تاريخ الحضارة البشرية المكتوب كان يتمحور حول «إنصاف المظلومين»، و«معاقبة الظالمين»، وهو ما يقتضي الإشارة بالبنان المشرئب واللسان القويم الصريح الذي لا مواربة فيه إلى الكثير من فئة «المثقفين التلفيقيين الخلبيين»، و الذين هم بالأصل «نكرات ووشاة و منافقون أفاقون تم تصنيعهم أمنياً في كواليس اتحاد علي عقلة عرسان وشركاه» قادهم «رجس قرون استشعارهم الدنيئة» إلى الظن بأن غرق مركب الطغمة الأسدية وشيك بعد تلويح «سيد الإرهابيين في البيت الأبيض» بخطوطه الحمراء الإيهامية، فقرروا القفز إلى مركب الثورة وهي في مهدها، ولم يجدوا من طريق بعد تراجع زخم الثورة السورية سوى العمل بالنهج الذي لا يعرفون سواه، وأعني هنا «الوصولية والارتزاقية» و«اللعب على كل الحبائل» لتحويل «انخراطهم الشكلي» في ركاب الثورة السورية إلى «بوابة للارتزاق والارتهان» على حساب دماء وحقوق السوريين المظلومين لأي من قد يشبع نوازعهم وغاياتهم وأسبابهم الوصولية والانتهازية الدونية الرخيصة في شكلها ومضمونها وكل تمظهراتها.

والحقيقة الدامغة في سياق عقد سنوات الثورة السورية مهيضة الجناح هو صَغَارُ وتقصير كل المثقفين الخلص بكل مشاربهم، عن القيام بواجبهم المناط بهم بشكل يرتقي إلى حجم التضحيات الأسطورية للشعب السوري المقهور، وهو ما تجلى بأشكال متفاوتة من القصور البنيوي و الوظيفي من قبيل بعض التمظهرات «الطفولية الفرويدية الصارخة» على شاكلة «الصراع الوجودي» الذي خاضته بعض «الأنات النرجسية المتورمة تلفيقاً» في منظار بعض شخوص الجسد الثقافي السوري لترسيخ و توطيد قيمتها –الصفرية في الواقع– في صيرورة الثورة السورية وبين العطاء الملحمي للسوريين البسطاء والذين لم يحظ الكثير منهم بقسط منصف من التعليم جراء الإفقار والنهب والفساد المنظم الذي هيمن على المشهد السوري خلال عقود «الظلامية الأسدية». وهو ما تجلى أيضاً بتلاوين تقصيرية أخرى عند البقية الباقية من أولي الألباب الخُلَّصِ من المثقفين على شاكلة «النكوص»، و«الانسحاب» جراء الشعور العميق المتأصل «بقلة الحيلة» و«التفجع المتحسر» الذي لا مهرب من حبائله في وجدان الغارق في مفاعيله، مقعداً إياه عن الانخراط أو الإتيان بأي جهد فعلي حقيقي ملموس يرتقي إلى مستوى وحجم تضحيات الشعب السوري الجللة.

وذلك التوصيف الأخير كله يستدعي من كل مثقف سوري حق مخلص صدوق إعادة الاعتبار للحقيقة الدامغة بتقصير جل المثقفين السوريين عن القيام بواجبهم التاريخي المناط بهم، بشكل يتجاوز «حركيات التنفيس» و«لغو نواصي المقاهي القائمة بالفعل و تلك الفيسبوكية منها» إلى نموذج من العمل المجتهد الدؤوب بكل ما أوتي كل فرد من أولئك المثقفين من قوة وعزم وصبر ومصابرة للالتحام بواجبه الذي لا بد منه إبداعياً ومعرفياً وفكرياً وتوثيقياً لإظهار الصورة الحقيقية لكينونة الثورة السورية الموءودة، والشعب السوري المظلوم المقهور، والدفاع عن حق كل أبناء المجتمع السوري المكلوم بالانعتاق وعدم الاستسلام المهين الذليل إلى ما يريد الظُلَّام من مظلوميهم استبطانه مشخصاً في المقولة النكوصية بأن «العين لا تقاوم المخرز»، والانتقال من فضائها الاستكاني الذليل إلى حيز «تشاؤم العقل بواقعه البائس، وتفاؤل

الإرادة بما يمكن لحركية التاريخ تحقيقه»، وهو ما قد يستقيم القياس عليه في نسق الثقافة و الفكر و الإبداع بأن «القلم المجاهد الصابر المصابر قد يفلح في صد المخرز» حين تتضافر كل المآقي التي يكتب لأجلها في حركة جمعية ينظر فيها المثقفون إلى ذواتهم بأنها جزء من عضوي وتكويني في لحمتها باطناً و ظاهراً بغض النظر عن موقعها الوظيفي فيه سواء كان ريادياً أو نصيراً أو ظهيراً.



بين ربيع الشعوب الأوروبية ١٨٤٨، والعربية ٢٠١١: عن مصائر الثورة السورية

موفق نيربية

كاتب سوري

ليس احتفالاً وحسب بمرور عشر سنوات على حدثٍ تاريخي عظيم في حياتنا، ولا حزناً وحسب على مصائر ذلك الحدث ومصائر السوريين جميعاً، نكتب اليوم! هذه الذكرى لن تصل إلى معناها ما لم نأخذها بالعلوم الكبيرة: كالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ، وربّما يأتي بعض تلك العبرة على جناح المقارنات المختلفة.

فقد ثارت مثل نقاشاتنا الحالية هذه قديماً، بمناسبة مرور عشر سنواتٍ على ثورات ١٨٤٨ في أوروبا، واستخلص الباحثون هنالك وفي تلك الأيام استنتاجات متباينة، كما نفعل نحن السوريين مع المهتمين أيضاً... فتّش الأوروبيون في واقعهم خلال ذلك العقد من التاريخ، وفي آفاقه المحتملة.

من الطبيعي أن تُذكّر انتفاضات الربيع العربي بتلك الثورات الأوروبية، التي أُطلق عليها أيضاً اسم "ربيع الشعوب" أو "ربيع الأمم".. مع أن الفارق بهذا المقدار من الزمن يصيب بالإحباط–وربّما الذهول– من حجم التخلّف الذي تخلّفناه عن العصر ومظاهر تطوره. ورغم ذلك، ربّما تكون إطلالة هناك وآنذاك عوناً لنا وتسهيلاً لتمرير ما لا يمرّ عادة بيسرٍ معنا هاهنا، وحالياً.

من أهمّ ما عالجه الباحثون في أوروبا يومها كان تفصيل وتجريد عوامل فشل ثورات ١٨٤٨، وقد اجتمعوا مع الزمان على إجمال ذلك في عدد منها:

– الافتقاد إلى الوحدة في تلك الثورات كلّها تقريباً. لم يتفق الاشتراكيون والجمهوريون في مهدها فرنسا... كان الاشتراكيون يحملون حماسة محدثي النعمة الذين اكتشفوا المبادئ والأفكار الاشتراكية لتوّهم مع ظهور الطبقة العاملة وإقلاع الثورة الصناعية في أيامها الأولى، وأرادوا تأسيس دولة اشتراكية على الفور ومسلوقةً بسرعة وعلى نارٍ حامية. في حين لم يقتنع الجمهوريون بذلك، وارتكز برنامجهم على تأسيس دولة ديموقراطية قائمة على الحريات الأساسية وحقوق الإنسان، مع ترك النواحي الاجتماعية الاقتصادية لمراحل لاحقة، حتى تأخذ حظّها من التفاعل مع تحوّلات المجتمع والاقتصاد وتكريس مفهوم حديث للدولة... كانت نتيجة ذلك الصراع ذبح حوالي عشرة آلاف عامل اشتراكي آنذاك، وفشل الثورة.

في إيطاليا، كان هنالك من يريد جمهورية بقيادة مازيني، ومن يريد مملكة دستورية بقيادة ملك بيدمونت وسردينيا، أو من يريد فيدرالية موناركية على رأسها بابا الفاتيكان أيضاً. وانقسمت النمسا بما ورثته من الأمبراطوية الرومانية المقدسة، مع ميول قومية مختلفة في المجر وبوهيميا.. وهكذا في كلّ مكان.

– متانة وحدة الخصوم في وجه تلك الثورات كلّها تقريباً كذلك. فقد أظهر الحكام الرجعيون التزاماً بوحدة صفوفهم غير مسبوق، مدفوعين في الغالب باتفاقهم منذ التقائهم في فيينا بقيادة مترنيخ لتأسيس علاقات دولية جديدة في عام ١٩١٤، (بعدما عانوه من آلام الهزائم في غزوات نابوليون أوائل ذلك القرن، التي كانت بذور الثورة وأفكارها تتحرك في ركابها)... تحرّكت الجيوش الفرنسية –نفسها– لنجدة البابا في إيطاليا؛ والروسية لنجدة أمبراطور النمسا ومساعدته على قمع المجريين، ومثل ذلك في أماكن أخرى.

– انعدام الثقة بين "المكونات" في أكثر من مكان: بين تشيك وألمان بوهيميا مثلاً، وبين المجريين والصرب والرومان أيضاً، وغيرهم. وكان لتلك الظواهر أن تصيب مشاريع التغيير الكبيرة وتتعارض معها أينما ظهرت، وتسهم في فشلها.

– غياب القيادة والتنظيم والبرنامج الواضح، على الرغم من ظواهر عظيمة من المشاركة الشاملة في الانتفاض، مع روح جاهزة للتضحية والإقدام لم يكن لها مثيل في التاريخ. كلّ ذلك لم يكن ليثمر وينتج ما لم تكن هنالك قيادة على مستوى تلك الثورة، تلهم الثوار– السكان بوجودها بينهم، وتساعد على صياغة طموحاتهم في مشروع واضح لا لبس فيه، وتقوم بتنظيم طلائعهم السياسية والاجتماعية والعسكرية، كلٍّ في حقله ومكانه ومهمته. كان الثوار شراذم و"ميليشيات" فوضوية أمام جيوش منظمة وأسلحة أشدّ فتكاً. بحيث لا يكون مصير الإقدام إلّا الموت المشرّف والهزيمة المحتومة، أو تحوّل تلك الشراذم إلى عصابات معزولة بعد أن كان خلفها مجتمعات كاملة داعمة.

– انعدام توازن وشمول الثورة، ما بين ريف ومدينة، وبين عمال وفلاحين أو طبقة وسطى، أو بين الجماعات الدينية المتنوعة.. وما في حكم ذلك. وقد ابتدأت انتفاضات عام ١٨٤٨ تلك في المدن والمناطق الحضرية، ولم تستطع إدماج الأرياف فيها على ما ينبغي ويلزم. ساعد ذلك على تحسين قدرة الخصوم على فرض الحصار والملاحقة، ومنع الثوار من ظهر وظهير ضروري كان يمكن للريف أن يؤمنه لهم.

هذا عموماً، وباختصار، ما أمكن ملاحظة تكراره بين أسباب فشل تلك الثورات لدى الباحثين.. لتلك الأسباب ذاتها رجعٌ وصدى واضحان وقويّان لدينا، مع أن الزمان مختلف والمكان، والعديد من الخصائص الجغرافية والتاريخية، والثقافية والإيديولوجية، وفي كلّ شيء؛ وليس ذلك علينا بغريب.. في الربيع العربي عموماً، أو– على الأقل– في سوريا.

لقد افتقدنا الوحدة في صفوفنا بقوة، رغم مظاهر الأمور في مجلسنا الوطني ثم ائتلافنا. وكان هذان أساساً قد قاما على اتفاق مباشر أو غير مباشر على إقصاء الآخرين، الذين لم يكن صحيحاً استبعادهم. في حقل المعارضة الديموقراطية التقليدية تمّ استبعاد القوى التي تجمّعت قبل وبعد ذلك في المنبر الديموقراطي وهيئة التنسيق الوطنية، وهؤلاء ليسوا قلة في سجلّات المعارضة الرسمية. تمّ أيضاً استثناء كتلة المثقفين

الديموقراطيين التي كانت قد تجمعت سابقاً- كمثال- في إطار لجان إحياء المجتمع المدني؛ وحدث ذلك تحت شعارات الجذرية ومحاربة الوسطية والتساهل أمام النظام وسحقه حتى جذوره. وإضافة إلى ذلك، كانت قد فشلت محاولات تجميع وتوحيد قوى شباب الثورة التي ضمتها "لجان التنسيق المحلية" و"اتحاد تنسيقيات الثورة"، القوتين الأكبر في البدايات في الحجم والفعل على الأرض، لأسباب تتعلّق غالباً بالإيغو الجديد لدى عناصر كانت قد تربّت لدى بعض المعارضة الرسمية أو القديمة.

كان جوهر الفرقة عموماً يتعلّق بالاختلاف حول وجوب التركيز على "إسقاط النظام" أم على طبيعة "النظام القادم الجديد"، حين يأتي. وكان من الطبيعي أن يستهلك الأول الثاني بجاذبيته وراهنيته وإروائه للغليل!

أما اجتماع الخصوم ووحدتهم، فقد كان لهما شكل جديد تجلّى في مواقف تستبطن العداء الشديد للعملية الثورية الجارية في سوريا، وتشتغل في الوقت ذاته على استتباعها وتوريطها في الاتجاهات المسلحة والمتطرفة من جهة، أو السياسية المائعة المتخاذلة من جهة أخرى... وربما لم نعد بحاجة إلى توضيح الأمثلة على ذلك، بعد أن انفضحت الأمور وانكشفت... منذ البداية- على سبيل المثال- عملت قوى خارجية شتّى؛ تعارضت بعد ذلك فيما بينها أيضاً؛ على عزل القوى العسكرية عن تلك السياسية في مسار الثورة بشكل حاسم.

تراجع حجم الثقة بين "المكونات" أيضاً إلى أدنى مما كان عليه من قبل، ولم تدم فورة لقاء العرب والكرد بقيادة شباب الطرفين إلّا قليلاً، ريثما استطاعت القوى التقليدية لملمة صفوفها واستجماع قدراتها لممارسة أساليبها التقليدية. وكان ذلك يخفي نفوراً مخفياً وأصيلاً من الثورة ذاتها أحياناً، أو طموحات متنامية إلى الاحتواء أو الاستئثار في أحيان أخرى، أو انسجاماً وتوفيقاً مع أطرافٍ أخرى في حالة ثالثة. وحتى حين "لجأت" قوى المجلس الوطني الكردي إلى الائتلاف مثلاً وحققت اتفاقيتها معه، أخفى ذلك احتماءً من الخصم الداخلي (حزب الاتحاد الديموقراطي) الذي كان ظهوره الأكبر

وهيمنته اللاحقة يلوحان في الأفق.. في حين لم يقم الائتلاف بتلك الخطوة إلّا- مكرهاً لا بطل- وتحت ضغط قوى عشائرية محلية ذات مصلحة، صدف أن كانت قوية في قيادة الائتلاف بدعم إقليمي وازن... جوهر هذه النقطة دائماً هو "غياب الثقة بين المكونات"، كما كان الأمر في أوروبا القديمة تلك.

لم يكن انعدام التوازن والشمول بعيداً عن أجوائنا كذلك. فقد ابتدأت الثورة السورية بتركيزٍ أكبر في المدن، في حمص ودرعا ودمشق وحماة واللاذقية وغيرها.. ثم استبسل النظام في محاولته منع استعادة التجربة المصرية والتونسية وميادينهما، وابتدأت نيران أسلحته بالتوجه مباشرة ضدّ ذلك التمدّد، كما ظهر واضحاً في ساحة العباسيين في دمشق ثم بشكل مأساوي في ساحة الساعة في حمص... ثم ظهر بشكل دفع إلى حسم تردد النظام بعد مظاهرات حماة ودير الزور الهائلة الحجم، المنذرة بالتغيير.

كان رد فعل الثوار والمعارضين هو اللجوء إلى الأبعد عن المدن والتعمق في الريف وحتى العشائر، ومن ثم التنظير لظاهرة الموقف الرمادي بين سكان المدن، في كبرى الحواضر، خصوصاً في حلب ودمشق... وما زالت هذه الظاهرة تفعل فعلها، وتتمظهر في اعتبار سورية قد تكثّفت في إدلب وريف حلب مثلاً، تحت شعار أنها أرض "محررة". في حين لا تعالج سياسياً أوضاع أهالي المناطق الواقعة تحت سيطرة النظام كلياً أو جزئياً، بل يتعمّق الانعزال عنها عملياً... ويجري مثل ذلك فيما يخص مناطق هيمنة مجلس سوريا الديموقراطية، التي تعتبر- عملياً وليس نظرياً- مسؤولية كردية محضة، يُحتفى بمعارضيها العرب والسريان والكرد ويُدفعون أحياناً إلى الأحضان أو المواقف العدمية، حتى تتكرّس وتتلاشى فاعليتهم الحقيقية.

غابت القيادة الفاعلة الشاملة أيضاً، وتفرّقت بين الداعمين أحياناً، وبين بقايا المعارضات التقليدية، أو استرخت في مهاجرها وملاجئها محبطة مستسلمة. وهي تعاني حالاتِ استرهان متنوعة، تركية وإماراتية وقطرية وسعودية ومصرية وروسية... من دون حصر ولا استثناء. يعاني بعضها أيضاً من مركبات نقص وحاجة إلى الوجود

بأي شكل، فيلجأ إلى استسهال الميول الشعبوية الرائجة.. وذلك كلّ بعد فشل ذريع في ممارسة دور قائد، يوم كان لذلك مردود ونتيجة. ولم يكن ذلك ممكناً في ظلّ العقلية التي سادت منذ اليوم الأول للثورة، والتي تخضع لعقل ينطلق من الروح الانتقامية، أو التطرّف الإيديولوجي المحض، أو الاسترخاء الخائف المعتاد على المرونة التي لا تتوقف عند حدود.

لقد قام المجلس الوطني السوري في الجوهر من أجل تسهيل التدخل الخارجي والتحضير له؛ وقام الائتلاف الوطني بديلاً له عند ثبوت الحاجة إلى حل سياسي وتسوية؛ ولم تستطع قيادتا المجلس والائتلاف أن تحقق شيئاً لا لشعبهما وثورته، ولا حتى للهدف الذي أضمرتاه لتأسيس الكيانين المعارضين.

وصلت الحال إلى ما وصلت إليه الآن من تراجع مريع، ولا يمكن البدء- أي بدء- بالخروج منه إلّا بالاعتراف بالهزيمة والفشل أو الانكفاء... أو ما شاءت اللغة الماكرة. عندئذٍ وحسب، يمكن الاستثمار من جديد في التغيير الهائل الذي أحدثته الثورة في أهلها.



اندماج" السوريين في بلدان تغريبتهم.

نجم الدين سمّان

قاص ومسرحي سوري

في شهر آذار 2020 يكون السوريّون قد دخلوا السنة العاشرة من تغريبتهم بعد ثورتهم ضد الاستبداد؛ وتلكَ.. أكبرُ تغريباتِهِم في العصر الحديث بعد تغريبتهم إلى الأمريكيتَين قبل مئتين وخمسين عاماً؛ بل إنها أكبرُ تغريباتِ الشعوب العربية بعد التغريبة الفلسطينية منذ عام 1948.

وفي التغريبة الأولى إلى الأمريكيتَين نجح سوريّو بلاد الشام: السوريون واللبنانيّون في تأسيس مكانةٍ علميّةٍ وثقافيةٍ لهم.. وبخاصةٍ في البرازيل؛ حيث ما يزال "المشفى السوريّ اللبنانيّ" أفضلَ مشافي أمريكا اللاتينية حتى اليوم؛ كما تشكَّل ما يُعرَف باسم: "أدب المِهجر"؛ الذي ضمّ أسماء لامعة كجبران خليل جبران ومي زيادة وميخائيل نعيمة.. الخ؛ كما أنشأ سوريّو بلاد الشام آنذاكَ جمعياتٍ ونوادٍ اجتماعية وثقافية وأصدروا العديد من الجرائد والمجلات.. بينما هم يندمجون في مجتمعاتهم الجديدة دون أن يقطعوا حبل الصُرَّة بينهم وبين بلدانهم؛ وما بين يومياتِ تغريبتهم وبين مهادهم الثقافي العربيّ.

فهل يفعل المُهجّرون السوريّون الجُدُد ما فعله أجدادُهم المهاجرون إلى بلاد الله الواسعة؟.

***- تشظيّات التغريبة**

ينقسم السوريّون في بلدان تغريبتهم الآن -كما هُم في بلدهم- إلى ثلاثٍ: ثلثٌ مع الثورة ضد الاستبداد والفساد.. وقد دفعَ بعضَ ضرائبها تهجيراً واقتلاعاً من بلده؛ وثلثٌ من

الرماديّين الذين يتخَفَّون وراء ذريعة "نَفي الذرائع أمام النظام الأسديّ" خشية أن يُحاسِبهم هذا النظام.. إذا ما زاروا سوريا مرّةً أو عادوا إليها ذاتَ يوم؛ وكأنهم على يقينٍ بأنّ نظام الاستبداد باقٍ إلى الأبد!؛ فلا يُشاركون في اعتصامٍ ضد جرائمه؛ ولا في تجمُّعٍ؛ ولا في جمعيةٍ أو منتدى؛ ويُحوّلون الحديثَ عن المقتلة السورية إلى الحديث عن ملذّات المطبخ السوري؛ كما لو ان الدمَ السوريَّ لم يُلامس أرواحهُم.. ولا هُمُ سمعوا بالمذبحة المُستمرة منذ 8 سنوات!؛ ويقتصر دورهم على "البَصبَصة" في تجمعات السوريين الفيسبوكية؛ والتعليق بعباراتٍ باتت سِمَةَ حضورهِم الرماديّ: – الله يفرّجها؛ الله يطفّيها بنوره؛ إن شاء الله نرجع.. وترجع سوريا أحلى ممّا كانت!.. الخ.

أمّا الثُلث الأخير.. فهو من مُناصِرِي النظام الأسديّ؛ وبعضُهم كان يدرس كمُوفَدٍ رسميّ إلى جامعات أوروبا وسواها؛ ثمّ استفاد من أزمةِ شعبِهِ بطلب لجوءٍ أو بمُستَنَد إقامةٍ دائمةٍ أو مُؤقته؛ وبعضُهُم رَكِب "سُفُنَ الموت" مع المُتضررين الفعليين من استبداد الأسد.. فحصل مثلَهُم على اللجوء؛ وبعضُ هؤلاء.. مُشارِكٌ مَيدَانيّ في سفكِ دَم إخوتِهِ السوريين؛ وهؤلاء.. يصمتُ بعضُهُم أحياناً حين يتمّ الحديثُ عن استبداد النظام؛ وأغلبُهُم يُنافِحُ عنه.. مُرَدِدِينَ كالببغاءِ عِباراتِ النظام الأسديَّ عن الإرهاب والمؤامرة الكونيّة والانتصار عليها!.

وفي هذا الثالوث السوريّ: مُعارِضِين ورماديّين ومُؤيدين؛ قائمةٌ طويلةٌ ومُشترَكَة من السلبيّات والايجابيّات والتناقضات؛ ومن الأوهام أيضاً؛ حملوها داخلَ حقائبهم؛ وكانوا قد عاشوها نهجاً ومُمارسةً داخلَ بلدِهِم الأمّ؛ ويُمارسونها اليومَ في بلدان تغريبتهم!.

***– مُفارَقات التغريبة وصدمتها الأولى**

ينتقل المُهَاجِر أوالمُهجّر من بلده الأمّ إلى بلدان الهجرة والتهجير وهو يحمل معه كلَّ مَوروثاته الثقافية واللغوية والعقائدية والدينية وسواها من تأثيرات الاصطفاف المذهبيّ وحتى المناطقيّ والعشائريّ؛ وأول ما يصطدم به.. التغيير في نمط العيش والسلوك

وحتى في أنماط المَلبَس والمأكل؛ كما في ثقافة المواطنة؛ وفي حقوق المواطنة؛ وفي غيرها من الحقوق ومن الواجبات؛ وبخاصةٍ إذا كان قادماً ممّا يُسمّى بالعالم الثالث.

حكى لي كثيرون عن ردّة فعلٍ لا شعوريّة تنتابهم في تغريبتهمٍ حين يمرُّ بهم رجلُ بوليسٍ أوروبيّ.. تُماثِلُ ردّةَ فِعلِه من مُخابرات نظام الاستبداد الذي قَمَعَهُ ثمّ هَجَّرَه!.

كما يشعر المُهجَّرُ أو المُهاجِر بالغُربة عن مُجتمِعِهِ الجديدِ والمُختلِف جذرياً؛ فيلجأ على الفور للبحث عَمَّن سبقه في الهجرة من السوريين أو العرب أو المسلمين؛ وهكذا تنشأ تجمّعات "غيتو" للمهاجرين في هوامش المُدن الغربية/ الغريبة عنهم أيضاً؛ ولهذه التجمعات تناقضاتها وسلبياتها.. تصِل في الغالب إلى إعادة تشكيل ما حملوه من بلدانهم في حقائب عقولهِم ومشاعرهِم؛ على ذات الأسس الدينية والمذهبيّة والمناطقيّة التي عاشوها قبل الهجرة الطوعيّة أو التهجير؛ كما أن بعضها يتجلّى عن "مافيات" في الظلّ يُشكّلها مُهاجرون: ومنها.. مافيات زنجيّة إفريقية في كلّ أوروبا؛ أو جزائريّة في فرنسا بشكلٍ خاص؛ أو تركية في المانيا.. الخ؛ وبعضها يُنشِئُ سوقاً سوداء في الظلّ؛ وبعضُها.. أنتج إرهابيين؛ وحتى مُوزّعين للمخدرات.. الخ. ولا يعني هذا التوصيف الواقعيّ.. أن قوانينَ الهجرةِ واللجوءِ مثاليّةٌ وبخاصةٍ في الاتحاد الأوروبيّ؛ وأنّ تلك الدول لا ترى اللاجئ إلا رقماً في سوق العمل؛ بل تخصُّه بالأعمال من الدرجة الثالثة والرابعة حتى لو كان يحوز شهاداتٍ علميةٍ عالية؛ ولكن حتى في أفضلها: قوانينُ اللجوءِ في البلدان الاسكندنافية تتكرَّرُ مصائرُ المهاجرين ذاتُهَا؛ فيعيشون في الهوامش الأوروبية وليس في قلبها؛ سوى عند مَن يطمَح ويجتهِد ويُكافِح ليندمج ويُثبِتَ نفسه في مجتمعه الجديد؛ وقليلٌ من هؤلاء المُندَمِجِين يحافِظُون على "شعرة معاوية" ما بين ثقافة مُجتمعاتهم الأم؛ وما بين ثقافة مُجتمعاتهم الجديدة.

لا أقصد بالثقافة هنا.. تعريفَهَا العربيّ التقليديّ الذي يحصِرُها بالأدب والفنون؛ وإنما كلَّ تجلياتِهَا عند الشعوب بما يتضمَّنُ: خلفيَّتها التاريخية والحضارية؛ وبالطبع..

فولكلورها وعاداتها وتقاليدها وأنماط سلوكها اليوميّ والدينيّ؛ وحتى أنماط ملابسها وأطعمتها وموسيقاها الشعبية.. الخ.

ومن المُفارَقة أن نلمَسَ التطرّفَ ذاتَ يمينٍ وذاتَ يسارٍ في نظرة المُهاجرين إلى بلدان لجوئهم؛ وإلى أنفسهم أيضاً؛ كما إلى أقرانِهِم من المُهاجرين؛ ومِن المُفارقة أن يصلَ بعضُ المُهاجرين إلى جَلدِ الذات؛ أو إلى جَلدِ أبناء جِلدَتِهِم ونَعتِهِم بالتخلّف؛ والتطيُّر من التعامل معهم ومن المشاركة الإيجابية في تجمعاتهم؛ أو يتطرّف بعضهم دينياً.. فيُسمّون الدول الأوربيّة التي استضافتهم: دولاً كافرة؛ مُنكفِئين داخل "غيتو إسلاميّ أكبر" مُضادٍ لأيّ اندماج حضاريّ مُنفتحٍ على العصر وعلى الآخرين.

فهل سيندمج السوريون الجُدُد مع مجتمعات تغريبتهم؛ مع احتفاظهم بهويّتهم الثقافية والدينية كمُسلمين سوريين مُعتدلين.. ينبذون العنف باسم الإسلام والقتلَ والعملياتِ الإرهابيّة الدموية التي يقوم بها مُسلمون مأزومون إلى درجة سفكِ دماء الأبرياء؛ لأنهم فقط من دياناتٍ أخرى؟!.

***- السوريون في فرنسا.. نموذجاً**

يرغبُ أغلبُ المهاجرين السوريين بألمانيا والدول الاسكندنافية بأكثرَ ممَّا يرغبون باللجوء إلى فرنسا؛ بسبب بطء إجراءات اللجوء في جمهوريةٍ من ورقٍ وروتينٍ؛ وأيضاً بسبب تناقضات "سياسة اللجوء الفرنسية" ذاتِها؛ كما أعلن وزير الدولة الفرنسي المُكلّف بالعلاقات مع البرلمان كريستوف كاستنير، وهو الناطق السابق باسم الحكومة الفرنسية، في 18 يناير/ كانون الثاني 2018:

"إن فرنسا تُواجِه فشلاً في سياسة الاندماج التي تتبعها في مجال سياستها المُتعلقة بالهجرة"؛ مُضيفا بأن: " المبادئ الإنسانيّة والوسائل البراغماتيّة تتعارضان بالفعل"!.

وكان وزير الداخلية الفرنسي برنار كازنوف قد أدان تصريحاتٍ أطلقها رؤساءُ بعضِ البلديّات في فرنسا أبدوا رغبةً في استقبال لاجئين "شرط أن يكونوا من المسيحيين"، مُعتبراً أن هذا التمييز بين المسيحيين وغيرهم مُضِرّ.

وبالنسبة للسوريين فلا إحصائيات رسمية ونهائية عن عددهم في فرنسا منذ 2011؛ والعدد التقريبيّ لا يتجاوز 75 ألفاً بقليل؛ وبهذا تكون فرنسا أقلّ بكثيرٍ من السويد وألمانيا في هذا المجال؛ ويعود هذا الى ضغط جماعة اليمين المُتطرّف "لوبين" وحتى من أحزاب الوسط ومن يمين الوسط كحزب "ساركوزي" التي تُطالب بإيقاف كلِّ أشكال اللجوء؛ أو تقنينها بشكلٍ كبير كما في حزب "ماكرون" ذاته الذي يتأرجح بين يمين الوسط وبين اليمين ذاته؛ مع نزعة نيوليبرالية واضحة؛ مع الإشارة في كل مناسبة إلى أنهم حُرَّاس العلمانية في الجمهورية الفرنسية.

لكن هذا لا يُعفِي اللاجئين أيضاً.. من استسلامهم للبطالة المُرِيحة: سكناً وتأميناً صحياً ومجانيّة تعليمٍ وتخفيضاتٍ في وسائل النقل العامة وإعفاءً من الضرائب ومساعداتٍ من جمعيّات المجتمع الفرنسي: المَدَنِيّة والكَنَسِيّة في آنٍ معاً؛ مع راتب لجوءٍ شهريّ أو تعويض بطالة.. حتى لو أنهما يكادان يكفيان الاحتياجات الأساسيّة في حدّها الأدنى؛ فيما اعتبر كثيرٌ من الفرنسيين بأن اللاجئين يعيشون من ضرائبهم التي يدفعونها للدولة.. وهي ضرائبُ عالية ومُركبَة؛ بينما أغلب المهاجرين لا يعملون.. أو لا يرغبون في العمل؛ كما تُوجد عوائقُ مُركبَة حتى لأصحاب الشهادات العليا من اللاجئين ليحصلوا على عملٍ يُناسِب مُؤهلاتهم؛ ومنها: اتقانُ الفرنسيّة بشكل جيدٍ جداً بالنسبة للأطباء والمهندسين والمعلمين؛ إضافةً لفترةٍ قد تطول.. ريثما يتمُّ تعديلُ شهاداتهم واعتمادها كوثيقةٍ في عقود العمل؛ ولدورات تأهيلٍ يتضمّن أغلبُها دراسةَ موادٍ جديدة؛ ثمّ قد لا يعمل في مجالاتِ تخصّصهم سوى الأطباء منهم؛ وأعرف لاجئاً سورياً حاصلاً على الماجستير في العلوم الإنسانية؛ ويُجِيد الفرنسيّة بشكلٍ جيّد؛ وقد حصل على الإقامة الدائمة منذ عامين؛ وتقدَّمَ بطلبٍ للعمل.. فبات يتلقى عروضَ عملٍ كسكرتير؛

أو كمُرافقٍ لذوي الحاجات الخاصة؛ ومُؤخراً.. أرسلوا له فرصةَ عملٍ مع الحيوانات الأليفة؛ تتضمَّن غسيلها بالشامبو وتنشيفها وتسريحَ شعرِها الأليف!.

هكذا لا تُتَاحُ لكثيرٍ من اللاجئين سوى الأعمال الهامشيّة أو المُؤقتة؛ برواتبَ أقلّ بكثيرٍ عمَّا يتقاضاه الفرنسيّ؛ حتى أنها بعد اقتطاع الضرائب منها؛ تكاد تزيدُ بقليلٍ عن المُساعدة الشهرية له.. كمُقيم!.

ومع ذلك.. ثمّة حالاتٌ فرديّةٌ لبعض اللاجئين استطاعت أن تعبر كلَّ هذه المَعُوقات وتحجِزَ لها مكاناً ومكانةً في المجتمع الفرنسي؛ بينما تسود مُفارقةٌ ساخرة يتداولها اللاجئون: "لتُصبحَ لاجئاً معروفاً ومُعترفاً به في فرنسا.. عليك أن تُصبح: لاعبَ كرة قدمٍ؛ أو مُغنياً للراي والراب؛ أو عارِضَةَ أزياء"!.

أمّا المُفارقة غير الساخرة.. فهي الأكثرُ دقةً؛ حين لا يتذكر الرأي العامُ في فرنسا وغيرها إيجابيةً واحدةً لمُهاجرٍ أكثرَ من يومين.. كأن يجِدَ حقيبةَ نقودٍ في الميترو فيُسلِّمها للبوليس؛ بينما يتذكرون سلبيّات اللاجئين؛ وبخاصةٍ حين يقومُ أحدُهم بعملٍ إرهابيّ.. فكيف إذا كان من أصولٍ عربية أو إسلامية.

والمُتتبع لصفحاتِ تواصُلِ اللاجئين السوريين في فرنسا.. مثلاً؛ ولأسئلتهم ولنقاشاتهم.. سيرى بشكل بانوراميّ كركوبةَ خيطانٍ مُتداخلة من المشاعر والانتماءات والأفكار المُسبَقة؛ كما مِنَ المعارك اللفظيّة والشتائم؛ حيث يقوم بعضُ المشرفين على تلك المجموعات بحذفها فيما بعد؛ وبعضهُم يتركها في غياب الضوابط والمعايير.. كوثيقةٍ عن تخبّط السوريين وضياع بوصلتهم حتى فيما يتعلّق بالشأن الوطنيّ العام لبلدهم الأم.

يحتاج سَبرُ واستقصاءُ حالِ السوريين في فرنسا وسواها.. إلى مقالةٍ قادمة؛ بل.. إلى دراسات اختصاصيّة ومُعَمّقة؛ وبخاصةٍ بعد أن تحوّلت سوريا للأسف الشديد.. من بلدٍ

للجوءِ الأقوام والشعوب على مَرِّ عصورها؛ إلى أولِ البلدان في تصدير اللاجئين في القرن الواحد والعشرين.

وكنتُ قد كتبتُ قبل عامين.. قصيدةً بعنوان: "**لستُ لاجئاً.. يا أبي**" أختِمُ هذا المقال بمقطعٍ منها:

"أصعبُ لجوءٍ عِشتُهُ في بلدي

يا أبي؛

وكُنّا المُعتَقلِين.. أيضاً؛

منذُ أولِ انقلابٍ عسكريٍّ

إلى انقلابِ الوَحشِ الكبير.

لاجئين كُنّا في بلدنا.. يا أبتي

بينَ كلِّ راشٍ ومُرتشٍ؛

من حولِنَا.. الفاسدونَ

وقُطعانٌ.. من الطبّالين؛

على يسارنا.. رفاقُ الخديعةِ

وعن يميننا..

عمائِمُ سماسرةِ الدُنيا والدِين".

لم تكن مجرد عشر سنوات

هوازن خداج

كاتبة سورية

أحاول التفكير بمقدمة ما، أكون فيها شاهدة على عشر سنوات مضت أو مضينا فيها، لا أستطيع أن أجد تلك المقدمة؛ فمن الغرابة أن أكتب "عنها"، وأنا عادة أكتب "منها" من هول مآسيها ومن ذلك الدمار الذي ثقب أرواحنا فاتحاً فجوة كبيرة لسؤال "ماذا بعد؟"، سؤال لا يسكن ولا يكفّ عن اختراق الوقت، فمع كل لحظة هناك ضحية تسكنني غصباً عني تصرخ لم كل هذا؟

وفي كل لحظة أحاول الفرار منها لالتقاط أنفاسي والبحث منطقياً في تفاصيل حدث ما سأكتب عنه، لكني أفشل بإيجاد ذلك المنطق أو الكتابة بتجرد "حوله" فأنا أسقط مع كل حدث لأكون ضحية تكتب بأنفاسها كيف يمكن أن تنجو من كل هذا القهر.

سأترك المقدمة جانباً–في الحروب لا يهتم الضحايا غالباً بالمقدمات–لأكتب حول تجربة الكتابة التي خضت فيها خلال العشر سنوات، سأحاول التركيز في الإجابة وأهرب كما هي العادة من ملايين الأسئلة المُعلّقة، لأجيب "لم تتغير الأمور كثيراً" بالنسبة لي، هذا الجواب المشحون بكم من الأحلام والخيبات التي شكلت محور حياة لغالبيتنا في السنوات الماضية، واخترقت التفاصيل القليلة التي تمكنت من كتابتها عما حدث ويحدث.

قبل عشر سنوات

مثل الكثيرين غيري، لم أبدأ الكتابة في الصحافة مع الثورة، بل قبلها بسنوات طويلة، سنوات لم أخرج منها ولم تخرج مني، سنوات وأنا أضع يدي على فمي، كي لا تخرج "الكلمة" كما هي بلغتها الصافية الصريحة. وأقلب شريط اللغة على مهل أبتعد عن مسامير الكلمات الحادة، لأجد كلمة رخوة ليّنة لا تُحتسب إهانة لهيبة الوطن، ولنفسية الأمة، أكتبها وأنا أسأل إلى متى سيستمر هذا الكابوس ساكناً رؤوسنا؟. وغالباً، أؤجل الإجابة أو أهرب منها لأكتب عن "بلد آخر" لا بأس أن انتهكت هيبته قليلاً، وأزعجت بعضاً من نفسية أمته.

ولن أخفيكم أن ضوابطي النفسية كانت تسقط أحياناً، فقلمي كان يغدر بي، كما حدث في ذلك اليوم الذي كتبت فيه مقال "تنفسوا قبل أن يصبح الهواء مكرمة" هل تذكرون " مكرمة المازوت" في العام 2008، أنهيت المقال بين السخرية والجدّ، لم أفكر أو أتردد حين وضعته على صفحات "الحوار المتمدن" هذا الموقع المحجوب في سوريا. فالكتابة عمل شاق ومغامرة في قول الحقيقة أمام عصا الجلاد، هذه الحقيقة التي أكملت سردها كمذنبة وجاحدة لنعمة الوطن، والضابط يحدثني عن الوطن وضرورة حب الوطن، وعن المكرمات وسيد الوطن.

لن أستطيع ببساطة أن أجمع كل الكلمات التي ارتمت في وجهي أو أصف لكم ذلك الوطن "الأمان، التعايش، التعليم المجاني، الطبابة المجانية...."، لكن أستطيع أن أخبركم بشعوري، كانت أنفاسي تضيق وأنا أُمسك صرخة "أريد هذا الوطن" فوطني لا يشبهه، إنه الصورة المعكوسة لكل ما تقوله، ولكني استبدلت الصرخة بكلمات رخوة زحفت من بين شفاهي لم أفهم القصة هكذا "عن المكرمات"، وصَمُتُّ حوالي ساعة أو أكثر أتابع فيها بقية حديثه "تهديد ووعيد عن سجن وقتل و..." وأنا أنتظر تنفيذ "عقوبة الوطن"، لكنها تأخرت ثلاث سنوات، ليس بالنسبة لي فقط بل لنا جميعاً.

خلال عشر سنوات

قد يُحب البعض أن يكتب عن بداية العشر سنوات، وقد يُحب البعض الآخر الكتابة عما حققته الصحافة الحرّة من فرص للصحفيين، وعن أقلام المبدعين وعن.. لكن سأتجاوز كل ذلك، فأنا لا أكتب مقالاً للتحليل أو للنقد، لأتابع " لم تتغير الأمور كثيراً بالنسبة لي" الكتابة عمل شاق في الحروب، فكل لحظة هناك حدث ما يدفعك لتكتب أو تصرخ، وكلما بدأت ترتجف الكلمات لتدخل في صلب الاستيقاظ من "حلم ما" عن الوطن، إلى "واقع ما" للوطن، وفي كليهما بقي الوطن ضيقاً خانقاً.

والأكثر من هذا أني صرت أفشل في الكتابة عن بلد آخر، كي أخفف حدة الألم وأنسحب من استعصاء القهر، أو أتجنب "فنجان القهوة" الذي يعرفه السوريون جيداً، لم أعد أستطيع ممارسة "التقية" والهرب من الكابوس. تحول كل شيء لزفرة طويلة أطلقها مع قراءة الصحف والتحليلات وسيل الكلام، فالأحداث تترصد بي في كل زاوية، ولم تعد الكتابة سوى زفرة طويلة، زفرة بلا نهاية أحاول أن أخفيها على الهامش غير المقروء من النص، وأتابع كتابة القهر، كنت أكتب "منه" لا "عنه"، من عمق الوجع الذي يعيشه الناس، أحياناً أُفلح في تقديم الصورة كحقيقة، وأحياناً أخفي هول الحقيقة بقليل من الأمل، وأستمر بالكتابة وأنا أُلصق فوق الجراح والندب بعض من الكلام الصحفي، أو ما نسميه "حكي جرايد" حول التغيير القريب وحول استحالة أن تستمر الأمور كما هي.

ولكن في ذلك اليوم الذي سألتني فيه "إحداهن" هل فعلاً تعتقدين أن هذا سيتغير وأنه سيكون هناك وطن لكل السوريين، وطن ننعتق فيه من "الرسن"، ونعيش بحرية بلا عصا الطاعة الطويلة؟ لم أستطع في حينها إلا أن أقول الحقيقة، أني لا أعتقد ذلك بحدود الواقع الحالي.

لم تكن مجرد عشر سنوات

منذ بدأت الكتابة كان يحضرني سؤال: لماذا أكتب؟ ولم أستطع يوماً الإجابة بدقة على هذا السؤال، فأنا رغم ما كتبته من مقالات وأبحاث، لم أمتهن الصحافة بعد، فمهنة الصحافة تحتاج لحرية الفكر والطرح، وهذه لا أعتقد بأنها تحققت بالكامل خلال السنين العشر لأسباب مختلفة يعرفها كل العاملين بالصحافة. ومن بين كل الأسباب هناك سبب وحيد يقنعني بضرورة الكتابة، هو أني غارقة بالحدث وبارعة نوعاً ما بـ"النميمة" كونها أصل السلطة الرابعة، والفعل الحقيقي الذي يمارسه الصحفيون، كما يصفها "كتاب العاقل"، الصحافة هي "نميمة" عن المشكلات لتغييرها، وما أكثرها وأكبرها وأنا عالقة فيها، وغارقة بالبحث عن إمكانية النجاة.

ما حدث ويحدث لم يكن مجرد عشر سنين، إنه موت وضحايا ومختفين وتجويع وقهر من جهة، ومن الجهة الثانية إنه رغبات وأحلام وحقوق وإرادات، كلها تدفعني لأكتب، وكما كنت سابقاً أكتب على "أمل" أن يتغير كل شيء، ما زلت أكتب وأنا أحمل نفس الأمل وإن كنت أدرك أن أملي كان وما يزال مطعون بآلاف السكاكين، سأستمر علّه يصير حقيقة علّه يصير حياة.



في الذكر العاشرة للثورة

لجان التنسيق المحلية: الأمل الوحيد الذي وئد

وائل السواح

كاتب سوري

جاءت الانتفاضة السورية بمثابة مفاجأة تامة لجميع السوريين: للحكومة والمعارضة وأيضاً للأفراد المبعثرين الذين بدأوا بها. في شباط/فبراير 2011، سألتني مدونة فرنسية عما إذا كان من الممكن أن تمتد آثار الثورتين التونسية والمصرية إلى سوريا. أجبت بثقة: "لا!" وأعطيت ستة أسباب لذلك، منها الحساسية الطائفية والوضع الاقتصادي في سوريا والصراع العربي الإسرائيلي. لكن السبب الأول والأهم كان الخوف. قلت إن درجة الخوف بين الشعب السوري كانت عالية لدرجة أن الناس لن يفكروا حتى مجرد التفكير في القيام بثورة. ولكم كنت مخطئا بغباء، فقد كسر الناس الخوف.

فاجأت الانتفاضةُ المعارضةَ السورية. على عكس معظم الدول، لم يكن لدى النظام والمعارضة في سوريا خلاف حقيقي في وجهات النظر السياسية. في الواقع، لقد تشارك الطرفان منذ فترة طويلة في الأيديولوجية نفسها وفي البرامج السياسية والخلفية الاجتماعية. تأتي معظم الأحزاب السياسية في سوريا من حزبين تقليديين: حزب البعث والحزب الشيوعي. من خلال الانقسام الخلوي، أنتج هذان الحزبان حوالي عشرة آخرين يتشاركون في نفس الآراء السياسية والأيديولوجية، لكنهم منقسمون بين الجبهة الوطنية التقدمية الحاكمة وبين المعارضة.

عندما اندلعت الانتفاضة، كانت المعارضة السورية تتسكع في الفناء الخلفي للمشهد السياسي. كان تحالف المعارضة الرئيسي، إعلان دمشق، يعاني من عدة مشاكل، أهمها القمع. ففي عام 2008، سُجن 12 من قادة الإعلان لمدة 30 شهراً، وعلقت الأحزاب القومية والماركسية عضويتهما وأنشطتهما في الإعلان. والأسوأ من ذلك، أنه عندما تم إطلاق سراح قادة الائتلاف في عام 2010، لم يستأنفوا مسؤولياتهم في التحالف. ولم تكن الأحزاب اليسارية القومية في وضع أفضل. عندما انسحب حزب الاتحاد الاشتراكي وحزب العمل من الائتلاف، بسبب عدم تمكنهم من الحصول على مقعد في قيادة التحالف، ألقى آخرون باللوم عليهم لتركهم المجموعة عندما كانت الحكومة تهاجمها، كما لو كانوا يفرون من سفينة تغرق. وكان الإخوان يعانون أيضاً من العديد من الصعوبات: لم يكن لديهم الكثير من المؤيدين داخل سوريا، بسبب القانون 49 سيء الذكر الذي كان يحكم على أي عضو في الجماعة بالإعدام. كما شوهت صورتهم عام 2008 عندما أعلنوا هدنة مع النظام السوري، بسبب الموقف السوري من الحرب الإسرائيلية على غزة في ذلك الوقت.

ومثل المعارضة، فوجئت الحكومة. في مقابلة مع صحيفة وول ستريت جورنال في 31 كانون الثاني/يناير 2011، قال الرئيس بشار الأسد إنّ الاحتجاجات في مصر وتونس واليمن لن تجد طريقها إلى بلاده، لأنّ مواقفه المناهضة لأمريكا والمواجهة لإسرائيل تجعله في وضع محصن، وهو على علاقة جيدة مع القواعد الشعبية في بلده.

على أنّ الأمور لم تسر على هذا النحو. في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، بدأت مجموعة من الشبان والشابات الالتقاء في المقاهي والمنازل والأماكن العامة لطرح سؤال واحد: هل يمكننا فعل الشيء نفسه في سوريا؟ وجادلوا بأنّه إذا كان بإمكان التونسيين أن يثوروا في تونس، فلا يوجد سبب يمنع السوريين من فعل الشيء نفسه، لأنّه في كثير من الجوانب كانت تونس تشبه سوريا كدولة بوليسية.

فشلت الدعوات الأولى للاعتصام أمام مجلس النواب في 5 شباط/فبراير. ثم بدأ الشباب والشابات الشجعان في تنظيم اعتصامات مقابل السفارتين المصرية والليبية للتعبير عن تضامنهم مع الثورات في البلدين. إذا استطعنا أن نصدق إحدى الناشطات، فإن ما جعلها تستمر بحزم في الانتفاضة هو صفعة تلقتها من رجل أمن عندما كانت تتظاهر في السفارة الليبية ضد نظام القذافي. لكن الثورة لم تبدأ في دمشق. لقد بدأت في مكان آخر. في 6 آذار/مارس، اعتقلت قوات الأمن السورية وعذبت مجموعة من تلاميذ المدارس لقيامهم برش كتابات على الجدران في مدينة درعا تطالب بإسقاط النظام. وعندما رفضت قوات الأمن إطلاق سراحهم نزلت المدينة بأكملها إلى الشوارع. وردّ النظام بإطلاق النار على المتظاهرين وقتل عدداً منهم. انتشرت الشرارة إلى مدن وبلدات أخرى، بينما شاهد العالم كله مفاجأة.

انطلقت المظاهرات سلمياً، وشاركت فيها جميع الفئات الاجتماعية والثقافية والسياسية. كانت الشعارات عامة تطالب بالحرية والإصلاح الوطني. لكنّ المتظاهرين شعروا أنّ معركتهم لم تكن على الأرض فقط، بل في وسائل الإعلام أيضاً. وكانت الحكومة تدرك ذلك أيضاً، فقامت بطرد جميع وسائل الإعلام الأجنبية من البلاد، وصورت وسائل الإعلام الحكومية المتظاهرين كبلطجية طائفيين يريدون إثارة الفوضى وإقامة دولة إسلامية.

انطلاقا من حاجة المتظاهرين للتواصل مع وسائل الإعلام ظهرت ظاهرة جديدة على الأرض: التنسيقات، وهي كلمة تشير إلى مجموعات من الناشطين الشباب الذين يشاركون في المظاهرات، ويوثقونها بواسطة هواتفهم الجوالة، ثم يتواصلون مع وسائل الإعلام العربية والدولية لينقلوا لها الصورة كما جرت، وليس كما يقدمها لهم النظام. كانت هذه المجموعات الصغيرة من النشطاء المنتشرين في جميع أنحاء البلاد بحاجة إلى تنسيق جهودهم، وتبادل المعلومات، وإيجاد أفضل السبل للوصول إلى وسائل الإعلام. وكان أن اتحدت هذه التنسيقيات في إطار أوسع وأطلقوا على أنفسهم لجان

التنسيق المحلية، والتي ستصبح لاعباً رئيسياً على الأرض وتساهم في تنظيم المظاهرات وتنسيق جهود النشطاء وتبادل المعلومات من خلال غرفة الأخبار التي أنشأوها على سكايب، ثم الوصول إلى وسائل الإعلام بالأخبار ومقاطع الفيديو وشهود العيان لرواية الأحداث على الأرض.

وجد نشطاء لجان التنسيق المحلية أنفسهم بدون آباء شرعيين بسبب نشاطهم السياسي. كان هذا مبرراً قوياً لهم لتطوير موقفهم السياسي الذي من شأنه أن يدعم الأنشطة الثورية ويحافظ على مطالبهم السياسية. مع البيان الأول للجنة التنسيق المحلية في نيسان/أبريل، ستدخل الحركة الثورية السورية مرحلة جديدة. يرسم البيان أجندة سياسية بسيطة تدعو إلى وقف القتل، وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، وتشكيل لجنة تحقيق مستقلة، وحل الأجهزة الأمنية سيئة السمعة، وإنشاء لجنة خاصة للمصالحة بين جميع مكونات الأمة السورية، وتعديل الدستور لضمان انتخابات حرة.

أذهل البيان الحكومة والمعارضة التقليدية: فاندفعت الأولى لإسكات المخلوق حديث الولادة من خلال حملة اعتقالات وتعذيب قاسية، بينما راحت الأخيرة العمل بجدية على تطوير برنامج سياسي يرافق التطورات الدراماتيكية. لكن لجان التنسيق المحلية ستجد نفسها في أكثر من مناسبة مضطرة لاتخاذ المزيد من الخطوات في أداء دور اللاعب السياسي بنفسها. الأول كان الحد من الدعوات هنا وهناك لتسليح الثورة أو السعي للتدخل الأجنبي. على الرغم من أن الثورة كانت سلمية في معظم الجوانب، إلا أنه كان هناك اتجاه خافت وقتها دعا لاستخدام العنف ضد قوات الأمن والشبيحة. وبسبب الخوف من أن يصبح هذا العنف طائفياً، كانت هناك حاجة ماسة إلى موقف مناهض للعنف، ووجدت لجان التنسيق المحلية نفسها مضطرة إلى تبني موقف سياسي يحذر من مثل هذا التهديد.

مثال آخر هو مسألة الحوار مع النظام. بدأ النظام في مقابلة أفراد من المعارضة ومحاولة معرفة ما إذا كانت هناك احتمالات لإجراء محادثات. انقسمت المعارضة

حول الموضوع وبدأت في تبادل الاتهامات دون الدفاع عن آرائها. وكان على لجان التنسيق مرة أخرى أن تتدخل وتطور منظورها حول هذه القضية. في 15 أيار/مايو، أصدرت لجان التنسيق المحلية بياناً أوضحت فيه موقفها من الحوار مع الحكومة. وجاء في البيان أن "وقف الحل الأمني فوراً وبدء عملية سياسية أمر لا بد منه، بشرط استيفاء أربعة شروط: إنهاء القتل والعنف، وإطلاق سراح الأسرى، والسماح بالتظاهر السلمي، والسماح لوسائل الإعلام بتغطية الانتفاضة في سوريا". وستصبح هذه الشروط الأربعة أرضية مشتركة لجميع مواقف مجموعات المعارضة المختلفة كلما تحدثت عن الحوار مع الحكومة.

في غضون ذلك، كان اللاعبون السياسيون التقليديون يتجادلون حول كل شيء تقريبًا: حوار أو لا حوار، إصلاح أو إسقاط النظام، معارضة داخلية مقابل معارضة في المنفى. في الوقت نفسه، كان المتظاهرون في الشوارع يتحركون في جميع الاتجاهات، وكانت الجماهير تفقد الآلاف من الأعضاء الناشطين الذين كانوا يتساقطون تحت رصاص قوات لنظام، بينما كان الآلاف يموتون في السجون وتحت التعذيب. كانت الجماهير تطالب بمظلة سياسية لصرف جزء من المسؤولية الثقيلة عن الشارع. كانت لجان التنسيق المحلية تعمل مع المعارضة السياسية لتوحيد جهودها حول خارطة طريق لفترة انتقالية. وكجزء من جهودهم، طورت لجان التنسيق المحلية "رؤيتها" (نُشرت في 11حزيران/يونيو). على المعارضة أن تعترف بأن رؤية لجان التنسيق المحلية لم تتم مطابقتها بعمق أو شمولية من قبل أي مجموعة معارضة أو حتى من قبل المعارضة ككل. شهدت رؤية لجان التنسيق المحلية طريقين للخروج من الأزمة: الأول تمثل بترتيب "تفاوضي سلمي للتحول نحو نظام ديمقراطي تعددي"، بينما يدفع الطريق الثاني البلاد "في نفق المجهول عبر المضي في خيار العنف ضد الاحتجاجات الشعبية السلمية، والتضحية بسورية من أجل بقاء نظام غير أخلاقي، لا يحترم نفسه ولا شعبه".

وأوضحت اللجان في رؤيتها أن هذا الخيار الأخير إنما يحمل مخاطر التدويل والنزاعات الأهلية، محملة "النظام وحده" المسؤولية الكاملة عنه. وأوضحت أن الحراك الثوري لن يتوقف "بذريعة أن النظام لن يتوقف عن القتل والتخريب. لا يجوز أن يُكافأ المجنون على جنونه، وليس مقبولاً أن تبقى سورية رهينة بيد خاطفين غير مسؤولين إلى هذا الحد". أما الخيار الأصلح والأسلم والأولى ببلد مثل سورية فهو بلا شك الخيار الأول القائم على أساس تفاوضي سلمي "يطوي صفحة نظام الحزب الواحد، والرئيس الذي تتجدد ولايته إلى الأبد، والحكم الوراثي، وحصانة الأجهزة الأمنية، واستخدام الدولة لحماية سارقي الشعب، والإعلام التحريضي الكاذب".

وضع بيان اللجان الذي يتضمن رؤيتهم لمستقبل البلاد قوى المعارضة التقليدية بحرج كبير، لأن مجموعة من الشباب من غير ذوي الخبرة السياسية والتاريخ النضالي العريق تمكنت أن تجترح ما عجزت قوى المعارضة حتى الآن عن فعله.

تلقّت لجان التنسيق المحلية عدّة ضربات، كان أهمها وأشرسها من النظام. ولكن المعارضة أيضا وجهت لها ضربة بتهميشها ما إن بدأت بتشكيل هيئاتها المنظمة، بدءا بالمجلس الوطني ومن ثمّ الائتلاف ومؤتمر القاهرة وغيره. ولم تسلم اللجان من ضربات جاءت ممن أخذ اسم التنسيقيات وبدأ يشكل هيئات ثورية أخرى، بدأت تتلقى دعما من بعض الجهات الخارجية.

عموما، كانت لجان التنسيق تتمتع برؤية سياسية واضحة (ولن أقول صائبة لأن ذلك أمر سيحسمه التاريخ إن عدل)، ومصداقية على الأرض، وسلطة أخلاقية حتى على من امتشق السلاح، واستقلالية تامة. وهذه أمور ثلاثة تفتقر إليها هيئات المعارضة الرسمية الأخرى، التي يعوزها وضوح الرؤية والسلطة الأخلاقية، وليس لها مصداقية على الأرض حتى في المناطق التي تسيطر عليها، ناهيك طبعا عن انعدام الاستقلالية.

كان يمكن للجان التنسيق المحلية أن تتطور إلى قوة سياسية حقيقية وفاعلة، وأن تكون الممثل الحقيقي للسوريين المنتفضين، ولكن شراسة النظام وفجوره، من جهة، وانحطاط المعارضة، من جهة أخرى، جعلاها تفقد هذا الدور الذي لم يعوضه أحد أبدا فيما بعد.



المثقف والتغيّير

ياسر الأطرش

شاعر وإعلامي

سؤال الثورة لا ينطفئ ولا يدركه غياب، عند المثقف تحديداً، فالتغيير مهمة ترافق الكاتب والفنان، التغيير في مطلقه، سياسياً واجتماعياً وفنياً... الآن توطدت أكثر مقولة إدوارد سعيد إن مهمة المثقف في الدرجة الأولى هي إزعاج السلطات.. هذا يضمن قدراً كبيراً من الحركية وعدم العودة إلى دائرة الخمول والاستسلام، أو حتى الحياد، وهذا يشمل أيضاً كل السلطات بما فيها تلك التي يفرزها "الحلفاء" أو قوى المعارضة، وبالتالي فإن سؤال الثورة يأخذ منحى أكثر صوابية واستمرارية إذ يشمل كل الأخطاء والمخطئين.

حسابات الربح والخسارة، تختلف من شخص إلى آخر، ناهيك عن الحالة الحزبية والحسابات العرقية والمذهبية والدينية وحسابات التجار.. هذا كله يجعل المنخرطين في هذه الجماعات في حالة شد وجذب، بين رؤيتهم الشخصية التي غالباً تميل إلى الحالة المثالية في التغيير وصولاً إلى الأفضل، وبين الرؤية الجمعية أو الجزئية التي تحرجهم وتقودهم أحياناً بدوافع عاطفية براغماتية..

متى ما توقف المبدع عن الرغبة بالتغيير والعمل من أجله، يستحسن أن يعلن توبته عن الكتابة واعتزالها، فهو هنا ليس مجرد فجوة حيادية وحسب، بل هو قوة معطلة تشد العربة إلى الخلف.. إن امتحان المثقف والمبدع لنفسه ليس فيما ينتجه وجودته وأهميته

الفنية فقط، وإنما في انحيازه الدائم والفاعل للإنسان وقضاياه، بلا تحيز ولا انتقائية ولا تناقض، وهذا لا يكون إلا بالاستقلالية الكاملة والتحرر التام من لوثات الانتماءات الضيقة، والاستعداد لدفع الأثمان المترتبة على الموقف، فالمواقف الكبرى لم ولن تكون مجانية أبداً.



أوراق الشعر

أطياف الصمت والكلام

فرج بيرقدار

شاعر سوري

1

ليس الشعر بالكلمات وحدها

يمكن له أن يكون

بالصمت، والحب، والورد

بالمطر، والبحر والعاصفة

بالنجوم والظلال والغابات.

لنا قصائدنا

وللطبيعة قصائدها.

2

ثمة في الصمت

ما لا سبيل إليه

في لغتك الأم

ولا في اللغات الخالات

ناهيك عن الغجريات اللواتي

أربكتهنَّ الترجمات.

3

للصمت أبجدية واحدة

أمَّا الكلام

فما أكثر انشقاقاته على نفسه

أيها الشاعرُ الزورقُ الآثم

دعك من ثرثرات الشواطئ الآمنة

فاللجَّةُ طوع جنوحك.

4

تحدَّثْ مرة

واصمتْ مرتين

أهي مصادفة عمياء

أن تمنحك الطبيعة

فماً واحداً وأذنين اثنتين؟

لا قلبَ لكَ إن لم تدرك ذلك

لا قلبَ لكْ.

5

إذهب

لا أوصلتك المقادير

إلى البرِّ الذي تريد

ولا أعطتك البصيرة

إلا ما لا تبصر

مَن لا يمتدح الصمت

لا بدَّ أن يهجوه الكلام.

6

في كل شجرة امرأة

وفي كل امرأة بذرة ألوهة

فلماذا لا يتحالف معكَ

غيرُ الشياطين؟!

نصحتك بالكلام قليلاً

وبالصمت ما تستطيع

يا لا سامحتك نفسُك.

7

متَّهَمٌ أبداً

بنقيض ما أنت

وأظنك لن تحزن لذلك كثيراً

ألم تدرِّبك الدولة

على ما حاولتْ تلك المرأة

أن تدرِّبك عليه؟

صمتكَ الأول كان مجدياً

وصمتك الثاني أيضاً.

يا للصمتِ من حليف!

8

مخازنُ أشعاركَ

مليئة بالكلمات الحارقة

أسئلةٌ تكوي اللسان

وإجاباتٌ تكوي القلب

غير أني نصحتك وأعيد

كنْ جميل الصمتْ

حين لا يسعِفُ الكلام.

9

كان صمتك

يغيظ الجلاد

أكثر مما كلامك

إذن قليلاً من الصمت أيضاً

موتُ الجلّاد فكرةٌ وشيكة.

10

يشرب أحياناً

فيعتريه الصمت

ويشرب أحياناً

فيتحوّل إلى راديو

لا بدّ أن هناك

نسبة كحول محددة من أجل الصمت

ونسبة مختلفة للرغبة في الكلام؟

11

ليس الكلام من فضَّة

وليس الصمتُ على النذالةِ ذهباً

بل نذالة مضاعفة.

12

أبجديتنا العربية

من ثمانيةٍ وعشرين حَرقاً

أو لعنةً محبوكة

يا إلهي كم نستطيع أن نفتك بها

كما يفتك الآخرون

كل اللغات

يمكن أن تكون إرهابية

ولكن الطامَّة

أنّ هناك إرهاباً صامتاً

أو شبه صامت

وإلا..

فماذا نسمي تلك المسدسات

التي يركِّبون على مواسيرها كواتم؟!

13

محنةٌ قصوى

أن تصمتَ

حين ينبغي أن تتكلَّم

أو تتكلَّم

حين ينبغي أن تصمت.

يشبه الأمرُ أحياناً

نسبةَ الملح في الطعام

وأحياناً

يشبه الديناميت.

14

في البدء كان الكلمة؟!

يا أبناء الدم والعَدَم

لماذا لم يكن في البدء

الصمت؟!

15

للصمت

هسيس غابات ستوكهولم وبحيراتها

وللكلام

سياط خطباء الديكتاتورية

التي يبارك أئمتُها

حماقات الطغاة الصغار

تقرُّباً للطاغية الأوّل.

16

أعرف الصمت جيداً

كما أعرف الكلام

ولكني أحياناً

بحاجة إلى شيء آخر.

17

نستطيع أن نَعُدّ ما نكتب أو نقرأ

كلمةً كلمة

وحرفاً حرفاً

مثلما نعدّ الورود أو الطعنات

أمّا الصمت..

فلا شروق له ولا غروب

أعني لا بداية ولا نهاية

ولا يقين ولا تأويلات

قد لا يكون الصمت كافياً

ولكنه مكتفٍ بذاته.

18

ثمة علاقة

ما بين الليل والصمت

مثلما بين النهار والكلام

غير أن البلاغة

من إكسير الوقت.

19

الصمت

أقدم من اللغات

الصمت

مطرُ زواج البروق والغيوم

الصمت

مبتغى الحكمة

الكلام

مبتغى الحاكم.

20

لا صمت إذ لا كلام

ولا كلام إذ لا صمت

ولكنَّ السياط

يمكن أن تكسرَ المعادلة.

21

للكلام

شراهة الضوء والضجيج

وللصمت

رخامة الظلال والأصداء

فتخيَّرْ لأحوالكَ مقدار ما تريد

من الأعراس والجنازات

في كلٍّ منهما.



أنا وأنتْ

ريمه العجاجي

شاعرة وفنانة تشكيلية

أنتَ:

هزةٌ، بحثتُ بعدها عن الزمنِ المتسربِ من كَفِّ الخيبة..

بيتُ موليه أدقَّهُ في مساماتِ الليلِ وأصابعِ الصباحْ..

قبضةُ قمحٍ أنثرها على ترابِ الروحْ، فتنبتُ

وتكبر في عيوني

سنابلَ شوقٍ

تحصدُ من قلبي نبضاً يُعينكَ على الحلم

أنتِ:

راعيةُ التلالِ..

وطفلةُ الزمنِ الأخير

ظبيةٌ تتلوى في صدري

على دروبِ الديارْ..

ظمأٌ الغضارِ المُشَقَق لغيمة بيضاء حُبلى

وبرقُ البشاراتِ القادمة.

أنتَ:

رجلُ الظلِّ..

الذي يسيرُ على هَدْيِ الضوءِ المسكوبِ من وجهي

وتخشى أن تطأَ بقدمكَ سهواً على ظلّيَ المفرود.

أنتِ:

امرأةُ النورِ...

التي تستيقظُّ من رحمِ الشمسِ

وتتلهفُّ

كي تسقي ظلِّي..

الممدود على الأرضِ

من نورها العتيقْ..؟؟

أنتَ:

مولويٌ يدورُ حولي بشغفهِ

يصنعُ دوامةً تأخذني نحو السماءِ

يخطفني بعاصفتهِ

إلى حافَّةِ المنتهى..

أنتِ:

عروسُ الغيوم

تسحبينَ خلفكِ جيشَ المطرْ

تنهمرينَ على عباءةِ الليلِ

تبللينَ

حزنيَ المُجَعَدِ كوجهِ محاربٍ عجوز

أنتَ:

كنزيَ المرصودْ

تمائم فتحكَ

ومفاتيحُ مغاليقُكَ في أحرفِ اسمي

وياؤك ضلعٌ سائبٌ يحتويني

أنتِ:

مثنى... وثلاثٍ.... ورُباعْ... و... و..

أغارُ من نسائم الصبحِ

حين تلامسُ مساماتُكِ

فأنظمُ قصيدةً في هجاءِ النسيم.

أنا وأنتْ:

ثنائياتُ اللهفةِ

فرسٌ وصهيلها..

جدولانِ التقيا في منعرجٍ صخري

تدفقنا لنروي وردة في شقِّ صخرة

ونخشى على عذوبتنا

من سيولِ الملحِ

أنا وأنتَ قافلتا عطرٍ في قِفَارِ المجازْ

يعترضُنا قُطّاعُ الطُّرُقِ بين مسافاتِ السطورْ.

دِيْنُ الموت

غمكين مراد

شاعر كردي سوري

كمُرابٍّ:

أستدِيْنُ من الموتِ، الحياةَ

كأُنشوطاتِ عُمرٍ تلِّفُهُ النجاةُ بِمشنقةٍ من رُوحي

أعيشُ مُتأرجِحاً على:

عَتباتِ الحياةِ

هوامِش الحياةِ

حوافِّ الحياةِ

هاوياتِ الحياة

كُلُّ ما يُحيطُ بي:

لا يحتويني

كُلُّ ما يرسمُني:

لا يُعرِّفُني

كُلُّ ما يتذكرُني:

يُدَوِّنُنِي:

بحبرٍ دمٍ

وريشةٍ جُرحٍ

وعُمرٍ وَجعٍ

لم يَخْذُلوا أبداً

مني وفيَّ آهاتي

كُلُّ ما يُحيِّيني في الحياةِ الدِيْنِ:

نَّفَسي

شهيقاً وزفيراً

كرقصةِ منشارٍ

يقطعُ أوصال جسدي

ورُوحي مشلولةً تتكِئُ على الكُرسيِّ جسدي

كحَمَّالٍ:

أصعَدُ سلالمِ الحياةِ

أحمِلُني كيسَ قمحٍ

وأتَسَرَّبُ من ثقبِ رُوحي مني

كُلُّ ما يَلمُّني:

يُبَعثِرُني أكثر

ولا ألتَقِطُني

كُلُّ ما يتخيلُّني:

يَشْجُبُ فيَّ كُلّي

كما أبدو كأنَّني

كُلُّ ما أكونُهُ:

ظِلالُ أشباحٍ

من الحياةِ ليَّ فيَّ

شريداً عني

بعيداً عني

سائراً عني

أترقبُني

عَلَّني أُعيدُني

مُذْ

أثْقَلَّني الموتُ بِدِيْنِ الحياة

أتوهُ عني في الحياة

أتوهُ بي عن الحياة

وأغْرِّقُني قطرةَ ماءٍ في صحراء الحياة

كشحاذٍ:

أقِفُ على بابِ ذاتي

ولا أتصدَّقُ بي عليَّ فيَّ

كُلُّ ما يمتَلِكُني:

هي رُوحي

ذائِبةً

مشلولةً

غارِقةً

ضائعةً

ميتةً

بيَّ وفيَّ وبكُلِّ ما ليَّ

مَكسوَّاً كعُرِّيٍّ:

أرتعِشُ من شتاءِ رُوحي عليَّ

كُلُّ ما يُقيسُني:

يُلغِيني:

بلا حدود

بلا أبعاد

بلا ثُقلٍ

بلا كُتلةٍ

وإنّما كريشةٍ حائرةٍ

قَذَفَتها ريحُ الحياةِ كأنَّني ولستُني؟

جلَّ جلالُ الموت

لم يَزِّدْ من الديْنِ الحياةِ

كربحٍ:

خلقَ من هيكلِ العَدَمِ شأني

باذِخاً بيَّ كمُهرجٍ

ساهِراً عليّ قهقهةً

أسمَّرَّت ليالي مجَونِهِ

كُلُّ ما كانَ:

يُحيطُني

يَحملُّني

يرسمُني

يَقيسُني

يتخيلُني

يُلغيني

كانوا ذواتاً على مسرحِ الحياةِ

وخشبةً قُدَّت من كُلِّ ما هو فيَّ مني أنا.

زمن العجب

لبنى شعبان

شاعرة سورية

عجيبٌ يا زمن

أنحن ندور في فلك احتمالاتك

أم أنت بنا تدور؟

ضحكات الأطفال تستجير

من أقبية العمر والذاكرة

تستجير

....

وامعتصماه صارخةً تستجير

والعمر بالحمّى والرمضاء

يُجير

أن كنتم عنّي ذاهلون

ولعقولكم تعقلون

وقلوبكم تكتمون

بالأسافين قيودكم تُثبتون

وبتقوى الخير

تغتسلون

وعباءة الهمّ والحزن

ترتدون

ومواطن الفرح والأمل

تُقاضون

وعلى ولادتكم

تحتّجون

لا...

ليس هناك بينكم

بأحدٍ ممنون

ولا لصدفِ الحياة

أنتم ناظرون

....

من كان منّا

يدور في فلك من؟

أم كانت هي الرحى

تعاقب السوسن على الرحيق؟

النحلة النشيطة

عسل الأرواح تجمعْ

....

وطنٌ وعملٌ وسقفٌ

تحته نرزحْ

حنطةٌ وقمحٌ وشوفان

أم أنه جارنا السكران

بين صبايا الحقل يرتعْ

يلقّن النّاي بوحِ روحه

وفوق الغيومِ هو يسرحْ

وجوهٌ أرواحها اجتمعت

تحت عباءة معلّم يبرع

مع علمه توزّعتْ

على بلدان الدنيا أجمعْ

ليأتي يومٌ على المنصّة

أصواتُ نجاحها تصدح

وحدَهُ العلم يقف شامخاً

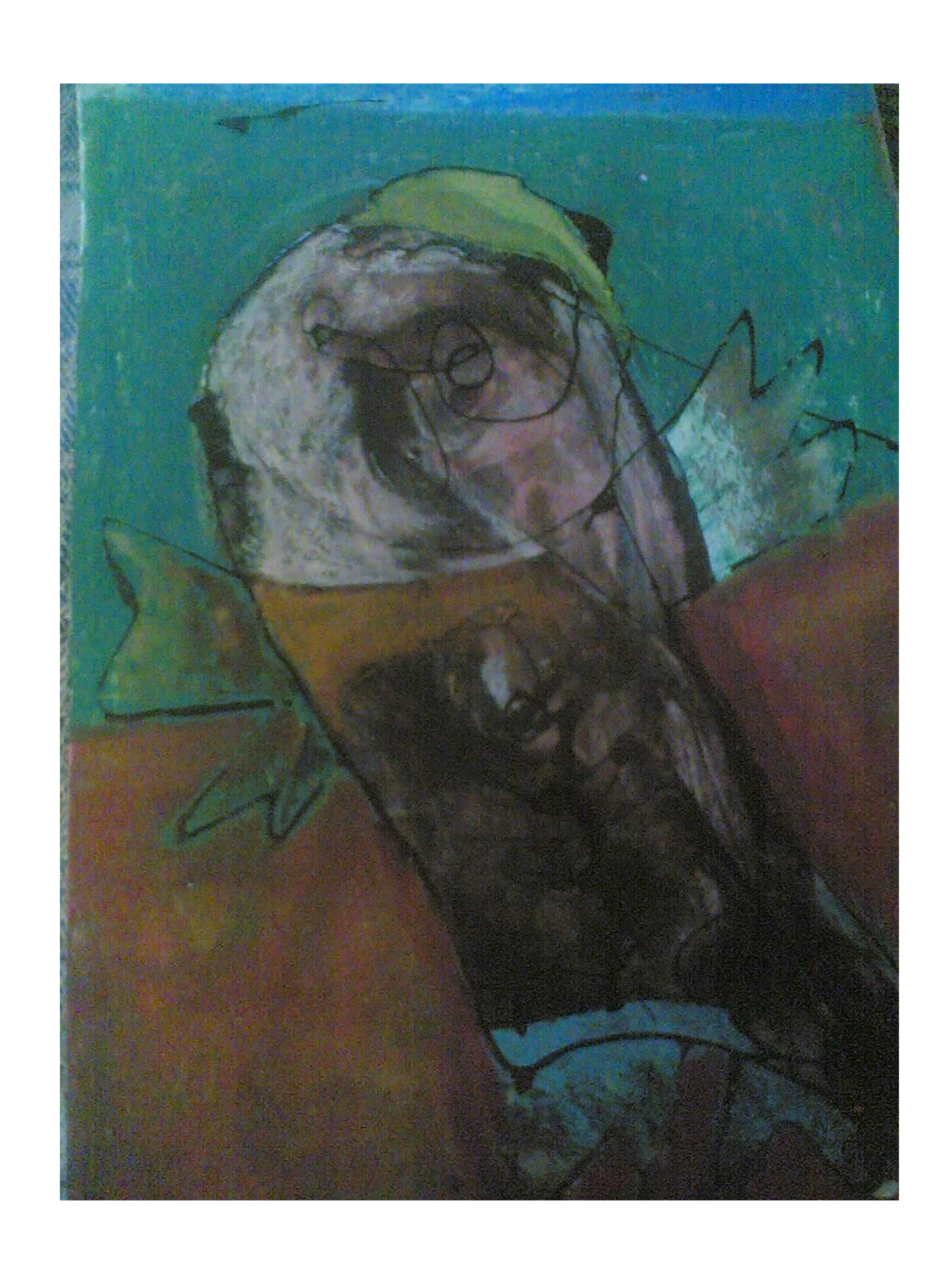
تحت بريق الأضواء يلمعْ

القمر والمرشد على اختلافهم

دروب المجد يجمعْ

والكلُّ تحت رايته

طريق العلى يصنعْ



قناديـــل

فوزية المرعي

قاصة وشاعرة سورية

آه ... أيتها السماء..

شرعي كل نوافذ الاستجابة للدعاء..

لا تتركي غيمةً أو سحابةً أو طيراً أو غباراً أو أي شيء

يحولُ بينكِ وبين شفاهِ الأرض الملتهبة بالدعاء ...

يا سماء.. آه ياسماء.. !

. تلكَ المرأةُ الكانت لا تشبهُ مَنْ حولها..

وقفتْ على سطح دارها

مذهولةً تتأملُ أهل المدينة

الذين وقفوا بخشوع يؤَدونَ صلاة الاستسقاء..

. المدى يسدلُ تراتيلَ الصمتِ ويصغي أيضا بخشوعٍ

للعيونِ التي تذرفُ آلامها

وللشفاه التي تشققتْ من شدة تضرُعها ..!

حتى العصافير والبلابل

تحنطت في أعشاشها وغرست مناقيرها

في صدر الصمت ...

للطيور ابتهالات سرية لا يدرك تفسيرها إلا من كَوّنها ....

. حَرّكت المرأةُ رأسها كرأس البوم الذي تفردَ عن كل الطيور

بحركة دائرية ..

همستْ لروحها:

يا إلهي ما هذا هل هو يوم الحشر الموعود؟!

تسللت بهدوء كي لا تبدد صمت اللحظة بخطواتها

وخرجت من منزلها ..

لاحظت في طريقها حشوداً من النساء يقفنَ خلفَ الرجال

وبعض الأطفال

يرضعون من أثداء أمهاتهم وكأنهم تحنطوا على صدورهن..!

. امتطتْ صهوةَ وعيها

وقادتها الريح على براق الدهشة الى الصحراء..

حطّتْ أجنحةُ لُهاثها عند حافة بئرٍ مهجورٍ ،،،

وقد اعتادت اللجوء اليها

كلما ضاقت بها الوسيعة

لتذرف حروف دموعها بجرأة في فوّهة البئر

وتُصغي لصدى الحروف

المنهمرة في قاع البئر

... . أمسكتْ بحافة البئر بيدي روحها

بينما رأسها تدلى في فوّهتها مناجيةً:

أيتها البئر ..

جئتك أطلب منك قميص يوسف الحقيقي

الذي خلعه في غمرة الفرح

حين أنقذته القدرة الإلهية

ورماه بجوفك ..

وتخلّص من طغيان إخوته

... . ارتعشت المرأة إذ أبّصرت

حمامة تخرج من البئر

والقميص يتأرجح بمنقارها ..

. خطفت المرأة القميص ..

اشتعلت روحها بفرح لم تعهده مذ نشأتها

وذهبت الى بيتها مهرولةً

يقودُ الفرحُ قدميها

... . بدأت تقُدُّ من القميص نُدَفاً صغيرةً

وتنسجُ عليها تمائمَ

تدسها لامرأة عاقر فتحمل ..

ولرجل فقير فيتحول الى غني ..

ولكل من له حاجة يرنو الى قضائها ..

وذاع صيتها في البلاد..

حتى أصبحت أشهر من زرقاء اليمامة

وتهافتت عليها الهدايا والأموال حتى غدت ثرية ...

خرجت تجوب الأسواق لتتبضع ،،

استوقفها رجل غريب

تبدو عليه علامات الهيبة ..

ألقى عليها التحية وحاورها

: . سمعتُ بشهرتك

وجئتك من اليمن أطلب ودك

وأعرف من أنت ؟

. أما أن تطلب ودّي فهذا مستحيل

لأني فقدت الثقة بكل رجال الامة العربية ...

. وأما من أنا ...؟

فأنا زرقاء الفرات ..

وخذ هذه التميمة التي بقيت لدي

وسأدعو لك أن ينقرض الحوثيون عن ديارك ويسود السلام!

. بقي لدي سؤال يا زرقاء الفرات ...

. ماهو ...؟

. لقد منحتني آخر تميمة

وكلي فخر وعاجز عن الشكر

ولكن أليست بلادك المدمرة أجدر بها مني ..؟

. بلادي تحتاج إلى قميص (ترامب) بالكامل

وليس لندفٍ منه

وهو القميص الذي مزقه في البيت الأبيض

حين تأكد من سقوطه في الانتحابات ..؟!

قنديل*:

على شرفات الغروب قرأتُ سِفْرَاً من أسفار الماء *..؟!

ولبثتُ دهراً على سرير عشقك يازمان!...

أهزكَ سهواً ..

وتهزني عمداً ..

ذاتَ وجدٍ.. قفزتُ عنكَ.. وعنّي..

قادتني السُرى حافيةَ الروح..

فامتثلتُ عندَ ناصية الرمل..

ناسكةً تتوضأ من عطش القُبلة..

جمرٌ يستغيثُ بجمرٍ..

نهر الفحيح يدفق من حنايا الضلوع...

يدايّ تضفران جدائلَ من بقايا عذوق الضوء..

ألقيتُ بها على كتف الشاطئ ..

أناملُ الغيم تهمي عليها قبضاتٍ من تبر الغروب ..

انفلتَ عقالُ الصمتِ ..

فترنّمَ وترٌ انبجس عن قيثارةِ الذاكرة:

" الشمس فوق لجين الماء عقيان"!...

وانفرطت عن مآق العين لألئٌ ..

سبّحتْ الطيورُ من وكناتها لها وَلَهاً ..

سبحانَ من أودعَ بضعاً من خباياهُ بروحِ الماء ...!

غاصتْ قدمايَ..

واحدةٌ في الرمل ..

وأخرى في الماء..

العقل نايٌ يئنُّ في أرجوحة تميدُ بين الغرق والانهيار...!

قلت: آنَ للمغامرة أن تلقي بأرسان خيولها الجامحة..

فتركتُ يداي تخفقان على أغصان الماء..

دَنَتْ شفاهُ العطش لتُقبّلَ أكمام الرواء..

فتشظّت الرغبةُ جافلةً فوق مرايا الموج ...!

جثوتُ على قدميّ الذهول ..

أقرأ عن كثبٍ في إرث الوصايا ..

وأرنو بإمعانٍ لصفحات النهر..

فانبلج عن جدار الصمت صوتٌ : . ويحَكِ..؟

لا الإنس ينبغي له أن يبني قصوراً ..

ولا الجنّ يتهيكل في مملكة الماء...!

وَثَبَتْ موجةٌ من ثنايا العقل..

اعتليتُ صهوتها وأبحرتُ أرمقُ احتضار الشمس ..

فتشتُ عن خيطٍ وإبرةٍ لأرفو جراح الغروب..

ولكن...

هيهات أن توصلني إليها سلالم الضياء.....؟!

همسَ الصمتُ للصّمتِ نائحاً: يا شجرَ السؤال ..

كُنْ غابة في المفازات ..

كي لا ينكسر الظلّ ُ عن الظلّ

ويتيهُ الوهجُ بين النور وبين النار..!

من وشيعة الحيرة انبثقَ صهيلُ فارسٍ

.. فساءلتُ نفسي الهائمة:

أتمخّضَ الغيمُ عن أملٍ منشود..! ؟

خَفْقُ جناحيه أجفلَ حراشفَ الماء

.. وبعد هنيهةٍ ..

انبرى الموجُ أساورَ تدورُ حولَ خاصرةِ الدهشة..

الشاطئُ نهضَ وارتقى

ليكون بساطاً منسوجاً باخضرار اللحظة ..

النوارس تغردُ وتلتحم ببعضها

مشكلةً إسماً على صفحات الغروب..

الشيحُ والقيصومُ والطرفاءُ والنيتولُ والصفصافُ وشجرُ الروح..

اشرأبتْ عيونُها لتقرأ أبجديةَ النوارس ..

تنفس الحصى مُسبّحاً بآلاء الموج.!

الفارسُ يهبطُ على براق مُجنّح ..

جنحٌ بلون الأرض ..وآخر بلون السماء ..

ابتدرَ ذهولي بمفرداتٍ: "سبحان من أسرى بكَ من سماءٍ إلى سماء .!

اتقدت الجرأةُ إليه بالسؤال:

هل يلدُ التاريخُ أبطالهُ مرتين أيها الصقرُ الأندلسي ..؟

فافترّ ثغرهُ بالجواب مبتسماً.. :

أنا الصقرُ القرشي وتلك صفة أضافتها إرادةُ الذاتِ للذات ....

فانّسلَّ عن جوفي أنينٌ:

تَبّتْ عُيونكِ باصرتي إن لم أفُرّق بينَ ذا وذاك..!

ولكن لي مَأرَبٌ ...

أن أُبسملَ..ب (أندلس) فاتحة الوجع التاريخي..!

فأخبرني أيها الفاتح ..

كيف عَبَرتَ الفرات إلى الفرات؟!

أهو الخوفُ يلدُ الجرأةَ ..

والجرأة تلدُ المجازفة ..

أم القدرُ أوحى لك لتعتلي صبوات المجد؟

قال: لملمي حروف الماء واقرئيها على عطشٍ ..

وتأملي كيفَ يفورُ النسغُ بجذعِ الصخرِ ..

بعذبِ الدمعِ..

وكيف تهمي عيونُ الغيم بشذر الماس على الأوراق...

قلتُ : دعاني الفراتُ كعاشقةٍ له ..

وأنا مدركة أن للماء ذاكرة تَلِدُ العشاقَ..

ولم يخالجني يوماً أنّ لها ذاكرة تلدُ الأبطال..!؟

. فهل لي أن أكونكَ ..وتكونني ...

لنطفئ أسطورة عطش الماء للماء..؟

ونبتكر عشقاً يولدُ من رحم الموت

ويتماهى بنسغ الحياة..؟

. قال: كنتها يوماً....وكانتني .....!

شهقتُ بصرخةٍ تشبه صرخة الوليد

آنَ انفصالهِ عن مشيمته..

ارتسمتْ الصرخةُ حولي دائرةً باتساع الكون ..

وأنا بوسطها.. كنقطةٍ استكانتْ بغير حرف ..

للحزن قدسيةٌ ..

تتوضأ الروحِ من نهرها في كلّ شهقة ..

فانبرت مآق العشق تذرف ملحاً أجفل صدر الماء...

فعزف نبضي على أوتار قلبي بلحنٍ :

مقدسةٌ كلُّ دموع الحزن .. ولكن............؟

انسلّ السيفُ من غمده. ..

عربوناً للدهشة

فتأبطته وشاحاً لوجدي

.. وسَرَتْ في عروقي الأماني..

وباحت بالتبتل أوتارُ نبضي ...

أيها المنبجسُ عن مهجة الإله أخبرني:

أآثمةٌ أنا إذ كابدتُ بالخطى من سرير العشق ..

إلى سرير الماء؟

. قال: لله درّكِ.....

فللعشق أبجدية لا يتقن اللثغ بها

إلاّ من أتقنَ فنَ العشقِ والتبتلِ لإلــهِ المـــاء...!

لقطات من زوايا مختلفة

عبد الله ونوس

شاعر سوري

. 1 .

"صورة جانبية لحبيب قصّاب"

البلادُ نصٌّ طويلٌ / ورديءٌ أيضاً

ولطالما كُنتَ مُستعدّاً أن تَموت

من أجلِ فاصلةٍ فيه...!

لا جدوى إذن من بقائك يا هذا ...

فالجميعُ يقرأُ ذاك النص الطويل / والرديء أيضاً ...

وليسَ من أحدٍ على استعداد

أن يوقظ (الفيروز آبادي) –الفارسي– من سُباتِهِ

ويقول له ...

. إن (لسانكَ العربي) قد قُطِع ..!!!

. 2 .

"صورة أمامية لعدنان عادلة"

لا أدري بالضبط متى حزمَ الموتُ حقائبك الأنيقة ...

ما أتذكّره فقط ...

أنَّ لغيابك طعمُ الحصرم الحالمِ بأن يصيرَ عنباً ...

عدنان ... الذي قايض كُل ما يملك بميتةٍ يريدها

وبلاد يريدها

ولوحة تمنّاها ...

ويقيني. .

أنّهُ وفي قبرهِ الأخضر دائماً

مازال يحلمُ هذا الوغد بألوانها ...

. 3 .

"صورة خلفية لميرزا ميرزا" ...

كم حاولتُ وفشلت في أن ألتقطُ لكَ صورةً أمامية ...

كنتَ تسيرُ إلى حتفكَ كمن يواعدُ حبيبتهُ الأولى ...

لطالما صنعتَ لنا بحوراً لنغرقَ فيها ...

وأحلاماً ظنناها حقائق

وبلاداً دُستَ بقدمكَ المائلة على صور طغاتها ...

ميرزا ...

أهبُ عمري ليومٍ لم أركَ فيه ضاحكاً

وعمراً آخر ليومٍ تكونُ فيه كارهاً ...

وعمراً أستعيرهُ منك ...

كي أقول لك:

. أيّها الميّتُ الذي ما زلتُ أنتظرُ قيامته..!!



لقميص تشلحينه على الأريكة!

وليد حسني

شاعر كردي سوري

اشربي الماء الذي في الكأس

سهران طوال الليل

بجانب سريرك

إنه مسكين

قليل الحيلة

لا ترديه خائباً...!

....

للماء الدائخ على وجهك

لأذن فنجان قهوتك

وهو يتنعم بأصابعك

لحبة زيتونة تتأوه لذة بين اسنانك

لفرشاة اسنانك

للدانتيل والساتان في قميص نومك الأسود وأنت تشلحينه على سريرك الغامر

لهاتفك الخلوي وأنت تستمعين لفيروز

صباح الخير وأنت تشرقين على الشمس بكل هذا البهاء ...!!

....

حاول أن يحرق الملك،

وينام في روما في طمأنينة

أثناء قراءتي للخبر

وأنا أمتد نحو الجريدة كرأس حصان

شظايا الزجاج على الرصيف

ورجل يبكي

سرج حصانه ...

....

في إيطاليا

عشْتُ كرجل خمسيني

يحب الموسيقى

وصخب الفتيات السكيرات

على ساحل (أمالفي)

هَزْهَزْتُ القارب من القنال الكبير

مروراً بالكهف الأزرق

كان قد قلّ الماء

حتى أَضَاءتِ الشَّمْسُ

وجهي الحنطي

في فرنسا

(نابليون) كان نائماً

تعرّفْتُ على (ألبير كامو)

قبل أن تصدمه تلك السيارة اللعينة

أَكَلْنَا الجبن الفرنسي المطبوخ

أخذنا صوراً تذكارية

في (اللوفر) وحصن (كاركسون)

في سوريا

كنت مشغولاً

أمشي في شوارع مدنها وقراها

وأستنشق الهواء

من نافذة تاكسي أجرة..!

....

المرأة التي برفقتي

في الباص

كانت بردانة

كنت أنفخ في أغصان يديها.

المرأة التي برفقتي

في الباص

وضعت قلبها على كتفي

ونامت.

المرأة التي برفقتي

تأخرت عن موعد الباص ...!

....

لو

نهدم حيطان السجون

لن يتغير شيء

تبقى قصعة أكل المساجين

البطانيات المتعفنة وأحلام المعتقلين

رائحة البوط ونوبة غسيل التواليت

الكبل الرباعي والخيزران

ومسبات الجلادين

فقط ...

ستزداد كمية الهواء في الهواء....

....

نبدأ بأربع ولا ننتهي

كم عمرك ...؟

أربع جدران تبني

بيتاً، سجناً، مدرسة، مشفى

كم عمرك ...؟

خمس قطع قماش

تخيط بها

بدلة عسكرية، صدْريَّة مدرسية، خيمة لاجئ، صدْريَّة طبيب

كم عمرك ...؟

ست قطع معدنية

يصنع منها

برغي لطاولة مدرسية

مشط رصاصات

سماعة طبية

باباً لسجن

كم عمرك ...؟

لقد مضى،

تقاسمه الجميع

ومضوا ....

....

أريد ....

أن أكون نبات البخور الهندي

عندما أَيْبَسُ،

تحرقن عيدان جسدي الغجريات

إِلَى أَنْ تقتحم رائحتي

ثياب النساء

كالطغاة ...

....

أنا لاجئ

أتشبه بأبناء الغجر

أمشي كالنَّهْر

أبْحَثُ عن أغاني أمي

وأتْلُو على الخيام صور إخوتي

....

حين كُنْتُ أَسْنُد ظَهْرَكَ،

كُنْتُ انحَني

لَمْ أَكُن أَعْمَى،

كان قَلْبِي يَرَى

....

هذه المرأة

الساطعة كوجه بحيرة

تحب المطر ...



أوراق القص

صرخةٌ مدوية، صمت ثقيل

هيڤي قجو Hêvî Qiço

قاصة وكاتبة كردية سورية

1. هذه أنا...!

كان عليها أن تحسم الأمر، إما أن ترضخ لرغبات جلاديها وتمسي عيونهم وآذانهم خارجاً وتنال حريتها، أو أن تستباح من جميعهم، وتكون وليمةً دسمة، ولاحقاً تصبح الرقم الذي يكمل الثمانية آلاف آهة المعذبين.

أمرٌ جعلها تقع بين نارين أحلاهما مر، في تلك الزنزانة المنفردة والتي تهيأ لها أنه قبر سيلتهم جسدها الغض ولن تخرج منه، كان القرار صعباً وجريئاً، حين خلعت كل ما ترتديه ونادت بأعلى صوتها:

هذه أنا يا زناة الأرض، تفضلوا، لكم أن تنالوا من جسدي، كنت حرةً وسأموت حرة.

وتكالب عليها الرهط الدنيء وما نالوا سوى مرارة قسوتهم.

2. حين كنت صغيرة!

أذكر حين كنت صغيرةً جداً، وقتها كنت حبة فحسب، حملني قرويٌ بسيط، مع مجموعة كبيرة من شبيهاتي، إلى أرض قاحلةٍ مقفرة، خبأني فيها.

كان يهتم بي كثيراً، يسقيني، يطعمني ويظل يطل عليّ باستمرار.

كبرت شيئاً فشيئاً، فقررت أن أكافئه برغيف حبٍ.

لم أكن أعلم أنّ أحدهم، يتربص بهذا القروي الطيب، رأيته يسرق من تنوره النار، وأضرمها فيّ.

3. رصاصات...

كان يوّزِع فرحاً وحبّاً أنّى ذهب، يطرق أبواباً قتلتها الرصاصات اللعينة، يضعُ أملاً منسوجاً بالإرادة والشموخ على عتباتها، ويحرس أحلامها الصغيرة.

مؤخراً أمسى آخر وكأن أحدهم قتل الحبَّ فيه...!

وألبسه شراً وسواداً قاتماً، حتى بات يفتش عن آنيةٍ كي يكوّم فيها شروره، وعن سجادةٍ كي يصلي عليها لإله يصفّق له.

4. شمس هائجة

في الفسحة الأمامية لبيت الرب يتكئ على الدرج المؤدي إلى الناقوس، ينتظر لعله يحظى برؤيته، فبعض الأمور باتت شائكة، ولم تعد تحتمل. ولا بد من إيجاد مخرجٍ بعد مشاورة الرب بها، الشمس هائجةٌ هذا النهار وربما الرب، فحتى الآن مازالت كل الملائكة متواجدة في جناحه العلوي.

أخذ يتمتم: لا أظنك ستفعل شيئاً! النائمون لا يعول عليهم.

5ـ عواء....!!!

كان الوطن بيتنا الدافئ – بغضِّ النظر عن أيّ شيء آخر. قالتها بكلّ براءةٍ وهي تسردُ لي وجعَهَا، حين جمعنا بيتٌ صغيرٌ في قريةٍ حدودية.

أما الآن فلا يُعرف لنا مصيرٌ: والدي مُزِّقَ بأنياب تماسيح "الله أكبر" وأخي قُبِضَ عليه وأُخذ إلى الجيش عنوةً... وهكذا والدتي وأنا بقينا على قارعة الجوع تفتك بنا أيام سوداء... هربنا إلى ما بعد الحدود أملاً بالنَّجاة، لكن منذ وصولنا أُصيبت أمي بسرطان الثدي، تصوري!! كيف لنا أن نتدبّر أمر الدواء والأطباء؟

سأنزل إلى الشارع لأعمل، كان لعاب الكثيرين يسيل لرؤيتي، كنت أتمنى أن أحصل على مخبأ لأخفي جسدي الغضّ والمثير عن أعينهم الجائعة، لكنني ـ مثل الكثيرات من بنات بلدي ـ سأنزلقُ من حيث لا أدري إلى ذلك الفخ، فقد رسمت لي تلك "السيدة القبيحة" عالماً لازوردياً: نقوداً كثيرةً، ملابسَ فاخرة، سلاسل ذهب، هدايا... أحلم بأنني سأنقذ أمي من سكاكين الألم التي تمزّقَ صدرَهَا... لكنني الآن أعوي وحيدةً ككلبة في الجهات كافة...!

6ـ رزان!!

تلوذ الأم بنفسها وتتنهّد:

حين انزلقت إلى الحياة، لم تصرخ ككل الأطفال، بل بقيت هادئةً بوجها السمح، أسميتُها رزان، كانت كحمامة تجذب العشاق لهديلها العذب، وتتألق كنرجسة في نور الصباح، لم تكن تدري أنّ نهايتها ستكون في مكان مجهول برهط قميء من حراس الدين. الآن يتناهى إلى سمعي أصوات أمهات ينادين صغيراتهن باسم "رزان"؛ اسم حبيبتي الذي يتموج كالحرير أمام عينيّ. أسمع ضحكات هاته الصغيرات – كما لو أنها بلسم – تداوي جرحي؛ فيستكين.

اسم صغيرتي يضيءُ عتمةَ الليالي المحدقة بروحي!

7. دمعتان

الطفلتان تتمازحان بشيء من الخجل، صدى ضحكاتهما موسيقى عذبة تُدفئ تلك الرتابة الباردة في الغرفة، في الحقيقة لا تحتوي الغرفة إلا على سجادة بالية وبضع مخداتٍ ملونة، يبدو أنّ أحدهم أو إحداهنّ تبرّعَ/ت بها.

بحزن كفكفت الأم دموعها وأردفت: اجتثَّ حادثُ سيارةٍ أبيهما منذ شهور، دون أن يترك لنا مصدر رزق في هذه المحنة، والآن نادراً ما يخبط على بابي أحدهم؛ ليفرّج بعض همّي، لكن لا يكاد يسدُّ رمق يوم واحد وأظلّ أياماً جاهدةً أبُعد عنهما العوز. كأن سكاكين مثلومةٌ كانت تمزّق أحشائي وأنا أستمع إليها.

اضطررتُ بعد إصرارهَا للبقاء لشرب الشَّاي، تفاجأتُ بأصابعها كعيدان حطب سوداء وهي تُعِدُّهُ على الـ"بابور". حاولت بصعوبة أن أواري دموعي، شربت الشَّاي على عجل وودعتها، ما أنْ خرجتُ حتى تحولت الطفلتان إلى فراشتين تحوِّمان على كتفي في ضوء الشمس ثم حطتا دمعتين على يديَّ...!

8. كمشةٌ من الرُّوح

الرجل العجوز اتكأ على عكازته وقدماه تغوصان في أوحال المخيم، استرق النظر بعيداً نحو الأفق باتجاه عفرين، إذ بدت حقول أشجار الزيتون بتيجانها تلمع فيما تبقّى من ضوء الشَّمس، أصاخ السمع إليها؛ كما لو كان يسمع آهات تلك الأشجار ونداءاتها...؟

في هذه الرمقةِ من النَّظر تذكر شريط عمره مع حقل الزيتون، حيث كلُّ شجرة فيه تحمل كمشةً من روحه، تذكّر كرم تلك الأشجار وخيراتها وظلالها. لبرهةٍ أغمض عينيه

على دموع مقهورة والتفت خلفَهُ حيث الخيام المتلاصقة تنتصب في العراء، شاهدة على صفقات الذل والخنوع، سحب دخان سيجارته بنفسٍ عميقٍ، وهجس لنفسه:

"إخوتنا المرتزقة" في (ما يُسمّى) الوطن لم يكونوا أكثر من أبي رغال...!!

9- سماء

لم تكترث لصيحات "الله أكبر" وهم يتراقصون كالقرود حولها، بقيت شامخة حتى آخر شهقة في روحها، أسلمتها وهي تبتسم متطلعة إلى سماء خالية من السواد.

10- أيها الموت!!!

حين قتلوا شريكَ عمرَكِ غدراً صُدمتِ وجرفك صمتٌ أسود...!

لكنَّ صدمةَ أخرى فاجأتكِ بذكريات الأمس الأليمة حين رأيتِ قديستين كرديتين مقتولتين تحتضنان تراب الوطن حيث يركلهما مرتزقٌ ويصوّرهما آخر؛ وغدان من "أحرار الوطن"!

مابين قتل وقتل أيها الموت...!!!

11. حفلةُ الرَّقص الأخيرة!

الأطفالُ فَقَدُوا براءتهم، الشَّباب قُتلوا، النِّساء، والصَّبايا أمْسَيْنَ سَبايا، الوطنُ أصبحَ خَراباً ومستنقعاً لمستوطنين تدفَّقوا من فجاجِ الأرضِ القريبة والبعيدة. يالسخرية القدر! حينها، في تلك اللحظة الفارقة تفتّقَ ذهنُ الأطراف السياسية عن اتفاق لمناقشةِ المعضلةِ: ناقشُوا كلَّ القضايا ورفعوا أنخاب بعضهم البعض، ودخّنوا السِّيكار

الفَاخر...في منتصفِ الليل اتّجه كلٌّ طرفٍ إلى الفندق الخاصّ به؛ ليشاهدَ حفلةَ الرَّقص الأخيرةِ للرَّاقصة المعروفة م. ف...!!

12. عراء موحش

جدران غرفتها المغتبطة بالألوان الزاهية، أغطيتها النَّاعمة الموشاة بصور أفلام الكرتون، خزانتها الملأى بشتى الألعاب، صوت أمها الحنون وهي تقصُّ لها حكاية ما قبل النوم، ها هي "نرفين الجميلة" تغطُّ في نوم هانئٍ عميق! الصور المبهجة لاتزال تجتاح مخيلتها حين استفاقت فجأةً على قهقهة ريح شديدة وهي تعبث بالخيمة في ذلك العراء الموحش، جلست الطفلة الصغيرة بفرائص ترتعد وهي تحدق في العتمة المتراكمة حولها كوحوش مفترسة:

ماماااااا.... أين أنت؟

صرخة مدويّة فحسب ...!

لكنَّ الصمتَ كان ثقيلاً ...!

ربطة خبز

ناسان إسبر

كاتب وفنان تشكيلي سوري

أخيراً حصلت على ربطتي خبز، كان إقناع الموزع أمراً عسيراً لولا أن أهل الحي شهدوا بأن لي أختاً محاصرة في بيتها، وأنها ربما لم تحصل على الخبز منذ أسبوع.

عدت إلى البيت كأني أحمل رأس كليب، هللت زوجتي لرؤية الربطتين، ولكنني قلت لها: "الربطة الثانية ليست لنا"، سألت بفضول: "لمن"، قلت بحياء: "إنها لأختي".

امتقع وجهها وحشرجت بصوت ضعيف: "لا، أرجوك"، قلت لها: "لا تقلقي، سأجد طريقة آمنة لإيصالها لها".

الطريق إلى بيت أختي يمر عبر الشوارع والأزقة القديمة، كان علي أن اجتاز "خان الدروبي" شمالاً، لأن الطريق الجنوبي مسدود بالأنقاض، سأنحرف يساراً نحو حي "الصفصافة" وصولاً إلى "ظهر المغارة" و "حي الخضر" كي أنتهي عند جامع "الزعفران"، أعبر بعدها شارع "نهر بيت شتور" العريض، كما كانت تسميته القديمة، حيث يقع البيت في الطرف الآخر، وهنا تكمن المشكلة..

هناك سأكون تحت القلعة تماماً حيث يكمن القناصة وتربض المدفعية وقاذفات الهاون في الأعلى.. في هذا المكان سقط الكثير من الشهداء، ومنه تقصف كامل حمص القديمة.

قلت لزوجتي: لا بد أن أهل الحي قد ابتدعوا طريقة ما للعبور، ولعل هنالك من يعرف طريقة لإيصالها، وفي كل الأحوال لن أدخل ممراً لا عودة آمنة منه.

حملت الربطة، وقبل أن أخرج رسمت زوجتي على جبيني إشارة الصليب، وودعتني بحرارة قائلة: أرجوك، لا تتركنا وحدنا.. وعدتها خيراً وذهبت.

كان على أن أمشي "الحيط الحيط" وأقول: يارب السترة، من القذائف التي يمكن أن تسقط في أية لحظة، لم تمر علي قبل هذه الأيام فترة أحببت فيها الحياة كما أحبها الآن كيلا أخذل أطفالي، كان علي تجنب الأماكن المهدمة والمكشوفة كيلا ترصدني إحدى الحوامات فيقصفون المنطقة بعد دقائق.

في الطريق تجنبت المرور بإحدى الخرائب المفتوحة على السماء، والتي تحولت إلى مقبرة مؤقتة، لكني عرجت إليها عندما سمعت صوت "أم تغريد" تناجي طفلتها، كانت تجلس قرب قبرها، تتشاطر معها الطعام، قالت لي: إنها جائعة، لم تأكل منذ يومين.. قلت لها: ولكن احذري الحوامات، فردت: لا تقلق، لن يروني، أنا ألبس جلباباً بلون التراب.

تغريد اخترقت جسدها شظية من زجاج النافذة إثر انفجار قذيفة جانب بيتها، ولم تنفع كل المحاولات لوقف النزيف، كما لم يكن بالإمكان نقلها للعلاج بسبب الحصار الخانق.

كان التنقل أمراً في غاية الصعوبة بسبب وعورة الطريق، فالأنقاض المهدمة تملأ الطرقات، وكثيراً ما كان علي أن أعبر داخل البيوت المهدمة في أنفاق فتحها الناس من أجل المرور وتجنب الانكشاف، لقد عانينا كثيراً في فتحها لأن الجدران الغليظة لحمص القديمة مبنية من الحجر الأسود، وفي كل مكان حولي ترك الناس أغراضهم وذكرياتهم المتربة لأنها تلفت بفعل القذائف أو التخريب.

وصلت إلى جامع الزعفران الذي نال نصيبه من القصف، فجأة انبعث من مكان ما نحيب قوي أشبه بالعواء المبحوح لذئب، بادرني شخص يعزّل الأنقاض قائلاً: لقد فقدت عائلتها بكاملها.

جالت في بالي ذكرى بعيدة عندما كانت المآذن تنتهي من الأذان عند صلاة الفجر، بينما يطيل مؤذن جامع الزعفران أداء أذانه إلى الضعف، كان صوته يصدى وحيداً وبعيداً في الليل، وكان شجياً مثل نحيبها.. سألت أمي ذات ليلة عنه، قالت وفي ذهنها قصة حكتها لي: إنه صوت الغزالة تبكي وليدها الذي ضاع لأنه لم يسمع الكلام.. وقضيت بضع سنوات تالية أبكي مع الغزالة في الليل وليدها راجياً أن تجده..

ذات مرة مررت مع والدي قرب الجامع فسمعت وأدركت الحقيقة..

بعدها لم تعد الغزالة تبكي، لقد مات المؤذن.

اجتزت الجامع بحذر شديد، فقد نبهني الناس القلائل الذين التقيت بهم إلى خطورة المكان، سألتهم إن كان بالإمكان عبور الشارع، فحذروني بشدة: ستكون في مرمى القناصة مباشرة، سألت إن كانت هنالك طريقة لإيصال الربطة، فقال أحدهم: عليك أن تنتظر أن يرمي لك شخص من الطرف الآخر بحبل رفيع مع ثقل، ومن الأفضل أن ترفقها بورقة.

جانبت آخر جدار يعامد الشارع وتلطيت قربه، وجدت قربه حبلاً رفيعاً مع قفل صدئ، وكان علي أن أميل برأسي قليلاً كي يكون باستطاعتي رؤية الحي الذي يقع فيه بيت أختي، دون أن أنكشف للقلعة، لعلّي أجد من يرمي لي حبلاً من الطرف الآخر.. ولكن.. مهلاً.. غير معقول.. يا للهول..

أين هو البيت؟.. لا بل أين الحي؟.. لم يكن هنالك إلا الردم والأنقاض.

احتضنت ربطة الخبز، وانهرت على الأرض، وانخرطت في بكاء مرير.

حـوريات

محمود الوهب

كاتب سوري

-1-

مثقل جسمي بالدم واللزوجة.. محاصر، أنا، بأنين الجثث، والأشلاء.. مبعثرة أوصالي في غير مكان، أحاول لملمتها، أرغب إلى من يعينني.. أتلفت حولي، فلا أجد. أحدهم يركل رأسي بلؤم وقسوة، أتدحرج، رأسي متمرغاً بطين السوق ونفاياته! يعاودني الأمل في الصعود، تستحثني روحي، لا قدرة لي على الاستجابة! أتساءل في حَيْرة، وتشكك.. كيف هويت بعد أن ارتفعت؟! ولِمَ صار جسدي مزقاً تغرق في الأوحال، والمخلَّفات، والنتن..؟!"

-2-

تحدِّق بي الوجوه والأشياء، تمعن إليَّ.. تحيلني إلى حيِّنا الشعبي ذاته.. إلى صور كثيرة تتشابه.. رجال وأولاد، سيارات تُحَمَّل وأخرى تفرَّغ، عربات يقودها أولاد، وأخرى تجرُّها حيوانات، أصوات مختلفة تختلط، وتمتزج..! أياد تدفع وأخرى تقبض وتسجل! الكل منهمك في عمل ما..! بعضهم يتلذذ بقضم تفاحة، أو درَّاقة.. آخرون يمعنون إلى سمكة ضخمة، يرددون بإعجاب:

يا سبحان الله! جلَّ الخالق، وما خلق..! بائعو السمك يخرجونه من مائه، ليسلِّموه إلى السكين ذبحاً وسلخاً وتقطيعاً..!

-3-

هل أطلت الوقوف قبل أن أبوحَ بسرِّي، وأصرخَ صرختي، أيُحْسَبُ تمعُّني فيمن رأيتهم أمامي تشككاً وتلكؤاً..؟! أليس من حقي التأكد من حقيقة الموقع؟! فما رأيته لم يكن حاجزاً عسكرياً! ولا هو مقر لحزب علماني "كافر"، كذلك لم يكن مطعماً أو ماخوراً، يفسد خلق الشباب، ودينهم، كما كان الشيخ عبد الصمد يردد دائماً، ويحذر من ارتيادهما..!

إنه سوق.. سوق، يا ناس، سوق للسمك والخضار، سوق تضجُّ، بالحياة والناس..!

-4-

يناديني "الشيخ عبد الصمد.. يحذِّرني في شيء من التأنيب:

"لا تفتح نوافذ للشيطان، يا رضا، الشيطان، يا بني، يختبئ في السين والجيم، دعه غافلاً، لا توقظه! ثمَّ ما أدراك أنت؟! لعلَّ الله، جلَّ وعلا، يستعجل هؤلاء.. يريد لهم خلاصاً من شقاء حياة "كلها تعب!" ألا تراهم أمامك كم يرهقون أنفسهم..؟!"

- شيخي.. هذا.. هذا سووووق..!

"آفة المؤمن، يا ولدي، التردد.. الله وحده يدبِّر شؤون الناس في الدنيا والآخرة، "اصدع" بما أمرت، وتولَّ عن الريبة والتشكك.. لست، يا رضا، إلا عبداً مسيَّراً، فلتمض إلى مهمتك، سلِّم أمرك إلى رب العباد.. اصرف نظرك عما تراه.. حورياتك يستعجلن لقاءك! لا تجعلهنّ يمللن الانتظار..!"

-5-

لم يكن تسمُّري في المكان بإرادتي.. أنزلني أخي الشيخ الجبروني، وأوصاني باختيار المكان الأكثر كثافة.. هنأني إذ سبقت الإخوة جميعاً، ودعا لي بصعود ميمون، قال:

سيبارك الإخوة كلُّهم فعلك الكريم، يا رضا، وأوَّلُهم الشيخ عبد الصمد. إلى الجنة يا أخي، إلى الجنة.. جواز سفرك في جيبك.. الأمل أن نلحق بك قريباً.. يلوِّح لي، وهو يشغِّل دراجته، ويمضي..

وحيداً أبقى أمام الجموع.. أمعن إليها! تتسلق روحي الأجساد، تمسح الوجوه، تمدُّ شيئاً من دفء وحزن إلى عيون لا تني تروزني بريبة، وتوجس..!

-6-

نبهان، يا نبهان، أين أنت، يا ترب المسجد، واللذات؟! يبتسم لي، وجه نبهان، يجيبني عن سؤالي حول ماهية الحوريات، ولكن ليس قبل أن يعدَّ إبريق الشاي، ويطعِّم كأسينا بحبات بيضٍ تجعل للحديث نكهة خاصة..

يأخذ نبهان في الشرح عن نوع من نسوة صغيرات السنِّ، لا يكبرن أبداً، يتميزن بأناقة قد، وبهاءِ حُسْنٍ! جمال لا وجود له في دنيانا. يلحظ نبهان شغفي بالحديث، فيذهب إلى الاستزادة، يصف أجسادهن الليِّنة، يقول:

هي أجساد بلورية لدنة، بشرة وردية اللون ناعمة كأنها حرير بلدي.. (يرفع نظره إلى الأعلى، وينحدر به إلى عينيَّ) يتابع:

كيف تريدني، يا شيخ رضا، أن أصفها لك؟! هي مصابيح نور تتوهج، بياض مطعّم بحمرة خفيفة.. أرأيت الورد الجوري؟! ألمست أوراقه؟! أشممت عطره؟! هنَّ كل ذلك.. وجوه تحاكي بدر السماء، بل تتغلب عليه! ويضيف:

تلك الجميلات الصغيرات، يا شيخ رضا، إنّما خصصن لمتعة الشهداء الذين يضحون بأنفسهم وهم يقاتلون الكفار، ولأجل حماية ديننا دين البشرية.. الجنة مراتب، يا رضا، يتصدرها الشهداء، ثم العابدون القانتون، وبعدئذ تأتي بقية المسلمين.. ولكلٍ من هؤلاء حورياته اللاتي يناسبن فعله في حياته الفانية!

-7-

تتفرسني العيون.. تفترسني.. رؤوس وقامات تقترب متوجسة، صياح وصراخ.. ركض وتحذير.. هواتف نقالة تلتصق بالآذان! وأفواه تلهج همساً بأمور غامضة! مجموعة من الرجال تتقدم نحوي، تطوقني.. أرتعد.. أكاد أنهار.. أستجمع ما لديَّ من قوة، يرتجف صوتي، ثم ينطلق صارخاً:

الله أكبر.. ومع ارتفاع صوتي، ودويّ حزامي الهائل، أراهُنَّ أمامي، أحلِّقُ إليهنَّ..! أراهن يتصايحن في مرح وابتهاج.. ألوّح لهن بفرح:

قادم أنا.. قادم.. أقولها عامية: "جايي.. أنا جايي.." أرتفع أمتاراً، أمتاراً فقط، ثمَّ أهوي مبعثراً في أوحال كريهة.. روث دواب، وبقايا خضار تالفة.. زنخ سمك ونواتج.. يضيق صدري.. أختنق أو أكاد.. لا أرى حولي غير الجثث والأشلاء، الكل يسبح بالدم والأوجاع.. أحاول الارتقاء، تعجزني الجراح، وبعثرة الأشلاء.. ما الذي جرى لي؟! لِمَ لمْ أصعد؟!

ثانية أبحث عن نبهان.. أناديه.. لا أحد يجيبني، لا أحد يسمع صوتي سواي.. أمدُّ بصري إلى الأعلى، أبحث عن الصورة المنيرة إياها، صورة الله، وهالة الضياء من حوله، تلك التي تراءت لي في صدر السماء! الصورة التي واتتني ليلة استفاض الشيخ عبد الصمد في وصف بهاء الله وجلاله.. لا شيء أمامي غير السواد..

-8-

أعاني انغلاق جفنيَّ.. أتخبط في دمي والأوحال، أبحث عن منقذ.. ما أنا فيه قاس ومهلك، نبهان يا نبهان.. أين أنت الآن.. نبهان يمزج حبوبه البيضَ بكأسَيْ الشاي، يقول في مرح:

اشرب يا شيخ رضا، الآن يعتدل المزاج.. نرتشف الشاي معاً، تداعبنا النشوة، أميل، من نعش، إلى الخفة، يزداد حديث الحوريات حلاوة ومتعة.. يأتي نبهان على دلعهن.. بل على ارتمائهن عاريات في الأحضان، وعبثهن بما يجلب اللذات.. أشعر بعبء ما

في حجري، تمتد يدي، تتحسس ذلك الموضع، ينتبه نبهان إلى حركتي العفوية، يبتسم، يحثني على اللعب:

العب، رضا، العب لا عليك..

لم أكنْ لأعلم شيئاً عن ذلك اللعب، يقترب نبهان يلتصق بي، يداعب ذلك الشيء.. يخرج ما عنده، يلعب.. نلعب معاً.. أغيب للحظات في عالم ممتع لم أعهده.. يندى سراويلي بمادة لزجة، أشعر بانتشاء وارتياح.. المادة اللزجة والخجل يشغلان بالي.. أغادر إلى البيت، وعلى مهل أتحسس بقايا المادة اللزجة، أتفحصها.. أعود أستشعر ما فعلته، أستحضر ما رواه نبهان.. أكرر العملية في الحمَّام، خارج إطار السراويل.. تصير راحة كفي والأصابع وأحاديث نبهان حورياتي.. (نهاني نبهان، فيما بعد، عن استخدام يدي اليمنى، قال: ذلك مكروه، لكنني ما انتهيت إذ وجدت صعوبة مع اليد اليسرى.).

-9-

"الولد صغير يا "رجَّال"، (تقول أمي) لا يعرف ما يقول، ولا يحسن أداء حركات الصلاة.. "أبي لا يتراجع.. يغضب، يعاند أمي.. يصرُّ على اصطحابي إلى المسجد، أنزعج أنا، أبدي تثاقلاً وتذمراً، يدفعني إلى الوضوء يؤكد لي مراحله..

"اغسل وجهك ويديك حتى المرفقين، تمضمض، امسح شعرك، وخلف أذنيك، لا تنس غسل قدميك! خلخل ما بين الأصابع!" يعود إلى زجر أمي:

"على الولد أن يعتاد المسجد والصلاة، أأدخل جهنَّم بك، وبابنك! يذكِّرها بحديث الرسول:

"مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر.." إنه شرع الله، يا فطوم، ألا نطبقه؟!" يتابع: أقول لك أم رضا:

– خلِّيك أنت في حالك، وأعذارك، لا أريد أن أذكِّرك بشهر رمضان المبارك، رمضان الذي، غالباً، ما تكسرين أيامه بحججك الواهية.. يا ويلك من الله! يا ويلك من حساب يوم عظيم!

(تصمت والدتي أمام نبرة أبي المرتفعة، وتذكيرها بتقصيرها، واستعانته بالشرع الذي لا رادَّ له، وترهيبها بالعذاب الأليم!).

-10-

جهنَّم.. لم أكن، في ذلك الوقت، قد سمعت بهذه الكلمة.. شرحت لي والدتي، لدى سؤالها، دون إخافتي، إذ طمأنتني بأننا، أمة محمد، كلنا في الجنة، وحكت لي أشياء كثيرة عن الجنة التي أجهلها أيضاً.. تخيلتها بستانّ جارِنا "الحاج عمران"، ملعبنا ومرتعنا، ما أطيب خضاره وفاكهته! نقطفها دون إذن من أحد. أخذت أضيف إلى ذلك البستان أشجاراً جديدة، أزرعها في هذا الركن أو ذاك، أستبدل بساقية الماء الصغيرة نهراً من الحليب المحلى بالسكر الناعم الأبيض، وآخر للعسل الأشقر المصفَّى كذاك الذي كان والدي يغمسه بالسمن البلدي ويتناوله لوحده قبيل ذهابه إلى صلاة الفجر. أستبدل بدجاجات البستان فتيات صغيرات، حوريات كالتي حدثني عنهن نبهان.. أرى نفسي ديكاً، أقف على تلة مرتفعة، أنظر إلى دجاجاتي الجميلات، أحار في أيهنَّ أختار..! فيأتين تباعاً، يأخذن من ريشاتي الملونات يتزينَّ بها.. يقوقئن حولي.. أصيح صيحة الفجر منتشياً..

-11-

أدخل مع والدي إلى المسجد، مزاجي لمّا يعتدل بعد، يقودني إلى صدر القاعة حيث الشيخ عبد الصمد، وصحبه، يرحبون بي:

ما شاء الله.. ما شاء الله.. قد بلغ السابعة، (يسأل بعضهم.. على عتبتها.. يجيب والدي، ويطلب مني أن أقبِّل يد الشيخ عبد الصمد..)

"بوس إيد شيخك" يا رضا، اكسب رضاه. يقول الشيخ عبد الصمد، ويده تصير في وجهي:

مرضي.. مَرْضِيٌ بإذن الله.. ما شاء الله.. اسم على مسمى..! رائحة عطر ثقيل تزكم أنفي.. أبتعد، تدفعني رغبة للتقيؤ.. يقهقه الشيخ، يربت على كتفي.. مبارك يا رضا.. حفظه الله.. يلتفت إلى والدي:

دعه إلى أترابه.. فأسرع إلى حيث الأطفال!

-12-

كان يوماً رائعاً ذلك الذي تقررت فيه عملية استشهادي، كنت في غاية الفرح، حتى إن مشهد الله الذي رأيته، قبل هذه المرة، في السماء، عاودني ليلتئذ.. أتاني في صورة الشيخ عبد الصمد. ورأيتني في الحلم ألوِّح له بيدي، فيمُدُّ لي الحزام ويبتسم.. أرى من حوله عشرات الصبايا، كلّهن بثياب رقيقة شفافة، يلوِّحْنَ لي، ألوِّح لهن، أنادي:

انتظرنني.. أصحو على صوت أمي يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يدها على جبيني.. تتمتم:

"خير يا بني لوين بدك تروح" أحار جواباً، أبتسم وأعود لنومي، ليزداد تصميمي على المضي مطمئناً..

-13-

أغوص في طين السوق ونفاياته، أتمرَّغ مزقاً وأشلاء! كل ما فيَّ يصرخ ويئن! ضجيج كثيف من حولي، بصعوبة أكاد أن أتبين بعض الأصوات اللعَّانة: "حيوان هذا، لا إنسان.. لا ضمير لديه، ولا أخلاق.. وَحْشٌ مَنْ يقتل الناس الأبرياء، وحش..!"

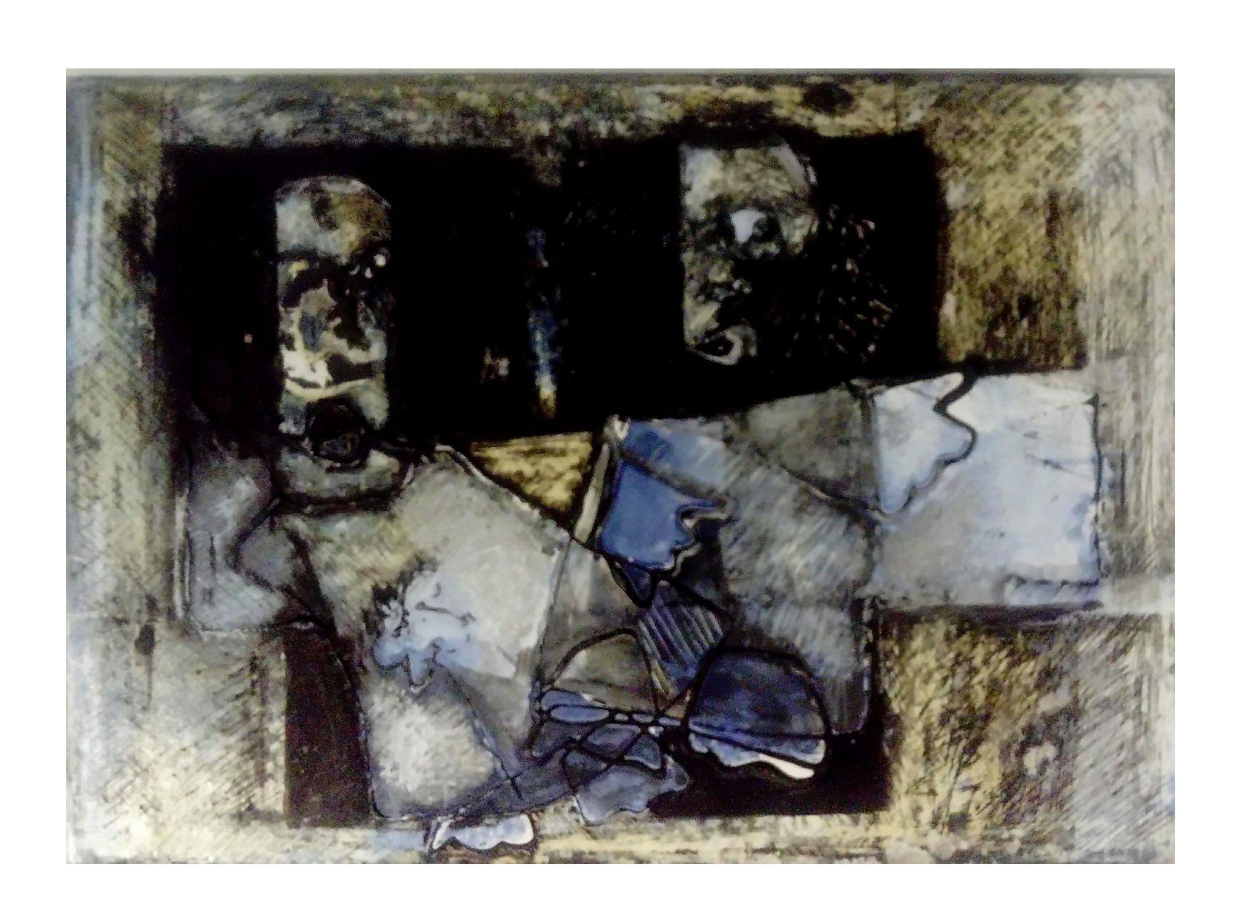
أرتعد من خوف، أبحث عن ملجأ، يأتيني صوت أمي، أسمعه يناشد أبي أن يرحم طفولتي، تحتد الأصوات في رأسي، ومن حولي، وتحتدم.. أقدام تخبط الأرض، يركلني

أحدهم.. يبصق ويشتم، يتدحرج رأسي ثانية، يتمرغ أكثر فأكثر في الدم والأوحال! أشتهي كأس شاي من يد نبهان.. يمدُّ الشيخ عبد الصمد يده إلى وجهي، ألامسها بشفاهي! يتغلغل العطر الثقيل في أنفي ورئتي.. يلوِّح لي الشيخ الجبروني.. يكرر دعاءه:

"إلى الجنة يا شيخ رضا.. إلى الـ.. "

يمتزج العطر الثقيل بالروائح الكريهة إياها، يعتريني غثيان شديد.. لا أقوى على فعل شيء.. تغيم الدنيا في عينيَّ، وتنطفئ..!

غازي عينتاب/2017



الخطّاف

سوزان خواتمي

روائية سورية

لم أكن دقيقاً في مواعيدي كالذين يحاسبون أنفسهم إذا ما حدث وتأخروا.

مهرولاً كنت أشق طريقي في عتمة خفيفة بين ظلال رمادية حتى انقطعت أنفاسي. ألهث في سباق غير منصف مع عقارب الساعة، كما لو أني تأخرت عن..!

عن ماذا..؟

لا أذكر، ولكنني أبدو مستعجلاً. ليست عادتي، فأنا أتلكأ. أهدر الوقت، ثم... أستميت في الوصول، وهذا ما يجعلني ضائعاً بين فريقين: الملتزمون بلا هدف، والمتأخرون بلا سبب.

كان بيني وبين الوصول دقائق فحسب حين ارتطمتُ به كتفاً بكتف. الظلام ابتلع جزءاً من ملامحه. تبينتُ على نحو خاطف لحيته الكثة وبيجامته الرياضية ماركة أديداس. لم أكن متأكداً. اعتذرتُ "آسف"

ناولته عداد السرعة الذي سقط من يده، لوهلة بدا لي من ذلك النوع الذي يحسب خطواته، ربما كان رياضياً محترفاً. منحني ابتسامة نضرة أشرق بها وجهه. لون التراب في عمق عينيه عقد لساني. كان عجوزاً وشاباً في الوقت ذاته. لا أدري إن كان لذلك تفسيراً..! شيئاً فشيئاً اتضحت ملامحه؛ وسيمٌ بعينين صغيرتين ثاقبتين، وتغضنات تحيط حواف ابتسامته. أطال النظر، فارتجفت.

عرفته. اعتاد أن يظهر على نحو مفاجئ ومتكرر، محتفظاً بصمت وقور وكلمة قاطعة لا تُرد، يكفي أن يمد يده ليلتقطنا فرادى أو جماعات. لم يتراجع مرة عن نفخ الهواء البارد في وجوهنا. أينما حلّ، فثمة حزن مديد، وثقب في القلب.

أول ما تبادر إلى ذهني أن أطلق ساقيّ تسابق الريح، فالهريبة غنيمة، لكن أية فائدة ترجى من قدمين تسمرتا بصمغ غير مرئي. فقدتُ قدرتي على الابتعاد عنه ولو خطوة. ماذا لو ابتعد هو!

أردت أن أرجوه.. أن أتوسل إليه.

وجيب خافت في صدري كان أعلى من صوتي. الخوف لبد بيننا، ورائحة حريرية تفوح منه تسلبني إرادتي. مد يده مصافحاً، امتقعت وترددت، في النهاية عليه ألا يتوقع أن أضع يدي في كفه بهذه البساطة، إن فعلت سيسحبني إلى عالم لم يرجع منه أحد، لا.. لا لن يحدث ذلك، فأنا ما زلت في ريعان شبابي، والتقاؤنا ليس إلا محض صدفة يمكنني تلافيها.

أخيراً، نطقت في محاولة لتشتيت ذهنه:

–لا تشبهُ الموت.

–وهل للموت شكل؟

–لا أعرف، إلا أن هيئتك لا توحي ...

–إذن أنت ممن يصدقون الإشاعات.

الاستدلال يؤدي إلى النتائج – ها أنا أتفلسف في موقفي الحرج دون داع–

– أنت تفطر قلوبنا حين تقبض أرواح من نحبهم، لهذا اعذر تصوراتي السيئة عنك.

شيء من التأدب لا يضر– قلت لنفسي.

قال وهو يسترجع يده التي ظلت تتأرجح في الفراغ بيننا طوال ذلك الوقت:

- لا تخف مني يا فتى. الحياة هي المخيفة، وأنا أقوم بواجبي ليس إلا.

- لكني مستعجل وعليّ الوصول، أرجوك.

لم أكن بحاجة للرجاء، فالرجل بدا مسالماً. ابتسم ابتسامة عريضة حتى بانت أضراسه.

- - اذهب. لكنك ستندم.

ربت كتفي بلطف، وقطع لي عهداً بأنه لن يقترب مني حتى أدعوه.

- وهل سأدعوه؟ قلت لنفسي.

ما الذي جاء به إليّ، أم أنني الذي ارتميت في دربه..!

لديّ خطط مؤجلة بعدد شعر رأسي وعليّ إنجازها، وأمامي حياة طيبة لأعيشها، فأنا أحب نادية التي تبادلني الحب أضعافاً مضاعفة -هكذا أظن- كنت قد وعدتها بأن نتزوج يوماً ما دون تحديد موعد أتورط بتنفيذه، فمازلت مولعاً بحريتي، والوقت ما زال مبكراً لأدفن في حفرة سيئة التهوية. تزعجني الأماكن الضيقة، وأنا أشتهي المزيد من قبلات نادية المسروقة، وصندويشات الشاورما التي لا أشبع منهما، وهناك قميصي الأزرق المكوي جيداً استعداداً لمناسبة طارئة، ومجموعة الأغاني الممغنطة التي أحب سماعها قبل أن أنام، كما أن أوراقي جاهزة فور أن تفتح الحدود في وجه السوريين، سأحصل على الفيزا وأسافر للعمل في دبي، يقال عنها أنها نبع فلوس لا ينضب.

أريد أن أسبح مع الدلافين، وأن أحضر حفل باليه لأتلمى بأقدام تمشي على أطراف أصابعها، وأن أجلس في مقعد متقدم أمام كونشرتو لفرقة عالمية على أقل تقدير، لا يمكن أن أموت بهذه البساطة وأنا لم أتعد العشرينات. جدي توفي بعد أن دخن آلاف علب السجائر، واحتفل بميلاد كل أحفاده، ثم مات مطمئناً على ذريته.

*****

- كان كابوساً يا صديقي. استيقظت والعرق يتصبب من كل قطعة من جسمي. وأضفت إمعاناً في خلق تأثير يشد انتباهه: خفت.

- ليس شيئاً جديداً عليكم. أنتم الرماديون بلا موقف خلقتم لتخافوا.

تحاشيت نقاشاً عقيماً، فقلت:

- لا أحب الموت..

رشقني ناصر بنظرة ساخرة، وأجابني بتلقائية: ومن يحبه!

لم أحظ بتعاطفه رغم كابوسي المؤثر، وحالة الرعب التي وصفتها له. تقتلني لا مبالاته.

يقول لي ناصر بأني أسوأ من يروي القصص، إذ عادة ما تتناثر جملي دون ترتيب وتختلط البداية مع النهاية، حتى تفقد تماسكها. كل ما حصلت عليه غيمة من دخان نارجيلته نفثها في وجهي قائلاً: نجوتَ إذن!.

- نعم، بل وأكثر من ذلك؛ أستطيع الآن أن ألقي بنفسي تحت عجلات سيارة دون أن يمسني سوء، فالرجل قطع على نفسه عهداً.

- لا أنصحك بالتجربة.

- أنت لا تصدقني ها..! يا زلمة لقد (زمطت) من بين يديه مثل الشعرة من العجين.

- وما علاقة الموت هنا؟

- الحرب والموت شقيقان، هكذا ببساطة.

-أها!!

رغم صداقتنا منذ أيام الطفولة صارت لقاءاتنا تتناقص دون تعمد، فناصر معارض وأنا كما يصفني من زمرة الرماديين الجبناء، وحين نلتقي تطول بيننا فترات صمت نرتاح

إليها، فلا نتشارك إلا بالطاولة التي بيننا، كل منا ينشغل بهاتفه النقال. أحياناً تتطاير كلماتنا مشتتة تعلق في هواء مدينة تفوح منها رائحة البارود.

كأننا كنا نتقصد توفير طاقتنا على الكلام، لتتحول إلى قدرة على الركض كلما سمعنا أزيز الرصاص الذي لا يفرق بين آرائنا أياً تكن.

الحي بأكمله إذا ما أضفنا الشوارع الخلفية والأزقة يبدو فاقداً للوعي، فمنذ اختلط فيه الغرباء وأصحاب البزات العسكرية، والحذر والقلق يطوفان بأرجل خشبية. المنازل أيضاً خائفة، ومصاريع النوافذ العتيقة تُسند رأسها إلى الجدران تترقب الدمار، إن لم يكن من هنا، فمن هناك.. بعد كل برميل متفجرات لا يعترف أحد بمصدره تختلط الجثث متشابكة برؤوس طائرة وأجساد مهروسة.

رن هاتفي النقال، أعرف المتصل دون أن أرى الاسم، انسحبت وأنا أرفع كفي مودعاً ناصر.

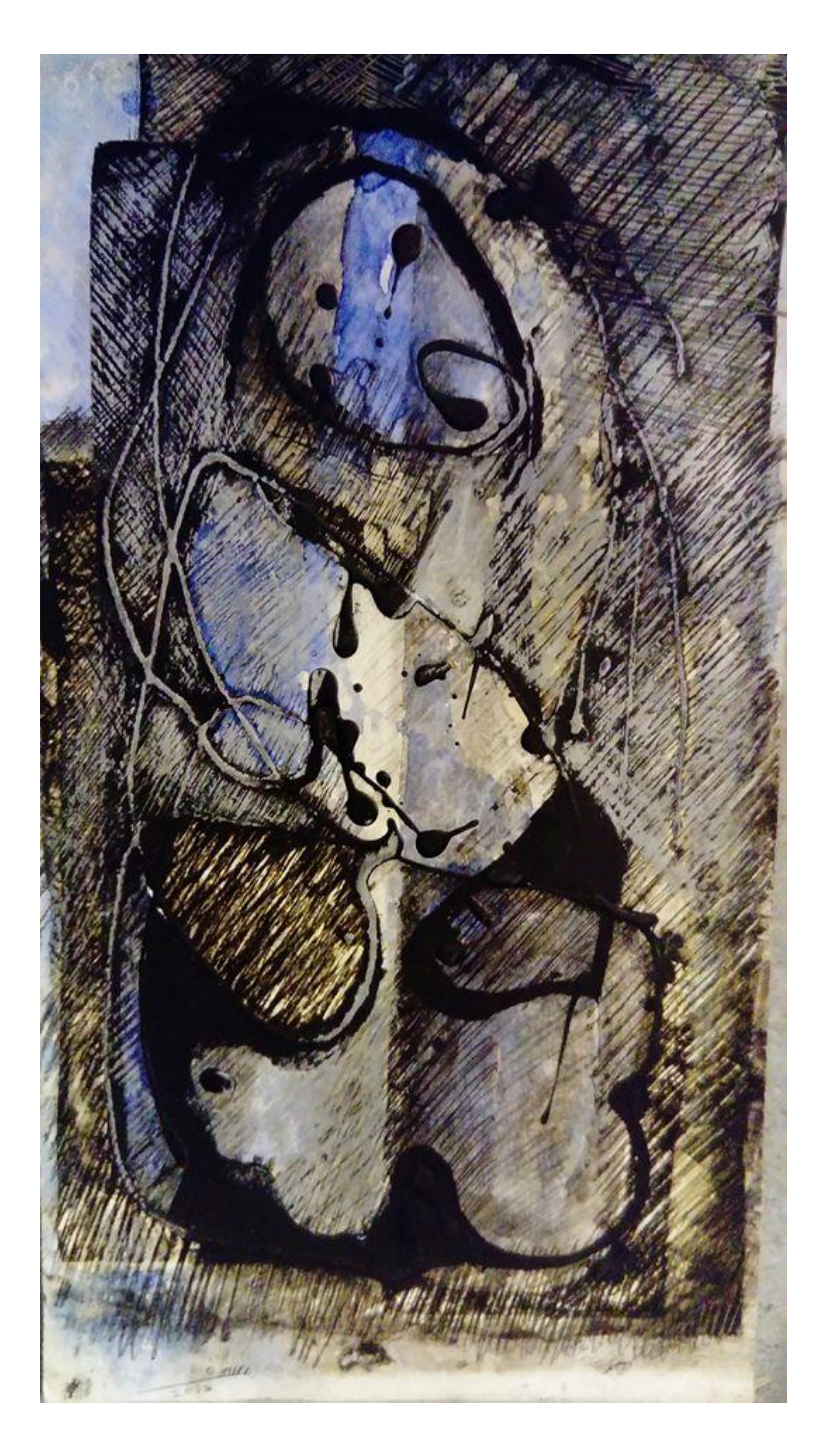
أترك المقهى عائداً إلى البيت، فأمي لا يغمض لها جفن قبل أن تترس الباب بكنبة ثقيلة وتحصي رؤوسنا فوق الوسائد. تؤنبني" الشوارع ليست آمنة، يرضى عليك لا تتأخر".

عشرة أمتار كانت تفصلني عن باب العمارة ونافذة غرفتي، والتعريشة حول إطارها، فوق أسلاك الغسيل لمحت بنطال أختي الصغيرة، وحجاب أمي، وجوارب أبي مثل غربان تصطف الواحد تلو الآخر.. ماءت قطة وركضت أمامي. دوى انفجار.

طرت في الهواء، عندما رفعت رأسي وجدت منزلنا معجوناً كعلبة كرتون، انطلقت زمامير سيارة الاسعاف، خرج الجيران من بيوتهم ببيجاماتهم، آخر ما سمعته عويل وأصوات مختلطة. ينادون بعضهم، يتفقدون أولادهم. حملوني فوق المحفة أنزف. شظية اخترقت عمودي الفقري، وجروح خطيرة في الوجه. يقول الطبيب: لا فائدة.

مقعدٌ ومشوهٌ.. ساكنٌ كجثة تتردد أنفاسها بأسنان مثلمة لا تغري بالقبل. أدركت أني لم أمت.

ربما لو لم ألتق بناصر، أو لو لم أنتظر رنين الهاتف لأنهض، ربما لو أني لم أرتطم به كتفاً بكتف، ربما لو كنت أكثر انتباهاً.. فلم أرجُه.



أوراق النصوص

العَقد الجَليل

د. مازن أكثم سليمان

شاعر وناقد سوريّ

أنا العَقدُ الجَليلُ ذو النَّدبةِ المارِقة.. استيقظتُ في اليوم الأخيرِ من حياة الخوف، وقفزتُ دفعةً واحدة إلى المركبِ الخزفيّ الغامض.. قالوا لي: العاصفةُ القادمةُ مُرعبةٌ، وأنتَ وحيدٌ في الميناء، فاكتفِ ببعضِ الأطعمةِ البسيطة، وأكثِرْ من الدُّعاءِ كي تنجوَ ممّا يُحيكُ لكَ المُناخُ على الأرصفةِ الموحِشة.. أجبتُ: تَنحّوا جانباً أيُّها المُرتعدونَ ذُعراً، وانحسِروا عن أطراف ظلّي المُحارِبِ: أنا العَقدُ الجَليلُ، أخذتُ على عاتقي البحثَ عن طريقةٍ أفضل! وضعتُ الكُرةَ الأرضيّةَ مكانَ قلبي، وأطلقتُ قلبي مُتفرّغاً للمَجازِ السّاحرِ عساهُ يبسُطُ مَدائِنَ لا تحتُّها ريحٌ أنَّى انبثَّتْ ثورةٌ ونبتَ جَناحٌ.. قلتُ: الفنُّ مُوجِعٌ كدربٍ من الأعشابِ النّادِرَةِ الضَّارَّة، والحُرّيَّةُ المنسيَّةُ قد تستطيعُ لَيَّ مُفرداتِ العذابِ على حُروفِها الجامِحة.. هوَ الوجودُ المُغايِرُ، وقد اقتنصْتُ مفاتيحَهُ من أفواهِ النِّداءاتِ المُتصاعِدةِ بُخاراً رطباً كالثّاراتِ.. أشرتُ للجميعِ أنِ انصِتوا، فأنكَروا عليَّ ما أسمَعُ، لكنَّني صمَّمتُ على بلوغِ الجزيرةِ المَمنوعةِ في الجَمالِ، وكرَّرتُ مُحاولاتي لفتحِ عالَمٍ لم يَسبِقْ لهُ أنِ انكشفَ على هذا النَّحْوِ الغريبِ، مُردِّداً كحفّارِ قُبورِ القانطينَ: إنَّهُ انزياحٌ أخضرُ في إهابِ عشرِ سنواتٍ ملعونات، أو هوَ تخلُّعُ أبوابٍ مُوصدةٍ، وتمرُّدُ وردةٍ على الطَّوقِ المعدنيّ الخانِق. هكذا؛ مسَّدتُ بأصابعي جدائلَ الهواءِ المريرِ، وحفرتُ اسمي على الخواءِ الحاسِمِ بإصرارِ الفُرسانِ الحالِمينَ، مُؤكِّداً أنّي العَقدُ الجَليلُ الذي حمَلَ الهُمومَ الدَّمويَّةَ كما تُحمَلُ الهدايا الثَّمينةُ في قوافِلَ مهما تاهتْ تُغنّي فيها اليمامةُ للسَّلالمِ إذ تتمايَلُ اكتظاظاً بالمُحالِ.. أنا ابنُ الاختباراتِ لا الابتهالاتِ، فلا مَهرَبَ من التَّحدّي

الجَماليّ، ومن التَّنقيبِ عن مَخْرَجٍ في هذا الميناءِ الأشبَه باستديو يُصوَّرُ فيهِ فلمُ رعبٍ طويل: سأُدحرجِ القارّات أمامي كأُسطوانات غاز تكادُ تنفجِرُ، وسأُقلِّبُ النَّظَريّات والأفكار بحثاً عن أكاذيبَ خالِدة نبقرُ بطونَها، فأنا العشرُ سنواتِ الطّائِشات: البحارُ الهائِجة لا تشغلُني، ولا الغرقُ التَّراجيديُّ للعُشّاقِ.. المسافاتُ لا أقيسُها بالأمتارِ؛ إنَّما بالشَّهقاتِ، ولا تعنيني أبداً أزواجُ الحيواناتِ التي سأضعُها على ظَهْري المعدنيّ.. يا خُطى التَّجريبِ الأحمَرِ في فِناء الوجود.. يا سُطورَ الأماني المُقدَّدة من رحيقٍ: أنْ أُطلِقَ كينونةً، وأستدرِجَ فضاءً.. أنْ أظلَّ مُتحرِّكاً، وأُكرِّرَ، مَمسوساً، حتّى ينهارَ الجدارُ: أنا العَقدُ الأخيرُ للرَّغبة المُضنية: لنْ أُضمِّدَ جُرْحَ أُحجيةٍ سقطَتْ عن درّاجة الهُروب، ولنْ أرسُمَ لوحةً لفراشةٍ تُطفئُ النِّيرانَ المُحيطةَ بماءٍ مُعقَّمٍ كالخُطَبِ الرَّنّانةِ.. لستُ مُتعجِّلاً كي أُنصِّبَ الزَّيَغانَ المُثيرَ حارِساً على مَفازاتِ الجُنون، غير أنَّني أُفضِّلُ أنْ ينفضَّ المُطبِّلونَ، وأنْ تخلوَ الشَّوارِعُ، وأنْ تضَعَ الاستعارةُ تاجَ الانحراف على رأسِ الظُّنون.. أنا العَقدُ الجَليلُ: حاولتُ بكُلِّ قُوَّتي أنْ ألثُمَ انكساراتِ العدالة، زوَّدَني القلَقُ بالمُوسيقى، وابتساماتُ الجبالِ الشّاهِقة في المَنامِ شجَّعتني على اقتناءِ نيرانٍ عدوَّةٍ.. الموتُ بارَكَ انثنائي، والأحياءُ طعنوا في الأمَل، لكنَّ أقدامي أكملَتِ الانغراسَ في الرِّمالِ المُتحرّكةِ البديعة، وأشرْتُ: هو ذا الكونُ يلتمِعُ كالبرقِ على حافَّةِ السَّماءِ، سأقطفُهُ، وأحتلُّ المُطلَقَ.. أنا المُنتصِرُ المَهزومُ الأعزَلُ المُريبُ؛ في كفِّي ليلٌ ونهارٌ ومُروجٌ وأقاحٍ وأفاعٍ وقُضاةٌ ومُجرمونَ وتظاهُراتٍ وحروبٌ ومذابِحُ وقصائِدُ غزلٍ، وعلى جبيني يثورُ ما بدا رخيّاً كجثَّةٍ: إطلالتي كمانُ الاشتياقِ، وتلويحاتي بداياتٌ.. خُنجرتي بيتُ الهوى الدّافئ، وحبالي الصَّوتيّة تتبدَّدُ فيما يُشبِهُ الله..

حفيف رسائلي إلى العالم

أحمد سليمان

كاتب وشاعر سوري

كلما رأيت حافلة مسرعة يحضرني شكله، الشكل الأسمر الضئيل، كما لو أنه لم يغادرني في مدينة الغبار والتعب، وقتها قرأنا عن الأحلام الكبرى، وعن المرأة التي ستقودنا إلى النور، ثمة ما كان يشدنا فنذهب كوحوش تقبض على السحر الذي يحدثه **(أندريه بروتون)**، ثم فهمنا في المطلق بأن السريالية تحرر الأفكار والفلسفات والسياسة من الجمود، وأدركنا أيضا الطريق إلى الثورة المتجددة عبر **(ترو تسكي)** وقليل من النظر إلى تاريخ **(روزا لوكسمبورغ)**، فوضعنا على قمصاننا صور **(غيفارا)**.

ها نحن كأي شيء يتحول إلى طيف يمر في سماء العالم، نتذكر أو نحدو في الذكرى بقسوة وإيمان مضطرب، وثمة حديث لم يكتمل

عن زياد عباس وآدم حاتم، عن ربيع خليل وجميل حتمل، عن أحمد سليمان ودونا فاضل.

– لعلَنا لم نمت، ولعلني أتذكر.

ما زلت ألبس خوف امرأة وعجوز يوزع خرافات كيفما يشاء، ومنذ أيام قليلة غادرت مرسيليا هذا الزمن القصير، مرسيليا كانت قبل أربعين عامًا هنا قبل سقوط الحلم، وقبل أن يتكسر وجهي في هذه اللحظة.

بنفس اللهفة التي جعلتني أغادر ذات ليلة، وللأسباب ذاتها أبدأ ذاكرة الأمس من هنا، قبل أن ألتقي وجه المدينة، وبعد أن غادرها الأصحاب والأصدقاء الذين جمعتني بهم طفولة الوحل والضياع.

أدخل دوار الساعة المعطلة بينما تطل مثل برج إيفل، وحدها هذه الساعة جعلتني أشعر أنني بعيد عنها، كما لو أنني دخلت مدينة غومل وأنا أخمن بمدينة ما دعوتها يوماً مدينتي.

دون حيلة، أدخل حجراتها متفحصاً أماكن تشبه سنوات تَيبّستْ في حلقي بالقرب من السور المتآكل نسبيّاً والذي تم تأهيله مجدَّداً.

آمنت كغيري، في حين أن المدينة لم تكن مؤهلة لذلك البناء، أقنعت نفسي وقلت للمنطقة أسبابها، لكن، ما زلت أسأل عن شساعة السر الذي يحيط بالأمكنة التي يستخدمها المصلون والمؤمنون اليتامى.

مضيت، واليتامى قبلي، الوقت متأخر.

ككل شيء هنا، أصحاب جديرون بالحب والمغامرة، ثمة آخرون لا أعرفهم حملة كتب وقصاصات صحف، إلى جانب موزعي نشرات موت أكيد.

حي الشراكسة

تحدس النفس ذلك الحي ... هناك حي الشراكسة، قالت النفس، يبدأ بجامع، على زاويته شارع طويل، جامع ومئذنة عالية، صوتها خافت، توازي ساحة ذات ساعة معطلة.

المئذنة تجاور السجن المركزي، يقابلها شارع يصل منه وافدون من المجمع الحكومي وكنيسة الأرمن، ثم نرى حديقة وسطوحاً يحتلها هواة طيور، هي ذات الطيور التي رأيتها تتجول بالقرب من ساحة الكرملين منذ أيام، هي ذاتها تُعتقل وتباع قرب شارع يُفترض أن يكون بؤرة للثورة.

لم تكن الطيور ترفرف إلا كقلبي، لم ألمس الطيور التي كثيراً ما كنا نرسمها في مهرجانات السلم والحرية؛ حيث كنا نُمجد الشمس فترمقنا، تنسحب من رسومنا الطفولية، تنسحب إلى قلوبنا.

على رؤوس أصابعها تنسحب الشمس، صحبة مطرقة تهوي علينا وعلى الطيور التي لم تكن ترفرف إلا كقلوبنا.

وبقوة كانت ترفرف.

ونيسي

كي لا أظلمه سأصفه بـ (الونيس) أتقاسم وإياه أحوالنا وحظنا الأغبر بدءاً من نوبات المرض، مروراً بلعنة الشعر والكتابة. على الأغلب نسخر من كل شيء .. حتى من أنفسنا.

لـ **ونيسي** طرائف مثيرة، قلما يسلم منها الآخرون، لسانه المرن، السليط جدّاً عند إثارته لمواضيع قد تسبب إحراجات سياسية لدى البعض. وعنه أروي سيرة سياسي،

قصد هذا السياسي طبيباً نفسانيّاً ليفك معضلاته في الإحباط والفتور التي ترسخت في حياة بدأت تضيق.

ينصحه الطبيب النفساني بأماكن اللهو وما يطيب لراحة النفوس. وقف الرجل وهو بحال من الذهول مما وصفه الطبيب سائلا:

كيف لي بأماكن اللهو وأنا في حضرة مهرج سيرك يسألك الخلاص؟!

نخلص من السيرة وإمكان مقارنتها بما يمتلك إنساننا المعاصر من نزوع تهكمي فاضح للذات.

إنساننا هذا يحتاج لما يقوم به السياسي السابق ورجل السيرك ذاته في زمن بدأت أقانيمه تفرز فظاعات بائنة، بعدما أعلن إفلاسه من ذخائر الممكن.

(ونيسي) الذي ألفت مشاغبه القاسية يرمم جوارحه؛ كي تقوى على مداعبة روح الآخرين؛ فهو على عادته القديمة يتعمد ذلك كنوع من الهروب والمزاح؛ لعلها السبيل الآخر للخروج من صمت يطغى على كل شيء.

قبل سنوات ليست بعيدة أجريت له عملية إصلاح لكافة أعضاء جسمه، كان بنفس الجناح الذي جمعه بامرأة تركية مسنة، ونفس الأعراض القلبية التي عانى منها الاثنان، المرأة التي أحفظ وجهها، أمي تهذي لكثرة أمراضها ولم تكمل حياتها الأخيرة، بينما (ونيسي) شامخ متهدم كما سور **(الرقة)** وجامع (أويس القرني)، بل مثل باب بغداد.

(ونيسي) بعدما أصلح أعطاله الكثيرة، وبعد أن غير صمامين في القلب، بدأ يفكر بالزواج، صمامين ... يضخان أكثر من معدات المياه عند صديقي سكرتير اتحاد الكتاب.

حصل وكان لهذا السكرتير أن يدعوني بعد أن هاتفني لحضور جلساتهم.

لم أكن متحمساً لمثل هذه الجلسات؛ حيث تكثر الموضوعات وتتشعب أمور الأدب بالسياسة، ولا يخفى الأمر على أحد كي يدون ملاحظاته أسوة بهواة المحو ورجال الخلسة.

وقد لا يروقني سماع حكاياتهم مع أعضاء الاتحاد ورؤساء المؤسسات الثقافية؛ فأنا خارجها، منشغل بأثر الزمن الذي يحتضر.

مع أنني أميل إلى الصمت والتأمل أكثر من الحديث، في مشكلات من نوع مختلف قد لا يطيب لهم سماعها.

أذكر حالتي في حينها، كنت أعيش عزلة حقيقية؛ إذ لم يكن لي أي علاقة بما يجول في تلك الفترة التي دامت لشهور قضيتها كمن ينتظر فرصاً كثيرة، وأنكفئ دون أية نتائج كما حياتي التي أكتبها وما لمست واحدة من شذراتها، ما أنا اليوم وما يصلني بهذا العالم إلا سماعة هاتف، وعلبة بريد، وبعض أدوية وسموم أتناولها بانتظام

جاءت دعوة الصديق بعد أن عملت على تسوية أمور خاصة بطباعة كتاب يحمل اسم شقيقي، هو ذات الكتاب الذي رفضته الرقابة عندما قدمته باسمي!

للآن أخي هو مؤلف الكتاب خاصتي، وأنا أتأمل.

كم أنا خجول من اسمي!

وكم أنا فخور بأخي!

سأورد شيئاً آخر عن (ونيسي) الذي يشبهني ببعض مشكلاته. كان يفكر بالهجرة إلى الخارج لكن الجهات مقفلة أمام مَن هم مثله، في حين أنَّها مفتوحة على مصراعيها أمام الذين لا يفقهون من الحياة سوى ما زاد من فضلات بطونهم.

كما العديد من الشباب أصدر كتيباً شعريّاً، وعلى إثر الانتهاء منه احتفى الأصدقاء الذين تربطهم به قرابة الأدب والثقافة الأخرى، ربما جاء ذلك الاحتفاء لندرة مادته الشعرية وأسلوبه الذي أجده "يتجه لا يدل" لكنه أكثر دلالة من المعنى.

تكمن صوابية ما سوف يشكله لاحقاً، في حين أننا نجد ما هو على غرارها بدأ يقوى بشكل متمايز بأماكن مختلفة.

أتفاجأ بما كتبه (ونيسي) قبل عام؛ حيث أقرن نصّاً شعريّاً مقدمة من "**سفر يهوديت**" الإصحاح الرابع، وهو سفر غير مثبت في الكتاب المقدس "المتداول حاليًا" طبعة الآباء اليسوعيين في بيروت 1875، ووضع صورة **(إرميا)** جاثياً يبكي **خراب أورشليم** على عمله الجديد.

أبدى مراراً أنه ليس معنيّاً بما ترمي إليه أبعاد فعلته، سوى إنَّه دمج مقتبسات الى جانب نصوصه.

مقولة غير مثبتة وحدها، وتحتاج وقفة متأنية من قبل قارئي تاريخ الأديان.

لا بأس بذلك، هذا ما يمكننا أن نصفه (مغامرة) أخذ بها عبر الكتابة وحدها دون أن يعي ما سوف تقدمه من خدمة واعتراف معلن بما لم يثبت.

أليس بذلك وحده اشتغال كائن آخر. روح شاعر تسكنه نار أخرى، نار حلم وجسد كتابة، هي نار تضع الذي أضرمها في محرقة الحساب على مرأى القداسة.

فكر يعمي بصيرته وحياته، بينما عيناه جاحظتان لما آلت إليه الخيبة الكبرى.

كأن به روح مغامر لا يأبه لما تحدثه فوضاه.

قبل أيام قليلة، قبل مغادرتي المدينة هناك هاتفني حبّاً بمشاغبات آخر الليل ليقرأ لي نصّاً مسرحيّاً تعتمد مادته على أسطورة، ثم أكد لي أنه ليس أقل تعباً مني، وأنه بالكاد يمسك سماعة الهاتف.

سألني عن هذه السيرة التي دونت ملامحها قبلا، هذه الحكاية الناقصة، هذه البلاد التي يسكنها الأحباب اليتامى، أما اليوم فما أستغربه حقّاً، كيف لبلاد تحيا فيها الثقافة، بينما تميت الحلم والشعراء؟

وضربه على قفاه

ثمة تواريخ لن أنساها مثل 1984؛ في أواخر هذا العام حدث أن التقيت صديقاً من أصدقاء الصدف، كان يعمل لدى مؤسسة إعلامية لإحدى المنظمات السياسية؛ حيث جرت العادة أن يكون لكل منظمة تيار منقسم عنها، حتى حصل أن داهموا المقر ليقتلوا من كان فيه، و كان صديقي معهم.

باسم النضال والحفاظ على الثورة المتأججة جرى تعذيبهم بأساليب لا تختلف عن المشاهد التي نراها على شاشات التلفزة.

لا أتَّفق وما يطرحه الصديق؛ لأنه ينتمي إلى عقل متطرف، وتالياً سيكون من شأنه – كأي سلطة – ألا يرى إلا بعين واحدة.

مع أنني أتألم على حالته تلك، كما لو أنني هو ... وهذه الصور الداكنة عن تقوس ظهره ربما ستحدث لي مستقبلا، بينما أصابعي ميتة أكتب حروف القسوة.

تاريخ آخر لا يختلف عما أوردته قبل قليل ولا يختلف عن غيره حتى ... بفارق بسيط حيث نجده أكثر عصرنة.

كنا في منطقة جبلية تستخدم فيها إحدى التلال كسجن سري لمنظمة نشطة بالتصفيات الجسدية، وقرار 242 كان موضوع تلك الساعة.

ثمة عمليات انتحارية، خطف طائرات، اغتيالات عشوائية، وغير ذلك.

العاملون على حراسة السجن كانوا – على الأغلب – من المثقفين والملائكة الأبرياء، إلا أنهم أداة لترويج مخططات ما آلت إليه الأمور في أيامنا هذه.

مع ذلك قرروا تصفيتنا، عرفنا ذلك قبل ساعات، بعد أن قصفت الطائرات الإسرائيلية أحد المواقع المجاورة للسجن ذاته. من المنتظر أن نموت بعد لحظات، لكن ثمة أموراً تسير في صالحنا، المحقق إيراني، والصحافي الذي كان يستدرجنا ببعض المعلومات الشخصية لمجلته فلسطينيٌّ من القرى السبع، ورجل آخر – أجهل جنسيته – له ذقن كثيفة، عمل على تهريبنا في أثناء نوبة الحراسة لأحد الباكستانيين بعدما ناوله قطعة حشيش وضربه على قفاه.

لم أكن أدري أن لذلك الإيراني علاقة بمزار "أويس القرني". أذكر انه – فيما مضى – لم تكن ذقنه حليقة، لكنه كان يحمل كتاباً سميكاً، يقرأ بهدوء، يبكي خلفه المؤمنون. أتذكر شكله، غالباً ما أراه على شاشات التلفاز؛ فهو يشبه قيادياً بارزاً في البرلمان. كنت كما اليتامى، لكن لا كتاب بين يدي، حزيناً ومتعباً ومنهاراً كنت، كما هذه اللحظة، لحظة استفاقتي من المنام.

رقابة المركز

واضع الختم غائب، كونه في عمل دائم، نجده يشغل مهام كثيرة، يعمل معاوناً للمدير، مراسلا شعبيّاً لإحدى الجرائد التي تصدر في الولايات المتحدة، منسقاً لمعظم خدمات البلدية، ومعدّاً للتقارير الشهرية عن أحوال المنطقة؛ حيث لكل منطقة أسبابها وأمور أخرى أجهلها. هذا ما ذكره أحد المراجعين من أجل الختم ذاته، وبعد قليل وصل واضع الختم الغائب، أخرج من جيب البنطال ختمه، ثم راح يقلب الأوراق التي تضمنت الطرد خاصتي، وقع نظره على مقال "رقابة المركز"، لم يجد بالعنوان أي أهمية بعد أن تأفف وطلب إليَّ أن أغيره، هذا ما لم أفعله على غرار ما طلب أموراً أخرى حول الطرد في حين أنَّ المقال المذكور لم يكن له أي علاقة بالمدينة أو البلاد أو "**المركز**" الذي يختم الطرد البريدي؛ حيث كانت مادته حول ما كتبته مستشرقة أمريكية متخصصة بجنوح حركات التحرر العربية عن مشروع إبداعي يطمح للارتقاء؛ حيث اعتبرت أن ذلك الطموح امتداد لخلفية ناجزة لأكثر من خمسة وسبعين عاماً.

يا للمفارقة هذه أن تدمج بعض معلومات حصلت عليها من بعض أقسام تخص الاستشراق والبحوث في بلدها الفاخر بالوصاية على شعوب المنطقة.

بالأصح سيكون حظّاً وافراً لبعض كتاب التقارير في العالم العربي.

مجرد وثيقة تجمّل الكذب، وتلفق معلومات تنشر على حلقات.

مع الإشارة إلى أنَّ مادتها كانت تحتوي على تفصيلةٍ فنية حالت دون الرغبة والجدية للارتقاء بمستوى المشروع الذي بادرت بمناقشته.

بين يدي قصاصات صحف وصلتني بالبريد الذي يمشي مثل سلحفاة، بريد اليوم لا علاقة له بما أوردته قبل سطور قليلة.

لكنه بريد، وقتها كان لي غرام خاص بيوم البريد العالمي حين (يفلش) أسرارنا ويجعلنا عرضة للجميع، كم كان مؤلماً حين استلمت رسائل أصدقاء من مشرق ومغرب العالم وقارنتها مع مثيلات بائسة.

- قلت لنفسي غرام من نوع مختلف، قد يعود تاريخ غرامي بالبريد، حين بعثت رسالة من مدينتي إلى بريد العاصمة عادت إلى عنواني بعد شهور ظنّاً مني أنها مرسلة إليَّ.

وقرأتها كما لو أن الموقف كذلك، مؤلم هذا الشعور، أعني حين تفتح علب البريد لتجده فارغاً يتأملك من جهته الأخرى.

تاجر التحف يحاور البولشفيك

بين أن أكون حاضراً داخل المعترك، وبين أن أقرأ حول قضية، ثمة مسافة يعجز عن تفسيرها من خلال بريد يمشي مثل سلحفاة، بريد مستعجل وجبان، لعل ذلك الفضل يعود إلى انهيار الكتلة الشرقية وإعلان دول الكومنولث بديلها الآخر، وهذا البديل لم يحقق غرضه حتى الآن. اضطرابات في العاصمة موسكو بسبب عرض قدمه رجل

أعمال بريطاني له باع طويل في تجارة التحف، لا سيما الموتى اليتامى، بعيد العرض ذاك، حول استئجار ضريح **(لينين)** ليتجول به تاجر التحف رجل الأعمال البريطاني.

ثمة عواصم عالمية تنتظره بالضريح بطائرة خاصة، سيتعرف (لينين) على نوع مختلف من البشر؛ فهؤلاء البشر سيرمقونه للمرة المليون ويشككون بدولة العمال التي أرادها للعالم.

العالم سيكون تحت طائرة رجل الأعمال، وستفشل هذه المهمة إن لم تتفق الحكومة، والتي بدورها بادرت برفع الحماية عن الكرملين.

كانت بداية غير موفقة، ثمة حماة وجنود متطوعون دعاة إصلاح وثورة ما بعد ثورة "البولشفيك" بعد انهيار الشيوعية "كنظام حياتي منكفئ"، معادلة يروج لها تجار الأسلحة والعتاد الحربي منتجو العقول وخبراء الفتك والدمار الشامل، قلت: معادلة، من الممكن تأملها.

مفارقات .. ومفارقات لا يمكن للمتأمل إيَّاها سوى أن يربت على نفسه، ويضع كفيه على وجهه كي لا يقهر.

وأخص بذلك حين ألحظ طاولات صغيرة تتوزع في شوارع عاصمة بيلاروسيا فوقها أعلام صغيرة وعلب شفافة يدعوك من يجلس خلفها كي تتبرع، مفارقة حقًّا؛ فثمة من يتأهب لإعادة الأمور إلى عهدها وإن كانت بصور غريرة أقل فتوة وأكثر طيشاً في بلاد يحكمها اليوم رجال مافيا.

هم ذاتهم الذين يفرغون محتويات تلك العلب الشفافة، باسم الشيوعية، بل – لشيء من الحنين إلى تربيتي – وجدتني أتبرع، بينما ألحظ رجال مافيا يقلبون كل شيء في مدينة الحب والمرح .. مدينة الشيوعية المعاصرة هنا في "**غومل**" على بعد مسافة داخل القارة الحمراء بلاد لا يمكن تصورها خارج تقاليدها ودمها الناري الفاتن، من هنا مرت الثورة الشيوعية، هنا بيلاروسيا.

قصاصات ... إف... إف، قصاصات لا تنتهي .. جميعها تدعوك للتأفف .. جميعها تذكرك بغيابك حتى عن نفسك، أقول أحياناً ما الكتابة إذن إن لم تغب عن نفسك؟

أن تكون ضدها، أيضاً سيكون بذلك مزاج غير مؤتلف.

ثمة ملف أعدته الصحافة المغربية عن المغايرة والاختلاف، يحتوي على سجالات ثقافية وفكرية. كان ذلك الملف بمثابة هدية لحركة المغايرة التي نلحظ نشاطها عربيّاً رغم جدار القطيعة الذي تفرضه طبيعة الجغرافيا السياسية في هذا العالم الجميل المتأنق دوماً على جثثنا.

وغداً سأكون أقل تعباً كما تشير بطاقتي الصحية، لكن، سأكون أكثر بطئاً من البريد والسلحفاة، أما الآن فعليَّ أن أقرأ حسب إفادة بعض قصاصات منشورة في صحيفة إحدى أحزاب المعارضة، في الماضي كان للمعارضة أن تحلم كما كان لنا أن نحلم، أكثر منها ربما. أعني تلك المعارضة الرسمية التي تعمل تحت قبة برلمان هزيل.

وتورد الصحيفة "المعارضة" كلامًا نقلته عن وكالة أنباء فرنسية؛ حيث تضيف بأن (أدونيس) هو المثقف العربي الأول الذي بشر بالتطبيع.

خبر آخر ونقلا عن مثقف أقل معارضة، ولسبب خلافي ربما، يشير إلى أن **(إلياس خوري)** "يحاول تجنيد بعض الأقلام". لا أدري إلامَ يرمز حضرة المحرر.

(محمد بنيس) ينعي اللغة في المغرب.

"إدوار الخراط تخلف عن مشروعه الكتابي". ربما يعتقد أن **(الخراط)** داعية حزب سياسي.

(محمد شكري) يوزع متاريس الصمت والعزلة، وفي زاوية أخرى نقرأ عن روح شاعرة تنازع تدعى **(نازك الملائكة)**.

وثمة أخبار مربكة وخبر تافه عن موت "الشيخ إمام"، ثم أقرأ في كتاب مرسل مع ذاك الطرد نصوصا لـ **(هاني الراهب)**، كما لو أنني أقرأ له من جديد، أو أنني سأودّعه بنفس اللهفة التي غادرت بها البلاد، (هاني)، كم أنا غاضب! وكم أنا مستاء من نفسي!

مغرم على ما أعتقد

أنا مغرم على ما أعتقد، لكن اللغة هنا مؤذية، ثم إنّها لا تصلح لبوح عاطفي. معلمة اللغة تأكل تفاحة وأنا أتفحص السوتيان الذي خلعته وعلقته على رقبتي، لا توجد بغرفتي مرآة. نظرت إلى زجاج النافذة:

الثلج يملأ الزجاج، ونعيق الغربان في الخارج يؤذي جسدي، أحتاج لمن يواسيني، هكذا يفكر جسدي، له أسبابه، لكن، اللغة هنا تؤذيه؛ لذا أجد جسدي، على غير هدى يلبس ما يكفي لأربعة بالإضافة لبنطال جلدي ومعطف سميك، أخذته من جنرال متقاعد في الجيش الأحمر الروسي، بالإضافة للراتب والنجوم التي تجعلني أحلق في الجحيم.

أسأت تصرفي مع هذا المعطف.

السوتيان على رتبة المعطف، المعطف دافئ لكن خجلي يؤذي اللغة، والمعلمة الروسية تصر أن أبدأ بلفظ حروف الهجاء.

إف ...

سأعود إلى الطفولة، أنا أكثر ميلا للتأمل؛ لذا فضلت الإيماء بدلا من فك رموز اللغة، بدءاً مع حركة يخفيها السوتيان، صوت المعلمة يرتفع وأنا أمتلئ بها، كان صدرها أوميّاً، أنا كأي طفل شقيٍّ؛ لذا سأبدأ بلغة تؤنسني، لكن هذه اللغة تفشل باصطحابي إلى أقرب مترو أو ماركت لابتياع الأكل.

أنا لا آكل هنا؛ لذا لن أحتاج إلى اللغة؛ سأعكف على تعلم الإيماء، الأكل هنا لا يصلح أعلافاً حتى، بعد قليل سآكل وجبة تعدها معلمتي.

– أنا جائع، والأكل هنا يؤذي الشهية.

سآكل المعلمة إذن.

خمنت هذا.

فقد فهِمت المعلمة أنَّني أشعر بالبرودة وضمتني.

الصورة التي بيدي يعود تاريخها لبضعة شهور.

أنظر إليها بدقة.

– من هذه؟ قالت.

معلمتي الفرنسية، أجبت.

– تعلمت اللغة الفرنسية إذن؟

قلت: لا، تعلمت الإيماء والجنس.

ضحكت معلقة، كيف؟

لم أجب في هذه المرة كما أسلفت، أي أني لا أحتاج إلى اللغة الروسية، كما أنني لن أحتاج إلى لغات أخرى، ثم فهمت المعلمة سر صمتي.

تأملت شكلي المائل إلى الغروب، وأيقنت منها بأنني لن أتعلم اصطحاب امرأة روسية إن لم أعمل على هجاء اللغة.

ولأنني في موقف لا أحسد عليه، رحت أحفظ – كما لو أنني سأتعلم اللغة – خمسمائة مفردة، جميعها تتعلق بالأكل والجنس والنوم.

أما **(لينين)** الذي علمنا أن نحب الشعوب، و**(ماركس)** الذي أورثنا **(رأس المال)**، و**(تروتسكي)** الذي نسيت ما إذا كان زعيماً ثورياً أم أنه بطلٌ لفيلم أنتجته الولايات المتحدة؛ فهؤلاء جميعا يؤكدون ما يمكن أن نتعلمه بلغات الأرض.

وأنا لم أتعلم غير لغة أهلي، الأقرب إلى نفسي، وإن لم أكتب بغير اللغة العربية طبقاً لمعادلة المنطقة التي جعلتنا نغادر إلى بلاد من الممكن أن تنتج بهيئة هجينة، وها نحن مزيج من لغات تركيَّةٍ وعربيّة وبعض فتات من لغات أخرى.

هكذا ببساطة، أن تطلب ما تشاء في رسالة واحدة، أن تُخذل أيها العشيق، نارك باردة، مع انكَ مُلتهب.

في رسالة أطلب فيها أن تعيد لي الكلام الذي قلته لأجلها، موضحاً أنَّ ما ذكرته في الرسالة الخامسة والعشرين لم يكن عنها.

– وصلتني حروف ممرغة بماء الرغبة، وثمة ورقة مذيلة بحرف دقيق بالكاد أبصره، تورد:

(وهبتك ما لم تستطع امرأة أن تشعله فيك).

تبدو لي المسافة كما لو أنها قبل أربعين عاماً خلت، قبل أن أغدو ناراً مطفأة، بعد أن أحببتها بعنف لاهب، وقبل أن تؤججني.

هنا أعني الفكرة، اهتممت لشكل النص والشعر والبلاد، ونسيت نفسي في الخامسة والستين من عمري القليل. عن حب امرأة في الثلاثين، أي أن الثلاثين عاماً المتبقية من أعوامي بدت مقطوعة مني.

امرأة دعوتها **(مرسيليا)**؛ تيمناً باسم مدينتها جنوب فرنسا، (مرسيليا) بعيدة هذه اللحظة، هي جسد النار وأنا مجرد فكرة.

وقعت بغرام آخر

كنت قد وقعت بغرام آخر، أغرم بالأشكال الأخاذة، المستطيل مثلاً، يحتوي هذا المستطيل على رسم أعمى .. رسم أخرس مفتون بسبات أزلي.

– الأول داخل الكادر يغلق عينيه بورقة، وعصابة تأخذ من ظل وجهي مكاناً.

– الثاني يتأمل ببصيرته الأخرى يستوطن ذاكرة إذ لا يشي بغير معالمه دون جدوى.

– الثالث مفتون بربطات عنق وشرائط مُذهبة تنزل من أعلى رأسه إلى أنفه، افتعال معلن عن خرس مفتعل، عن صوت مكتوم.

الأشكال هنا، على ما تبدو عليها، كمثل إرهاب فاضح، تحتوي على إشارات نجد بقراءتها شواذَّ، نزوعاً يعكس دهشة المتأمل، لكن هذا الأخير يقف ضد نفسه، أشكال متداخلة لاكتها أبواق حشود في المهرجان.

خاب ظني، الحسود حين يمارس البغي مع الأشكال، أعشق الأشكال؛ إذن أنا مغرم بالمستطيل، عليه ما عليَّ، إذن المستطيل، ألا أجد صورتي لأنني تعب، بل كي أهرب من نفسي. قد أضع فاصلة تحد قدرتي، فاصلة تلمسها يد إله وجسد مشوّق، الجسد الذي نهيئه دون جدوى، المُنهمر لحظة نصبو فيها صبابة من يتأمل.

– ما هذا الكلام؟

هي تقرأ حروفي، وأنا أبداً لم أغفُ.

ثمة خوف يرجئ كل شيء؛ حيث الندم هنا صواب متأخر، كما أن العالم لا يهلك، لا يعنيني أيّاً كان هذا العالم، ثم إنَّني أحتاج ألا أفكر، بغير النار الصافية، جسدي الظل الآخر، أبصر تاريخاً عنه.

عندما نزلوا محملين بالهراوات والخطو السريع مثل رجال كوماندوز فتشوا الوقت والأمتعة والقصائد المعلقة. فتشوا المدفن الذي يحتويني، تحدثوا مع موجة الإذاعة،

ثم ضربوا أخي الكبير والمتهدم مثلي، ضربوه كما لو أنه أنا، أخذوا شكلي وصوتي المتيبس على شفة أختي ذات الخال المرسوم على أرنبة أنفها.

قالت: هل أزيلها بجراحة تجميلية؟

إذن، سيطير أنفك، أجبت.

ثم إنَّها لا تليق إلا بك يا أمنا.

لم يتركوا سوى صوت أمي وصلاة أبي اليتيم.

– وجسدي، صباح كل عيد يهلك، كأن أضرب جسد اللوحة بالسكين، ثم أهوي في الثالثة إلا ربعاً بعد النوم، في الخامسة والستين بعد هذا العمر القصير.

شرقنا الأليم

أنتم تحاولون امتلاك كل شيء، بما في ذلك الجسد، فلكم ما تحدسونه من خطايا أليمة قد تأسر الجسد إن لم ترجمه في هوة سحيقة. وحدها الأفكار بمنأى عن اهتمامكم، وإذا وجدت ستكون في عالم يمتلئ بالتعقيد.

إنني حقَّاً آسفة بما تدعونه بالغرب الفاجر (كما يصفوننا) لكنكم في الوقت عينه تثيرون اهتمامنا، مع أننا لا نملك سوى أفكار قد لا تصلح لإعادة تأسيس "أنظومات" تخرج بلاد الدفء من عفة المستحيل.

ما قالته المستشرقة في رسالتها لي، كلام صائب إذا ما عمدنا إلى مطابقته واهتمام جيل وصل اليوم عبر مفاهيم هذا العالم إلى سدته.

كلام استشرافي، لكن لا يمكن تعميمه على نحو مقارب، من ميول أمزجة ملايين من شعوب الشرق، وإذ لم يُخضِع هذا الشرق بعض شعوبه لمصحات، بالطبع ذلك يمثل كارثة، وبالتالي فإنَّه يتحرك ضمن خرائطية القوى المسيطرة على العقل البشري،

والوصاية على برمجته حتى، وما الجسد – حين يكون ضمن هكذا مشهد – سوى النزوع إلى الشذوذ مطلقا.

وممكن أيضاً أن يكون هذا "الجسد" حقل تجارب لآخر عقار استحدثته القوى المسيطرة، من يدري إن كانت ثمة أدوية وسموماً تجيره، حيث يتابع المستفيدون بعض رموز وقادة هذا الشرق وأحزابه النهابة، مجهود خبرة أبناء هذه المنطقة وما تُدره عليهم من أرباح ثراء مجنون.

إذن، الجسد سيكون على سوية وما تمثله أدمغتنا، وفق كلامها، أما أجسادنا، فإنَّ لها أن تفكر بالإخصاب، لا بالوعي واختراق حرمته.

لكنه يعي حاجة الغرب، أعني الأقل خصوبة هستيرية كأحوالنا، بالتالي فإنَّ هذا الغرب، غالباً ما يتأفف فيما نجد تركيزه على ذات الشرق.

مهلا حبيبتي المستشرقة، حين تجدين هذه القصاصات منشورة لن أكون إلى جانبك، بينما أنت بأحضان صديقك الإسباني، "الفرنساوي" الأصل كما تزعمين، وأنا كعادتي أملي على جسدي بألا يفكر؛ كي أمارس عليه وصاية خارج الوعي، الذي يتملكه غربكم الجميل حد السقوط، بأحضان وغرام هذا الشرق.

لذا لن أخاف على جسدي بعد اليوم؛ لأنه ضمن وعي كامن، لا إلى وعي خارق كجسدك، جسدك الذي لن أجد متعة أشد من حرارته وقت صيف لاهب.

لتوي أنهي هذه الليلة خارج المدفن الثلجي في قارة حمراء قبل أن يجف دمي، قبل أن تصلك حروفي وترمي بلاغة لغتها بأكثر من إشارة؛ إذ لا تليق ولعثمة صفحات كتابكِ الذي عملت على مراجعته كما لو أنه لي.

هذا إن لم أفكر بدلا منك، حين تتأسَّس لدي رغبة بكتابتها يستحيل أن أنظر إليها دون أن أتذكر جسدي والمغامرة التي لا تقصيه إلى غير اللهيب.

جسدي المهمل، أبعثه إليكِ، طي هذا النص المستحيل، فهو دين قديم على أي حال، أسديه لما وهبتني إياه ذات يوم، ما لم تستطع امرأة أن تشعله فيَ . كما تقولين في واحدة من الأوراق التي وصلتني بحروفٍ دقيقةٍ . كما لو أنك تهجرين كنوز الشرق، كما لو أن الغرب لم يشرب من حلمنا الأليم.

أربعة معتزلة، وخامس يشم المعرفة

يحدث أن يتأمل أي قاص ثلاثين عامًا مضت، إلى جانبه كاتب مسرحي فاز بجائزة، إلى جانبه امرأة توازي الفطنة، كما روحها الأكثر شباباً من العمر المديد.

زوجها شاعر ذو سلوك متحفظ، رزين يؤانس الجلسة بتودد كلما امتلأ الوقت بالصمت وأزيز الطبيعة، يتهامسون مع النار والعزلة، أربعة كانوا وخامساً يتقطر وجهه بالمعرفة وطلاقة اللغة وإمكاناتها التي أحب.

هذا ما لم أجده في جلسات أيام زمان قبل مغادرتي مدينة القحط والضياع، خلافاً لما كانت تعانيه العاطفة من نزوات المثاقفة، أمكنة كتلك أشبه ما تكون بأضرحةٍ وتماثيل، يقدسها الشباب، شاب يدلل على الأشياء قبل أن يتجه، إلى آفاق يحتاجها قبل أي شيء أكيد.

رغبت أن تكون الدلالة بعيدة؛ لأنه ما من معنى يستحق وقفة، أعني ومضة لا تلتفت، كما يحدث بأجواء هذه السيرة وأنا أبداً خارجها.

زوجة الشاعر والناقد الذي يعرف تاجر القماش، بائع العطور الذي دُفن في استانبول، قيل إنَّه يحترم مفهومه للثروة التي يريدها أن تأتي من لحم ودم؛ لذا، كان ينشئ جمعيات بدلا من الأحزاب.

ما أنا سوى ابن لا يعرفه الناقد، أنا ابن تاجر القماش وبائع العطر، في حين أنَّ أبي لم يعد يذكر اسمه الذي يأتي بعد اسمي.

كنت طفلا يدعى اورهان

سموني بهذا الاسم، "أحمد"؛ فهو يدل على نزعة بائنة، أدركت ذلك عندما صفعني المفتي بينما كنت أحدثه عن رغبتي بغير هذا الاسم.

يا جدنا. قلت، يا جدنا الذي في البعيد، عليَّ أن أهيئ صورتي، أظنني حفيدكَ؛ فقد كنت طفلا يدعى **(أورهان)**، ثم **(أمجد)**، ثم خطأ في سجلكم، و**(أحمد)** المكتوب على بطاقة الهوية يصغرني بأعوام أربعة!

تقول أمي: كنتَ مجرد خلوة في أرض الحلال!

ثم خطأ في سجل الدولة، عمري المكتوب على بطاقة دون جدوى، صحتي تنهار واسمي الحقيقي تذكَّره أبي عند المقبرة، صباح يوم عيد تذكَّره أبي، بينما أنا نسيت حتى شكلي.

ما زالت الدلالة تلبسني، ملامح أبي ذاهبة إلى زوال، صورتي وسط العائلة، أبي يشير إلى دلالة صورة وهي تودع فقيدها المعارض.

زمن دفعتنا فيه أوهام الأحزاب وغضبنا العاصف حتى الصميم. مع ذلك وقبل أن أرتحل وأبي، الذي سبقني إلى رحيل من نوع خاص، هو الآن يمكث بخلوته، بينما أنا كدت أدمر نفسي بانتظام هانئ.

كما لو أنني أعمل على تأسيس مدفني، أوزع صوري وقصاصات الجرائد إلى صغيرتين تركتهما بأعمار تحتاج إلى أبوة أكثر من أي ثروة.

مع ذلك أسأل، سألت أبي قبل أن يتجه إلى خلوته، قبل أن يلتحف غيمة الرحيل:

– أبي، أين هي الجهات كي تصلي؟

القاص الصموت، الأصفر الشاحب أكثر مني، لم يخف مؤازرته حين سُئلت في مقهى عن جدوى مشروع ثقافي يحاول في هذا العصر الذهبي الأكيد.

لم أجد في حينها ما يؤسس أجوبة مقنعة سوى أنني أحتد كعادتي، وغيرة مغالية إذ لم أجد ما يؤهل أي جهة لتحمل أمزجة ونزعات شعراء في هذا العالم الرحب، رحابته التي لا تتسع لملائكةٍ من لغة وزئبق.

– لم تهدأ رجفة عيني، وسكينة اللحظة كانت أقوى من الصراخ الذي وجدتني أمارسه/ كما لو أنني أهدد نفسي الخربة وأقود هاويتي.

وحقيقة أخرى، بل حقائق ممرغة في ذاكرة مائية كما المرأة التي لم تتعلم لثغ اسمي، غادرت وسؤالها يمارس اغتياله لي في كل لحظة، هو ذات السؤال الذي قادني إلى قراءة العالم ومن أحبهم من جديد.

أسأل كما في كل لحظة، كما لو أنني منذ أعوام أسأل: مدينتي، كم الساعة في هذه اللحظة؟ ما ذكرته كان خارج الجلسة، كنت أخمن بنفسي، الطاولة المستديرة، الأربعة والخامس الذي يتقطر معرفة وأنا لست بينهم، كنت أعمل على تسوية شأن آخر، ولم تكن لتلك الجلسة علاقةٌ بما كنت أخمن، لكنني لم أقتنع أنني أكثر قسوة منكم عليَّ.

وما أوردته كان بعد اتصال المسرحي والقاص الصموت الحرج مثل ظلال.

عن بعض مذكرات احتجاج، وامرأة تقودنا إلى النور.

لا بأس، سأعود لأتذكر، حيث أكون بلا ذاكرة، أتذكر فحسب، وجهي الطفولي/ استدارته آنذاك، العيون الواسعة التي تمسك الحياة بكل ما فيها، تنبت بعض شعيرات على ذقني إلى أن جعلت من وجهي شكلا يشبه وجه جدي.

– **(تروتسكي)** كان جدي، هو لا يعرفني، لكنني أستنسخه وأقوّله كما لو أنه يدري.

وهكذا، مثل كثيرين من أبناء بلادي، حملت الحياة على كتفي. بعض مذكرات احتجاج أخفيها بين كتبي المدرسية، قلما كان يسألني أبي عن جدوى تلك الأوراق، قرأتها بصدق بالغ بينما الحياة تسير باتجاه آخر!

وحدها كانت امرأة كانت تقودنا إلى النور، تخرج من صفحات كتب إلى وعينا الذي يشبه حلم الثورة؛ إذ لم يتعذر الأمر أن يقوم بدورنا نسوة، هكذا دون أي سبب، لكنهن نسوة، يفكرن بالخطب والتصريحات التي تثقب أحلام صغار كانوا في الأمس، لا يشبهون وجوهنا الآن، ونحن لما كنا أبداً بغير أحاديث الثورة المؤججة في دواخلنا، كأن تلك الثورة ستقوم بعد أيام، جميعنا ينحاز للمرأة التي ستقودنا إلى النور.

كنا في عالم أعمى، عالم يفكر بغيره، كنوع من احتراف ألم لمجتمع وبلاد، عالمنا بالمطلق يكره القادة المستبدين، بل المنافقين أعداء المعرفة، الكسالى.

امرأة لا تشبه إلا أنفسنا نقف خلفها كرمز دائم متجدد كان اسمها **(روزا)** لوكسمبورغ.

ثمة من يكره القادة الكسالى إذن، كنا نحن، فالذين "يضعون على أعينهم أكثر من غشاوة " كما أشار **(فيدريكو غارسيا لوركا)** في جملة قرأها حاكم غرناطة من قصاصة صحيفة عثر عليها **(فونسيكا)** المدبر الرئيسي لمقتل **(لوركا)**، و**(لوركا)** أحببناه؛ لما فيه من لغة شفيفة، كما أننا نختلف مع رجل جعل من شاربيه أحجية عصر السرعة يدعى **(سلفادور دالي)**، وهذا الـ (دالي) مجرد واضع تواقيع على أعمال تلامذة يقلدون رسومه، وحده شاطر **(فدريكو لوركا)** وطعن حاسته في إحدى رسائله التي وضعت حدا للعلاقة القائمة على المعرفة والفن في قصر الثقافة هناك.

كما العادة، وبحكم الغيرة التي تستلزمها بعض أشعار **(بابلو نيرودا)**، ثم **(ناظم حكمت)**، وبعض كتابات عن الثورة المتجددة، صراعات **(تروتسكي)** مع قادة الكرملن، نأكل هذه الأخبار ولم نشبع، عن ذلك السحر الذي يحدثه منظّر "الحركة السريالية " (أندريه بروتون)، لم نقرأ **(إيلوار)** و**(آرثر رامبو)** و**(أراغون)**؛ لأن ثمة ما كان يشدّنا لأشعار الثورة إلى أن ماتت فينا ذات الثورة، وبقي الحلم وحده كأنموذج للأمل والثورة الأخرى.

عالم النفس الذي أحتمه

بعد أعوام ثلاثين، وأعجب فيه أكثر حين أنظر إليه من شذرات نفسي وأخمنه بدقة، لكن، ثمة ما يهرول بسري، غير أنني ألوذ بلعثمة أمام حياة غيري، وقد يكون لي مع هذه النفس عذوبة أفتقدها.

أو أنني راو يتكلم عن ساديّته، بينما ينحو وفق ما تقتضيه سجيّة اللحظة، لحظة ولوج نار حلم وبعض كتابة.

لم تكن الرؤية كما ينبغي، لكن سأفعل بشكل مقارب لدور صديقي عالم النفس، النصّاح الخلوق لـ **(ونيسي)** صاحب قصيدة (أورشليم). أتذكر وجهه المائل إلى نفسي كأني عجوز لم يعش طفولته في مدينة خارج الأمل.

عالم النفس الذي أحتِّم عليه أن يروي على سيرتي، أعلمه وصفتي الأقرب إلى خرابي الهانئ، من شذرات تلمسني، ولم أكن أبداً بالقرب من نفسي، عالم النفس يقرأ رسائلي إليَّ، وأنا لا أتذكر متى كتبتها!

كما لو أنني هرمت حقّاً.

أو أنني إزاء موت أوقظه في صباح متأخر؛ لأجد على حائط غرفتي العالية التي تحد السماء صوراً ونعوت. شهداء وقديسين، وجهي سيكون على ذات الحائط إذن.

لأعد إلى القصيدة الخالدة التي لا تُكتَب إلا في حياة خارج الحياة لتعود محملة بحفيف أوراق الموتى، وأكفان البريد التافه والصمغ البني النافر.

حفيف رسائلي إلى العالم

بعد أعوام ثلاثين، ما برحتها إلا للتشرد والخوف من الأمل الذي يسكنني، كان على أن أبارح وفق ما تقودني خطاي شرق هذا العالم العصي قُبيل "**تشيرنوبل**" بالوجهة التي تحد "رومانيا " كما لو أنني لا أريد تبياناً ما، عالم آخر يتمظهر بلبوس وخلاص وعدالة ما بعد التجربة الشيوعية يوم عودة اليسار إلى مأزقه وكأن شيئاً لم يحدث.

وجهة أخرى من الألم، أكثر فتنة، أفتن بطبعي وأميل إلى الألم، لعله الأقرب إلى نفسي، بذات الغفلة التي دفعتني لكي أغادر إلى "مرسين" العاصمة السياحية لمجانين الشرق، ثم أُعتقَل فور وصولي مع جماعة "**حيدر كوتلو**" و"**نهاد سرغين**"، وصحبة امرأة يعود تاريخها إلى "**حزب تودة**" الذي مات منذ زمن بعيد. لم تكن سوى بعض أسباب تؤهلني كي أدخل مشفى "غول باش" في تركيا، هناك تحولت إلى خُلد خلوق يحن إلى أمومة مستحيلة، بحثت عن "دونا" فلم أجد سوى طابور طويل من عيون ومعتوهين سأكون هنا أكثر ميلاً لتأملهم، وعبرهم عرفت كيف أنتبه إلى نسبة الأدوية التي تحيلني إلى فناء آدمي، فناء يلازم أمنا "دونا" شاخ جسدها كما شاخ جسدي بعد ما أعلن أول انهياره.

هنا في موسكو سيكون عليَّ أن أحدد ما ينبغي تبيانه بصحبة جسدي الذي يزول في هدنته، لم يكن إلا جسداً في طريقه إلى زوال، زوال يخمن مشهداً يدخل ألفية ثالثة، يودع الرؤيا والقصيدة، مجرداً من أسلحة المقاومة وأسرار البقاء.

إلى الرؤيا أحن، لكن النفس جبارة، أغرم بنفسي وأميل إلى بعض نزواتها. في الرؤية أمعن طيش الذئاب وأنتبه لأصبو صبابة من يرمق الجحيم، ومن وردة أموت، أنثر أوراقي التي تقود إلى هدر الجسد والثروة التي منذ الأزل أفلست كما أفلست الأفكار في الشرق العربي، في الغرب الأوروبي، في شمال العالم وجنوبه العتيد – **جنوب القلب يموت العالم** – من العصيان، إلى النفس الخربة.

من الأمل المخنوق عبر صداقات متبقية، حيث جميع الصحب في علبة بريد أفتحه بحرارة الإثم الرحيم، والنشوة التي ضَلت، والهلاك الذي يؤنسني عن قرب.

أمر عبر رجمي في هذا المدفن الثلجي الباهر، قارة البؤس الأحمر، سيكون الشعر أكثر طهارة مما تلوثه نبوءة أبطال واهمين في عالم واطئ مخذول، عالم نخسره بانتظام.

جنة الجحيم

بقوة ستحط الحكاية، كما لو أنها لا تقترن بسياق هرم، أو أنني معها أهرم، وألوذ بما تبقى من كلام آخر كي لا أقع فيما قلته في ليلة غير هذه الليلة، ليلة تقرن بالزهو والبلاء حين أفلست من خلوات الأمل، وعبر صداقات المشروع الشعري الواحد، كما كنت أحسب أنني أردت أن يكون الأمر كذلك.

لا فرق على أي حال؛ فالحياة خارج الشعر، حيث التفاصيل، هذه الحياة على الأغلب لم أتمثلها حتى في نومي.

بقوة سيكتشف كثيرون أنهم هزموا مثلي. على الرغم من أنه ما زال في العروق ينبض دم الفتية وجمر الشباب. من الأمل الذي يربطني فيهم، أغادر، ومن ثم أتابع لتجمعني معهم لقاءات بعيدة. ومن ثم سيكون البريد التافه الذي يمشي كما السلحفاة وسيلة أفضل بيننا.

وأغادر خلسة ذات مرة، أتَّجه بعدها إلى "أنقرة" عبر حدود متاخمة للبلاد التي سيكون لي معها منامات في الشعر كما في الكتابة، ومن القسوة التي بدأتها في "دمشق" وعبر صحافة فلسطينية كانت أولى الرسائل التي أخطها لنفسي، ربما لشيء من الهجر الذي أعيشه في جهة العبور والأمل المتبقي في آخر هوامش التعبير – **بيروت** –، وأستقرُّ في هذه الأخيرة بضعة شهور، ثم أغادر بدافع الزهد إلى "قبرص اليونانية" وأُطرَد كبقية الأمل؛ فأعود ثانية حيث غادرت لأزج في جهة جنوبية تحاذي "**درب السيم**" قرب مقبرة الشهداء والقديسين، هناك كانت نهاية الشاعر **(آدم حاتم)**، ثم أنتقل، لمرات كبقية القطعان إلى "مجدليون" شرق صيدا إلى "**مراح الحباس**"، بل في المنطقة المتاخمة لها أيام عز المليشيات، هناك قرأت كتاب "الإنسان .. ذلك المجهول " لـ **(أليكس كاريل)**. ويا للمفارقة هذه.

أنتقل كبقية الذين تربطهم أفكار وقناعات، تلك "القناعات" حطت بنا كأي رهان خاسر في زمن ما ملكنا فيه شيئاً، وما وجدنا فيه أنفسنا.

زمننا وجيلنا الخاسر، نحدو بما قدر لنا من أفكار بإيمان شارد كنا نؤدلج جنة الجحيم، كأي مارقين على خطاب عالم ضاق بنا في حين أننا ما عرفنا فاصلة الموت وما بدأنا الكتابة.

العاصمة الأبدية التي أرسمها كانت في مكان آخر قد نودعها بأرصدة الحوض المتوسط، أو أنها تبدو كملاذ آخر، بل سقف حياة نتلذذ ببعدها، من سطوة الوقت الذي أحالنا إلى قصاصات ملوثة بحياة آخرين، ناسياً كما الفناء أسير خارج نفسي في خراب يؤطرها نار الهشيم.

لا بد أن تكون بذلك ضربة قاتلة، كسكين على جسد اللوحة، وأنا الذي يتأمل اللوحة، وحدي أكشف أضرحة وتماثيل يقدسها الراجمون حتفي.

لعله من دواعي اللحظة أن تلج في التأمل.

حيث الراوي رائيًا للأشياء يفتت الصمت والفكرة التي تغادر فور طرحها، وتبقى القشور البائنة كواتم تنتظر حافزًا ينسكب دفعة واحدة وكثيفة.

كما أراد أن يقول صديقي عالم النفس، يروي عن مخرج أفلام بقي في حيرة بين أن تكون مادته خارج الصالة أو الرقص كقياصرة اللحظة وما أقلهم؟ فوق المطر، لا تحته، على مرمى الوشاة، ثمة أرشيف يكتظ بكحل الليل ومدينة لا أحلام فيها.

إذا أمكنني أن أتمثل أحوال المركز المتداعي الأطراف، إذ عليه أن يلوذ بعالم لا كحل فيه، لا حياة تئد الرؤيا، رؤيا ما سميتها غير التأمل.

بينما الآخرون، ولست منهم، أتأملهم خشية السقوط، حب يكسوه ثلج وخفقة طيور ذبيحة، طيور مسروقة من ساحة كبرى، من قصر لم يعد يحتوي على نجوم ثورة أو فتات حتى عشية ذبحها.

الذي أفترض، أو أنني أحب افتراضه، ونزوعي إليه، مخرجاً سينمائيّاً، مُعد سيناريو، متأملا مشروعاً روائيّاً تسكنه حجة صمتي . صموت وجهي . أنفض عنه غبار أمكنة، أمكنة تهرول أمامي في بلاد حولت كل شيء إلى خردة.

إذن غادرت العاصمة، بعد أن غادرتني، كتبت مطولاً فور وصولي رسالة تقدر بأربع عشرة صفحة شاكست بواحدة من تلك الصفحات.

(كنتِ روحاً تبحث عن مسافة أخرى، ولأن البُعد الذي أرصدهُ لن يتحقق، أهرب من ذاكرتي).

في أحايين أخر أفكر بصياغة نفسي، أفكر أن تبعدي الورقة التي بين يديك مسافة، أي بعد وضع مرآة توازي المسافة ذاتها، وقتها يمكنك قراءة ما سوف أكتبه معكوساً "مَنْ يوقظَ ذاكرتي" تفيد المفردة بهذا.

وأفيد أنني بلا ذاكرة، أتذكر جسدي المؤوت. لست والأبراج على موعد منتظم؛ لأن معلمتي ليست بالقرب منِّي، لكنني أستمع وأقرأ حركة الإيماء دون جدوى.

ثمة صور مقرونة مع كلام المعلقة الفلكية وهي تدهم حياة البشر ... أسمعها ولا أفهم.

على يقين بفداحة السر الذي تلامسه، بعد أن روج المنجمون لفعلتهم، بل لغاية ما قد تنحو إلى قراءة العالم من جهاته الأخرى.

إذ لم أكن أدري أنه سيكون لبرج السرطان أهمية عندي، وحقيقة هذا البرج أتوضحها في ذات الجسد الذي تحول إلى رقم خارج الإحصاء ما برح عنه العدم وما قرأه غيري.

إذن، سرطانياً كان برجها، سرطان على برجها الفاتن، يوقظ زهور النار على جسدي، برجها الموسوم بفداحة الخوف الآسر.

كما الغياب حين يؤسس حياة داكنة، بل رهبة تقصي الجسد خارج المغامرة. أجثو كثوري كسير وفكرة تائبة عن جسد يسير إلى زوال.

عرفت أنها قرأت نصف ما عنيته عن حبيبتي المستشرقة، وفق ما مكنني السرد ولعثمة حروفي، ههنا، ما زلت ألبس خوفها، خوف امرأة وعجوز يوزع خرافات كيفما يشاء، ومنذ أيام أتبين نفسي، حين غادرت **(مرسيليا)** هذا الزمن القصير، وأبدو إزاء نفسي قبل أربعين عاماً، قبل سقوط الحلم، وقبل أن يتكسر وجهي في هذه اللحظة.

متنا غيرة، غيرة من يهتف، عاشت البلاد وماتت الثورة، بين أن نكون يتامى، بين أن يتهاوى الملاك، سأكرر شكلي بينهم.

يؤلمني المصلون والحيارى، أورقت أضرحتنا على زهور الحب، وحدها المغامرة سارت بي، لكنني حدودها الأخيرة.

وحدي أهدد حياتي، أمسك السر عني، إذ لم أكن يوماً في أي اتجاه غير الدلالة، تسكنني دون اتجاه يحده ارتهان، كما اليتامى بعد أن تهاوى آخر ملاك يشبه شكل جدي، جدي الذي كنت أتشبه بزواله، منذ أزل العالم، منذ أن ماتت الرغبة، وطافت جثث هذا الكلام الأخير.

لم أرغب باسمي لأنه يدل ولا يتجه، يدل على نزعة بائنة، بينما أغرق باتجاه يتناسل، أهرول كما لو أنني لا أدري، الحياة خلفي، لا دلالة غير التوبة، متجهاً، أو هكذا لمحت نفسي.

إلى ماء الرغبة أتجه، قبل أن تجف الرغبة، ما من حيلة ضد النفس أو ما تبقى من ماء الرغبة.

كل شيء هنا شامخ إلا الرؤوس محنية

جسد النار إلى زوال يمضي

جسد يجثو في مرسيليا

النار تزهره

بينما أزول

خارج الجسد أزول.

الظلال واقفة وأزول

لم أكن بصحبة حزانى مضوا

ما مضوا يوماً معي.

حزانى تركوا الرغاب

تذيبني رغاب الإثم الأليم

رغاب ضد النفس قبل أن تهلك.

كما أبي أوزع عبير المسك في عنتاب

مثلكم أيام زمان

روحي لا تحدني

خارج المغامرة أنوء

بعد أن هجرني كلام أخير

غدوت مجرد حاصد عتب

وفكرة منذ أزل.

كرات ثلج وشمس ترتجف

أمّا قبل ... كان من دواعي الأمور أن ينهدم حيلي وأغيب لفترة عن نفسي، بقسوة مميتة أغيب عن نفسي، هزتني تلك الأيام في الأواخر من ذاك العام.

بعض أصحاب وصداقات أمكنتني من احتمال فظاعة ما تهدم فيَّ، أعود بعد هدنة إلى صياغة مختلفة لما بدأته، لكن، ثمة ما خالجني من شعور في قطار يقلني من مينسك إلى **موسكو**، وكان شرط كتابة هذا النص، كصياغة نفس تحدثني، فكان أغلبه مُنجزاً بنمط حياتي، كان ذلك حين أفلسني العالم من ممكن الأشياء **(الأحلام كانت من هذه الأشياء؛ لذا أبدو كمن يحلم حياته ولا يعيشها)** .

كما لو أنني لست من شرق العالم، أتبارك بنار باردة، وأسأل بخوف جلي، إن كان هذا الاختلاف المكاني قد أسس فيَّ هدنة مع نفسي، أم أنني أقصيت الروح والجسد في بعد آخر للنفي؟

ومع النفي الذي ألمس معالمه في موسكو؛ حيث أفترض صياغة ما تهدم أعاود النهوض من قارة الثلج الأحمر.

يحيل النص إلى دلالات رمزية في الموت، كما في الكتابة حيث أخرج من تجربة مريرة. كنت أتمرن من خلالها على فعل الحرية، إذ لم أمعن النظر إلى العالم بأعين ذئبية.

لعل ذلك جعلني أن أدعو ما دونته بـ **(هدنة المنفي)**، نفي الذات، أي إشارة لما كان في الأمس ممكناً حيث نجده اليوم عصيّاً أو أنه تبدل.

سيكون أساس ذلك إقصاءات متوالية، هذا إن لم نجدها بمفردة "النفي" عينها فيما لو أخضعنا مفهوم "الهدنة" للاسترسال اللغوي أو التشريح العياني حتى.

فهل نخلص عبر هذه المواجهة (للذات) إلى ما يتوافق مع جيل تحده كهوف تهجس عن إحباط ونفور من الأحلام التي كنا نغسل بها عيوننا؟

ذلك في وقت ينزع إلى تراجع الإيديولوجيات والأفكار، وثمة تشظ لعديد من الأسئلة التي تطال الفلسفات والسياسة، وبعض ما يصدر عن مقترحات تدعو للتجاوز والاختلاف.

نقول ذلك وندرك بأن الأمس لم يطوِ صفحاته بعد، والثابت أيضاً أن هنالك الكثير من المشكلات لم تنضج؛ حيث اكتنف هذا القرن إحالات سيرثها القرن القادم، وحيث تقنيات التكنولوجيا تجعل هذا العالم أشبه بمستعمرة، مع كل هذا سنجد ثورات تخرج على ما يمكننا وصفه بـ (أماكن محرمة من الوعي)؛ لأن المعرفة والعلوم والفلسفات مليئة بالشك حد اليقين.

ذهبت الأحلام التي أخذت على عاتقها رهانات ذلك الجيل لتستمر بأكثر إثارة يتطلبها عصر التحولات .. عصر صناعة الإنسان.

بدوت خارجاً لتوي كي أعاود قراءة العالم بأعين نظيفة؛ لأن سمات جيل مضى ما زالت تلازمني، وأحسب ذلك ليس بالهين.

لأستمر إذن، بعد أن غيّبَ "المرض" ما قدر لي من نفي للذات عن مكانها الذي ينوس منذ أزل، وكي لا أستعجل كتابة رسائل إلى نفسي، عليَّ أن أتوصل إلى هدنة حقيقية.

لهذا الغرض ربما تبدل الاسم الأول لكتاب **زهور النار**، أسوة بما تحدثها النفس لا كما تفرضها شروط السرد ولغة المنفى الأليم.

- ***أمكنة السرد: من الألف الثاني في جمهوريات الكومنولث تم هذا النص بعد أن بدأته بمدينة غومل في نيسان 1995. كتبته مجدداً في الأواخر من ذات العام في موسكو.***

أوراق الترجمة

سورية بين الثورات والتدخلات

أكرام كاشي – جيروم ماكورانت

ترجمة وتقديم: إبراهيم المحمود

المقدمة: ماذا يقدّمه لنا مقال مكتوب عن مسارات سورية: الدولة، المجتمع، والثقافة فيها، وقبل خمس سنوات، وهي تعيش حروباً عدّة داخلاً وخارجاً، وها قد تضاعفت المدة الزمنية، وظهرت تغيّرات أو تحولات نوعية، في مجمل ما ذكرت؟

إن هذا المقال الطويل نسبياً، أبعد ما يكون عما هو آني، عما هو إعلامي، منبري، أو صحافي، ومكتوب على عجالة. كما هو المستقّرأ من أسلوب كتابته، وطريقة تناوله للموضوع. لا حكْم في الموضوع. جهة المقرّر هنا، إن قراءته هي المحك، لمعرفة تاريخية المقال هذا، والصفة المعرفية التي تعرّف به من أوله إلى آخره. إنه يقدّم نفسه بنفسه.

نص المقال

سورية هي الدولة العربية الأكثر تضررا من العنف. أكثر من كلمة "ثورة"، هي كلمة "حرب" التي تتبادر إلى الذهن على الفور في عام 2015. ومع ذلك، في البداية، كان الاحتجاج ضد النظام سلميًا في الأساس. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى النجاح الذي لا يمكن إنكاره لنظام نجح في عسكرة التمرد في التعامل مع القضية السياسية بأسلوب بوليسي أو عسكري. وهكذا، فإن طبيعتها متعددة الأوجه في الأصل قد أفسحت المجال لمنطق الاستقطاب والتطرف الذي يهدد جوهر المجتمع. والتدخل الأجنبي، الذي تطور بمساعدة نشطة من النظام الحريص على بناء أعداء مفيدين، دفع العديد من المعلقين إلى إنكار الطابع الثوري للزمن الذي مر به في سورية. وصحيح أن بعض المتخصصين، المتميزين بتقاليد استشراقية معينة، يجدون صعوبة في تصديق أن العالم العربي يمكن أن يشهد ثورات حقيقية بالمعنى الذي يعرفه بها الغرب منذ ثلاثة قرون،إذ إن المكونات الحاسمة لهذه الثورات، مثل المساواة أو استقلال فردي معين، لم تكن موجودة بعد، في العالم العربي المعاصر عملياً. وتتفق الثقافة الاستشراقية، بالطبع، على الاعتراف بأن الانتفاضات يمكن أن تنتج عن الإهانة التي تحافظ فيها دول معينة على شعوبها ؛ كما يمكن أيضًا اعتبار الافتقار إلى الحد الأدنى من إعادة توزيع ثمرات النمو الاقتصادي سببًا للثورات. لكن حجم الأحداث في سورية، على وجه الخصوص، يشير، في هذا المنظور، إلى تسليط الضوء على عوامل خاصة بالمجتمعات الشرقية، مثل الطائفية أو نفاذها إلى التأثيرات الأجنبية. ووفقاً لهذه الفرضية، فإن اندلاع الحرب لن يؤدي إلا إلى تجسيد للمشاعر الطائفية العنيفة المدفونة حتى ذلك الحين. وبالتالي، فإن استياء جزء من السكان، والذي زاد من جراء التدخل الأجنبي المتعدد، سيكون محركًا لثورة ليست ثورة بأي حال من الأحوال. إن إمكانية قيام ديكتاتورية طائفية، والتي يمكن تحديدها في مطالب بعض الثوار، ستكون حقيقة

تمرد لا يثير مسألة التحرر، وبالتالي لن تكون ثورة. ومن ناحية أخرى، فإن أطروحتنا هي أن التمرد السوري له معنى ثوري عميق، أي إن السؤال السياسي المركزي هو في الأصل مسألة التحرر الجماعي والفردي. لذا فإن المسألة السورية هي في الأساس مسألة ثورية. ولا يمكن العثور على أصلها في الإطار القديم للطائفية أو في سياسات القوى، حتى لو كان النمط يعيد تنشيط العالم القديم المتدهور من أجل التمكن من الاستمرار. لهذا نرى أن اندلاع الطائفية يظهر سياسة الثورة المضادة وليس الحقيقة العميقة للثورة. ومع ذلك، فإن ما لن تتمكن الثورة المضادة على الأرجح من محوه، حتى لو انتصرت، هو الفكرة المشتركة في أعماق المجتمع، وهي أن الأحداث قد دمَّرت كل استمرارية بين الماضي والمستقبل، وهذه هي الفكرة الثورية نفسها،. في الجزء الأول المخصص للإيديولوجيا، سنناقش فكرة أن الثورة لم تحدث، لا في سورية ولا في أي مكان آخر. ووفقاً لهذا التصور الاستشراقي، ينحصر العربي أساساً في إنسان متدين، وهو نموذج ميرسيا إلياد، الذي يظل غريبًا عن فكرة الثورة. وتتناغم هذه الفرضية مع مفهوم اعتذاري لبعض الأنظمة العربية والإسلامية، والتي بموجبها لا تنازعها شعوبها جذريًا طالما أنها ليست تابعة للغرب. وبالتالي سيكون هناك طرق فريدة تتكيف مع روح بعض الشعوب، سواء في سورية أو في دول عربية أخرى أو في إيران. وفي الجزء الثاني الأكثر اجتماعية، سنعيد التأكيد على الواقع الثوري الذي نريد إخفاءه. وفي هذا الصدد، من الضروري مناقشة العمل الثري والمختصر للغاية لميشيل سورات Michel Seurat" عالم اجتماع فرنسي، اغتاله حزب الله في بيروت سنة 1986. المترجم "، الذي استخدم تصنيفات ماركسية لقلبها ضد نفسها، والذي انضم في النهاية إلى تحليل الإخوان المسلمين.

استحالة قيام الثورة العربية تبعاً لفكر الاستشراق L’impossibilité de la révolution arabe selon l’idéologie orientaliste

تتعارض الإشارة ذاتها إلى "الثورات العربية" مع اتجاه الرأي الذي يتجلى أكثر فأكثر في الدوائر التي تدعي أنها تعلمت أو علِمت بمجتمعات الشرق الأوسط. وتنتشر الأطروحة بأنه لا توجد ثورات في العالم العربي. والنقطة المركزية في هذه الحجة هي أن الاختلافات الثقافية مهمة: فالمطالبة بالمساواة ليست أساسية كما هي في الغرب. وبالتالي، فإن الفشل في تلبية مطلب الكرامة، كما رأينا في تونس، سيكون عاملاً أكثر حسماً في العمل في الحركات الاجتماعية. ولم يكن خطأ الأنظمة القديمة تجاهل المطالبة بالمساواة، وهي قيمة غربية، بل رفْضها لشرائح كاملة من السكان الاعتراف بمكان يسمح بحياة كريمة، حتى وإن كانت تلك متواضعة. ووفقًا لهذه الفرضية، ليس الاحتكار السياسي هو الذي سيكون مشكلة في هذه المجتمعات، حيث إن إساءة استخدام السلطة المعممة تحوّل سلطة استبدادية – ولكنها في الأصل شرعية جدًا (حالة مصر الناصرية) – إلى استبداد بسيط. والذي يضاف إليه دور العشائر le règne des clans. وبالتالي، فإن الثورة العربية المعاصرة سوف تشبه إلى حد بعيد المجلات التي تعود إلى القرون الوسطى، والتي غالبًا ما ينكر المرء صفة الطبقة، مع التأكيد على أن هذه التمردات في ذلك الوقت لم تكن تهدف إلى الإطاحة بالإقطاع، بل رفض الانتهاكات الوحيدة التي ألقت بها جماهير فلاحي الغرب في إهانة. وفي بعض النواحي، يشير هذا النهج الضمني الذي يركز على أوروبا تجاه الثورة إلى "التاريخ الفلسفي للثورات"، على حد تعبير آلان بيزانكون "2"، والذي ندين به لمارتن ماليا الذي ادَّعى صراحة "المركزية الأوروبية eurocentrisme "، وكتب: " الثورة ظاهرة أوروبية الأصل، كما أن الحضارة الحديثة من صنع أوروبى" " 3 " وهي الموروثة من أعمال توكفيل وويبر، ويضع منهج ماليا Malia الثقافةَ في مركز فهم الثورات. ومن وجهة النظر هذه، فإن الحقيقة الجوهرية هي أن "العالم الغربي فقط [...] قد عرف السياسة التشاركية والتفكير القانوني والفلسفي الذي ينطوي عليه ذلك" (المرجع نفسه). وبالتالي فإن الإمكانية الثورية ستكون نتاجًا ثقافيًا يفترض مسبقًا شرطين آخرين، أحدهما سياسي والآخر ديني. وبادئ ذي بدء، يجب أن تكون هناك "دولة وحدوية

تركز كل الاحتجاجات السياسية والاجتماعية" (المرجع نفسه، ص 18)، مما يفتح الباب أمام انهيار محتمل للنظام القديم، ومطلب ديني معين، لأن " الراديكالية "هنا أدناه مستمدة من الإيمان بالعالم الآخر" (ص 23). وهكذا حدثت أول ثورة تسمى "هوسيت" (1415–1436) في بوهيميا في إطار دولة موحدة ومفتوحة (ص83-85)، في حين نشأت مسألة مشاركة الجميع في الخلاص، ما تحرمه الكنيسة الكاثوليكية الفاسدة. وهذا الاستحضار لعمل ماليا ليس المقصود هنا استبعاده فورًا على أساس افتراضاته المسبقة: إننا نتحدث هنا عن نموذج يجب مناقشته. ويمكن القول بالتأكيد، بالاعتماد على هذا النموذج، أن الانتصار الإسلامي الظاهر، "شتاء الثورات العربية hiver des révolutions arabes " المفترض، يظهر ببساطة واقع المجتمعات غير المنفتحة على التاريخ. لكن بالعكس، حتى لو اعترفنا مع المفكر السوري صادق جلال العظم، أن الحداثة حقيقة غربية، في أصلها، كما أكدها ماركس، فهذا لا يعني شيئًا، حسنٌ، على العكس من ذلك، تمسّك بـ "الاستشراق الوجودي 4 " " orientalisme ontologique " لبرنارد لويس. وكان ماركس، في الواقع، تاريخياً جذرياً (العظم، ص 164)، ويمكنه من وجهة النظر هذه أن يؤكد أن الحداثة كانت حقيقة قابلة للتعميم تماماً " 5 ". ويحدد: "تأويل ماركس للتاريخ البشري بأنه تميز، في أصله، ببعد مسيحاني messianique" المسيحانية، هي الإيمان بظهور، أو مجيء المسيح المنتظر، لإحقاق العدل. المترجم " ورومانسي يطبق على الغرب قبل فترة طويلة من انتشاره إلى الشرق" (المرجع نفسه، ص 165). باختصار، مهما كان رأي المرء في الماضي، فإن المسيحانية الثورية هي مصلحة عامة أو سيئة للبشرية.

علاوة على ذلك، فإن التنوع المذهبي للمجتمعات، كما يتم التعبير عنه في لبنان أو سورية، سيمنع اندماج الأحداث الجارية في الثورات التي حدثت في الغرب، بما في ذلك روسيا، منذ قرنين. ولا يمكن اعتبار الرغبة في الانتقام من جانب جزء من المجتمع، أحيانًا في الأغلبية majoritaire، من أقلية طائفية minorité confessionnelle

مصادرة السلطة، رغبة ثورية حقيقية. لذا، فإنه باستثناء التلاعب بالألفاظ التي تعلم أن الثورة هي العودة إلى الأصل، فإن إعادة الهيمنة الطائفية على المجتمع بأسره لا تشكل ثورة حقيقية. ومن هذا المنظور، يعكس النظام السياسي السوري، بلا شك، توازنًا اجتماعيًا يكون لكل طائفة مكان فيه. ومن وجهة النظر هذه، لن تكون شخصية بشار الأسد شخصية طاغية بل على العكس من ذلك صورة السياسة الوحيدة الممكنة، باستثناء الرغبة في الحرب الأهلية، أو حتى الإبادة الجماعية المحتملة. وبهذا المعنى، يجب أن نسمع بشكل أفضل صوت جزء صغير من الرأي العام السوري: سيواجه الأسد مؤامرة تحاك في الخارج، والعديد من القوى لم تتسامح مع معاداة الصهيونية من قبل نظامه. ولذلك، ليس النظام بل المجتمع السوري هو الذي نرغب في إضعافه على المدى الطويل، كما كان الحال في العراق بين عامي 1991 و 2003. وستعبّر قوة الأسديْن Le pouvoir assadien عن الحالة الطبيعية لقوة الشرق الأوسط بأنها دون معنى insensé . وللمواجهة وجهاً لوجه، باستثناء أن يكون لديك تصميمات أخرى غير إصلاح المجتمع بشكل إيجابي. ولاحظ، هنا، أن ثمة جوهرًا منطقيًا لاستحضار المؤامرات: يجب أن يكون المرء ساذجًا جدًا أو فاقدًا للذاكرة حتى لا يرى العدد المذهل من المؤامرات واسعة النطاق، والتي يُفكر أحيانًا في الخارج، والتي كانت حاسمة في مسرح الشرق الأوسط. ومن اتفاقية سايكس بيكو إلى التلاعبات التي أقنعت صدام حسين بإفلاته من العقاب لغزو الكويت، إلى قضية قناة السويس، هناك أمثلة كثيرة. ومن نواحٍ عديدة، تعد المؤامرة جزءًا من فن السياسة، على الرغم من أن تعقيد العالم، الذي يستمر في النمو في ترابطات العالم العالمي، يمكن أن يعزز الميل للكشف عن مكائد غير محتملة. ولا يوجد شيء شرق أوسطي على وجه التحديد حول هذا النزوع الخيلائيpropension paranoïaque. إنها ثمرة حالة الإنسان ما بعد الحداثة، حالة الإنسانية التي تعرضت للشفافية التي أنتجتها الرأسمالية المتأخرة التي وصفها فريدريك جيمسون " 6 ". ومع ذلك، فإنه لا يمكن اختزال أي تحليل ينسب دوره إلى التعتيم والمناورة إلى وهم المؤامرة، باستثناء إنكار أي فعالية للفعل الجماعي أو الفردي من

حيث المبدأ. التاريخ، باستثناء دفن السياسة بحكم الأمر الواقع باسم البنى. وهذا هو السبب في أنه يبدو لنا أن التحليل التفصيلي للوضع الملموس فقط هو الذي يمكن أن يفك شبكة التحديدات، وفقًا لنهج علم الاجتماع العام الذي يعطي كل تماسكها وزمنها للأنظمة التأسيسية للمجتمع التي هي اقتصادية، والسياسة والرمزية. ومع ذلك، فإنه نظراً لتغيُّر الأحداث، يزداد الجدل بشكل متزايد على أن الأسد لا يمكن الاستغناء عنه. لذلك نصل إلى إضفاء الشرعية على ديكتاتورية ستكون أفضل ما في جميع العوالم الممكنة. ونظرًا للاختلافات الدينية العلمانية، لا يمكن للشرق الأوسط أن يدخل عصرًا سياسيًا مناسبًا، إذا حددت السياسة ما يشير إلى الصراعات التي لا تزال مفتوحة على نسيج المجتمع. ومن وجهة النظر هذه، من المناسب انتقاد الخُطب التي تؤكد على وجود اختلاف جوهري بين الشرق العربي وأوروبا الغربية، وهو اختلاف لا يمكن لأي شيء في التاريخ أن يقوضه – الرأسمالية والتجارة والهجرة– لهذا السبب، كما سنعود إليه، لا يمكن استخدام عمل ميشيل سورات بدون احتياطات، ورغم أن كتابه عن سورية. إن حالة البربرية، التي من الواضح أنها محفزة، لا يمكن جعلها مرجعية مقدسة " 7 ". وليس من المعقول اليوم، بغضّ النظر عن مدى صحة بعض البديهيات التي تم تطويرها بمواد من أواخر السبعينيات، الرجوع إلى السياسة السورية حول هذا التفرد في الشرق الأوسط للطائفية. فقط لأن السوريين ليسوا أمثال جاك الحداثي، مهما كان الحكم الذي يحمله المرء على الجاكيات القديمة، ولكن الرجال يعيشون في نظام انفتح على أشكال من الرأسمالية التي هي بدورها معولمة mondialisé .

هناك ادعاء شائع آخر نريد مناقشته: تأثُّرُ العالم العربي مؤخرًا بحركات التمرد insurrections أكثر من تأثره بالثورات بالمعنى الذي يعرفه بها الغرب. ومع ذلك، يقترحُ أن الشرق الإسلامي قد شهد ثورة حقيقية: الانتفاضة التي أطاحت بالشاه. في اللحظة الخمينية عندما يندمج الجمهور في كتلة مضغوطة ويلقون بأنفسهم في المعركة بمجرد أن يعطي رمز هذه الثورة، شخص الخميني، النظام، سيكون تعبيراً عن نقاء العملية الثورية. وإذا تبنّى المرء معايير شديدة الصعوبة لمَا يجب أن يتخذ الشكل

الثوري، فإن العالم العربي لم يعرف ثورة مؤخراً، على عكس إيران، حتى لو ظل الدين من هذا المنظور هو السر المشترك لخلود السماء الشرقية " 9 ". في الواقع، يجب أن تمنع المعايير شديدة التقييد أي شخص يتحدث أيضًا عن الثورة الفرنسية أو الروسية، لأن الثورة غالبًا ما كانت ظاهرة طويلة الأمد، تؤثر على الجسم الاجتماعي بطريقة مختلفة. وعندما استخدم كلمة انتفاضة، حوالي 25 كانون الثاني 2011 في مصر، كلحظة "ديناميكية ثورية"، كان جيلبرت الأشقر " 10 " قريبًا جدًا مما نريد أن نعنيه لسورية في آذار 2011. كما يشير هذا المؤلف، إن هذا "اقتحام الجماهير للحياة السياسية" فريد من نوعه لأنه يزعج "المحافظين من جميع الأطياف (حتى أن هناك من يدعي أنه تقدمي ومعاد للإمبريالية [...]) [الذين] يشوهون الانتفاضات ضد الأنظمة التي يتعرفون عليها، ويصفونها بالفوضى chienlit، عندما لا يرونها ثمرة مؤامرة "" 11 ". في هذا الصدد، يتم اختراع السياسة، بالنسبة لموسى فينلي "12 "، عندما ينكر الناس للنخبة الحق الحصري في سن القانون " 13 " . والآن، عندما تمحو الليبرالية الأوروبية السياسة تدريجيًا، وتذوبها. وفي الإجراءات البحتة، عندما تظهر "المنافسة الحرة وغير المشوهة" على واجهة دستور لأوروبا، وتحيل الحرية والمساواة إلى نسيان التاريخ، فإننا ننكر حقيقة اللحظات الثورية. ما الذي يشكل هذا الانقطاع للشعوب العربية في الشئون العامة. إيه يا الزمن المبرمج ويا أعراف Ô tempora, ô mores! !

في الواقع، ليست السيرورة الثورية هي نفسها حسب الأماكن والدوائر الاجتماعية التي يعتبرها المرء. وغالباً ما يكون الحماس للثورة، والعاطفة الجماعية في ذروتها، والخوف الذي يدفع العديد من الأفراد بعيدًا عن الأحداث مختلطًا. وبالطبع، فقد تمت إضافة الرغبة التفاعلية المتوقعة للثورة المضادة، التي أثارها فقدان المراجع التي أمرت بكون رمزي. وشهدت فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر مثل هذه التناقضات، ويمكن القول إن العملية الثورية استمرت حتى نهاية حروب نابليون. أما فيما يتعلق بعدم الاستقرار الاجتماعي للإنجليز، أسيادنا في الحرب الأهلية وقتل الأملاك، فقد استمر حتى

منتصف القرن السابع عشر. لذلك لا يبدو أن الطابع الثوري للحدث السياسي يجب أن يقاس بالسمات المركزية أو الضخمة للحركة، ولا على الأرجح باختصارها. تكمن خصوصية الثورة في أنها تفتح الانقطاع بين ما قبل، حيث كانت السلطة مشروعة، وما بعد ذلك، مما يعرض هذه السلطة للشرعية، ورفض الطاعة، وحتى حمل السلاح. بشكل أعمق، بعيدًا عن أصل الكلمة، فإن ثورة الحديثين هي فكرة أن لا شيء سيكون كما هو مرة أخرى. بهذا المعنى، فإن السوريين، سواء كانوا مقربين من الثوار أو من النظام، يعرفون، ضد بعض العلماء، أن الثورة قد حدثت بالفعل، وأن مجتمعًا آخر سيخرج من مأزق هذه البداية الفوضوية لهذا القرن. السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه بعد ذلك، في رأينا، ليس ما إذا كانت الثورة السورية قد حدثت بالفعل، لأن العالم العربي، منذ الأزل، سينجو من الانقسامات الثورية، ولكن ما إذا كان، كما حدث في إيران أمس.، أو ربما في مصر الآن، سيحدث تحول ثوري Thermidor " وهو الشهر الحادي في التقويم الفرنسي للجمهوري . المترجم "، أي إذا، سيظهر نظام جديد، من الحركة المشتركة للطموح الثوري والثورة المضادة، يمكن استثماره مع شرعية دائمة، بينما تغلق لفترة طويلة الاحتمالات الثورية في أكثر ما لديهم من تحرر.

وكان حصر الإمكانيات التحررية، في أوروبا القرن العشرين، من عمل الفاشية التي دمرت البعد السياسي للوجود الإنساني لصالح توازن القوى الخالص الذي يروي كل مؤانسة. كانت الفاشية هي الثورة السياسية التي وضعت حداً لكل محاولات الثورة أو التحول الاجتماعي " 14 ". لذلك كانت الفاشية هي الثورة المضادة المطلقة: لقد استخدمت الرغبة في ثورة حقيقية لتشكيل شيء مختلف تمامًا. وقد أوضح سلافوي جيجك ببراعة هذا التحويل للطاقة الثورية: "إن الغضب الشديد من المذابح المعادية للسامية هو دليل معاكس لإمكانية قيام ثورة بروليتارية حقيقية: لا يمكن قراءة طاقتها المفرطة إلا كرد فعل للوعي ("اللاوعي") لاحتمال ثوري فاشل "" 15 ". إن النتيجة الأكثر إثارة للقلق والممكنة هي الشعور بالثورة "الفاشلة" (حتى الآن) وفي خضوع الجماهير الخائفة من نفسها لسلطة تمارس باسمها . وفي هذا الصدد، فإن الحالة

السورية هي حاملة للراديكالية الفتاكة أكثر بكثير من الحالة المصرية، لأن القوة الأسدية تمكنت من كبح جماح الطاقة الثورية، وتقسيم الشعب والبدء في تفضيل النظام القديم في اضطرابات حرب لا تنتهي أبداً. ويمكن بعد ذلك ممارسة الرغبة في رد الفعل في كل فائض العنف والقلق الحاضرين. ونحن نعلم، منذ غرامشي، أن وقت الأزمة، الذي يمكن أن يكون طويلاً، هو عندما لا يريد العالم القديم المتدهور أن يموت: فتصبح كل الأمراض الاجتماعية والوحشية ممكنة. وهذا ما تمر به سورية الآن، لأن قوىً جبارة عملت على منع الانتصار الجديد. هذا هو السبب في أن التحول المرعب للأحداث في سورية مع اقتراب ربيع عام 2015 لا يثبت بأي شكل من الأشكال، أطروحةَ استحالة الثورة في ذلك البلد. على العكس من ذلك، فإن الجهادية و "التكفير" هما من أعراض شدة العنف المضاد للثورة " 16 ". ومع ذلك، ففي مواجهة الجِدَّة الثورية على وجه التحديد، أعاد النظام تنشيط الإطار القديم للطائفية وسياسة القوة. ولا توجد حالة طبيعية عربية في هذه الحالة، إنما هناك رغبة في الاستبداد لتعبئة كل الوسائل الممكنة للعودة إلى الوضع السابق. وهل نتذكر أن هذا النظام، خلافًا لنصائح العديد من العلماء، لم يكن قادراً على المقاومة، وأنه فشل في إيجاد المنابع الداخلية التي تسمح له بالتغلب على محنة الثورة؟ يجب أن نتذكر، في الواقع، أنه بدون إسهامات عراقية ولبنانية، وبدون مساعدات ضخمة من إيران وروسيا، كان النظام سينهار. وفي هذا الصدد، ليس من المعقول، كما قيل هنا وهناك، مقارنة الالتزام الخارجي تجاه بيت الأسد بالمساعدات التي يتلقاها مختلف الثوار. وبينما اعتبرت قوتان، إقليمياً وعالميًا، بقاء النظام السوري ذا أهمية استراتيجية كبيرة لهما، لم تتخذ الولايات المتحدة ولا حلفاؤها أو وكلائها مثل هذا القرار. وعندما يتواجد الروس والإيرانيون بشكل مباشر وعلنيّ في مسرح العمليات السوري، يقود الأمريكيون عمليات مسرحية، حتى في حدود السخافة: لنتذكر التهديدات المتعلقة بـ "الخطوط الحمراء lignes rouges " التي قد يشكلها استخدام الأسلحة الكيميائية " 17 " ... علاوة على ذلك، فإن السياسة الحقيقية للولايات المتحدة مبررة بشكل صريح من قبل العديد من الخبراء القلقين، بشأن الوضع الذي قد

يسببه سقوط الأسد. وعلى العكس من ذلك، لا نعلم أن الحكومتين الروسية والإيرانية ومكاتبهما ضاعفتا التحذيرات من انتصار بطلها على نهر العاصي. أما بالنسبة لـ "الإسلامية الدولية internationale islamiste " والقوى من الدرجة الثانية التي تدعمها، فهل يمكننا مقارنة قواتها بجِدية بآلات الدولة القوية والمتشددة والعسكرية؟

المجتمع السوري ما وراء ميشال سورات La société syrienne par-delà Michel Seurat

يجب أن نتذكر أن التمرد السوري كان في الأصل تعدديًا ويعكس مجتمعًا لم يعد من الممكن تحليله وفقًا للشبكة المذهبية، والتي تظل مع ذلك المرجع المركزي للعديد من الشرقيين والمعلقين. وإنما، لكي يتم فهم وجهة النظر هذه، من الضروري أولاً أن ننظر إلى الوراء في عمل تم تطويره منذ أكثر من ثلاثة عقود بواسطة عالم اجتماع ومستعرب موهوب، ميشيل سورات. إن تاريخ الأفكار هو في الواقع جزء من التصور المشترك لسورية المعاصرة. وفي أوائل الثمانينيات، أنهى سورات كتابة النصوص التي جمعت بعد وفاته عام 1986 كرهينة في كتاب بعنوان: سورية. دولة البربرية Syrie. L'État de barbarie " 18 ". يحاول سورات إثبات أن السلطة تستولي عليها جماعة صغيرة من الإسلام الهرطوقي والعلويين المهمشين لفترة طويلة. ويشار إلى من هم في السلطة باسم "المماليك الجدد nouveaux mamelouks " لأن المماليك كانوا هؤلاء الجنود المحترفين، الذين ولدوا وهم في حالة العبودية، والذين اغتصبوا السلطة في النهاية في مصر في العصور الوسطى. ويجب أن تُفهم "دولة البربرية" التي سيكون عليها النظام "العلوي" على أنها انتقام من الصحراء في المدينة أو، بقدر ما نشعر بالقلق هنا، من الجبل (العلوي) على المدينة (السنّية):، بطريقة مشكوك فيها للغاية، للفئات التي أنشأها ابن خلدون في القرن الرابع عشر. الفكرة الحاسمة الأخرى، لـ: "دولة البربري " هي أنها في الشرق العربي، على عكس الغرب، السياسة هي التي تحدد الاقتصاد(سورات، ص 229-231). ويكتب حول دول العالم الثالث، "غالباً ما تكون السيطرة على السلطة

هي التي تسمح باكتساب الثروة وليس العكس كما هو الحال في المجتمعات الغربية" (المرجع نفسه، ص 230– 231). سيكون هذا هو نتيجة الهيمنة الغربية كما كانت تمارس حتى منتصف القرن العشرين. وفي الواقع، فإنه في المجتمعات المجزأة (المرجع نفسه، ص 225) بسبب هذه الهيمنة، المجتمعات التي لا يقابل هشاشتها الداخلية سوى هشاشة خارجية وقاعدتها الاقتصادية متزعزعة، تكون سلطة الدولة. وهي مصدر التماسك الاجتماعي " 19 ". لذلك لا يمكن لدولة الشرق الأوسط أن تكون الجهاز الذي من خلاله يمكن للبرجوازية، التي لا تكاد توجد أو لا تتمتع باستقلال ذاتي، أن تنظم شئونها، كما هو الحال في الغرب، من أجل السيطرة على المجتمع بشكل أفضل " 20 "، بدعم من إنجلز وماركس عام 1847 " 21 ". ولقد رأينا للتو أساس إشكالية سورات بالنسبة لدولة الشرق العربي: إذ تبعاً لوجهة نظره، فإن التمييز بين الغرب والشرق يعتمد بالتالي على طبيعة المجموعة التي تسيطر على الدولة، اقتصاديًا في حالة واحدة. والسياسة في مكان آخر. بعد ذلك يجب التخلي عن "القراءة الماركسية" للشرق، لأن مقاربة الاقتصاديين لن تكون صالحة إلا في الغرب " 22 ". إنما عند القيام بذلك، يرث سورات دائماً قراءة معينة لماركس، والتي بموجبها تكون الدولة أسيرة لمجموعة اجتماعية، وليس في مقدورها أن تجسد، باستثناء الاشتراكية، أي مصلحة تتجاوز أي فجوة اجتماعية clivage social . وهكذا يرفض سورات بوضوح الفرضية القائلة بأن الدولة، كمؤسسة لمجتمع معقد، تفترض أي وظيفة لتجميع المجتمع. وهو يختلف عن أولئك الذين يفترضون أن "الدولة تُفهم دائمًا على أنها مستقلة عن قطاعات المجتمع الأخرى" (1989، ص 231). إن هذا الموقف مفهوم، إنما فيه خلَل، وهو إشكالي للغاية، بسبب تعبيره أحاديّ الجانب، في استبعاد أي عملية تمكين لمجال الدولة، مما قد يعرض قارئ سورات لعدم الاستعداد لفهم تطورات معينة، ذات أهمية في علاقة المجتمع العربي الشرقي بدولته.

علاوة على ذلك، فإن العواقب التي استخلصها سورات من تحليله، لهي غريبة للغاية عندما ربط نتائج بحثه على العالم العربي بالمستوى العالمي. في الواقع، استعان بهنري

لوفيفر ليؤكد أن "الدولة الطرفية تعمل كمنظم للنظام العالمي، وأنها تنظم استخدام قوتها العاملة أو بيع موادها الخام" (المرجع نفسه، ص 232) وفي النهاية، يبقى الاقتصاد حاسمًا للغاية، " في آخر لحظة « en dernière instance " ... إذا تجرأنا على القول! أخيرًا انضم إلى الماركسية الأرثوذكسية في رفض الأطروحات الإيديولوجية المتعلقة بتمكين الدولة. وأخيرًا، يقع الدفاع عن نظام الدول العربية في السبعينيات، سواء أكانت عراقية أم سورية أم سعودية، على عاتق هيئات خارج مجتمعات الأطراف العربية، مثل الدول الرأسمالية أو العديد من علماء الاجتماع الغربيين، هؤلاء، حيث يعتقدون بسذاجة الاعتقاد بأن الدولة العربية هي ناقل التحديث والعقلانية. وكتب سورات، في الواقع، هذه الجملة المذهلة étonnante، فيما يتعلق "بشرعية" الدولة المهددة بـ "صعود الأصولية الدينية la montée de l'intégrisme religieux ": "لا يزال بإمكانه الاعتماد على دعم الباحث و السياسة "(المرجع نفسه). إذن ما هي طبيعة الدولة العربية حسب سورات؟ هيئة خارجية بشكل أساسي لهذه الشركات، وكيل سلبي لإعادة إنتاج رأس المال العالمي، بالتأكيد تخدم بنشاط مصالح جزء صغير من الشركات المعنية. إن تلخيص أطروحة سورات بهذه الطريقة يجعل من الممكن إظهار ضعفه: مثل هذا المفهوم لا يسمح لنا بفهم المسارات الخاصة بالدولتين السورية والعراقية لمدة ثلاثين عامًا. وقد تكون الحالة المصرية أو التونسية في الواقع أكثر توضيحًا لمثل هذه الأطروحة، ولكن على وجه التحديد، فإن المجتمع أو الظواهر الطائفية، التي تفتن سورات، تلعب، في هذين البلدين، دورًا مختلفًا تمامًا. بشكل عام، ليس من الممكن رؤية نظرية مقنعة في سورات لدولة الشرق الأوسط. بالتأكيد، تظل ميزة سورات وأهميتها في إعادة دمج تراث الفتح العربي، في تناول تاريخ هذا الجزء من الشرق، وهو تاريخ الأقليات الدينية العاملة على أسس عرقية 23 " bases ethniques ". في هذه المجتمعات يمكن حشد الموارد السياسية والرمزية التي تجعل الاستيلاء على السلطة ممكناً. والحالة اللبنانية هي خير مثال على ذلك. ومع ذلك، يذهب سورات إلى أبعد من تكييف إطار الفكر الماركسي بذكاء مع الواقع العربي. وقد تناول فئات العصور

الوسطى التي طورها ابن خلدون. وهكذا، فإن العصبية الثلاثية (روح جماعية أو عشائرية) والدعوة والملك (القوة الكلية pouvoir total) يمكن إيجادها في سورية حسب الانتداب الفرنسي " 24 ": " الثالوث الخلدوني triade khaldounienne " الجديد هو "المجتمع العلوي – البعثية – السلطة الكاملة لحافظ الأسد "" 25 ". ويظهر سورات أن فرع حزب البعث Baas ("البعثla résurrection ") في السلطة في دمشق سيكون بحكم الأمر الواقع حزبًا واحدًا يسيطر عليه الضباط العلويون الذين سيجعلونه أداة لغزو الدولة. وفي ظل هذه الظروف، تصبح السياسة بوليسية لأن السلطة في نظر الأغلبية الدينية – العقيدة السنية – غير شرعية. والقومية العربية الراديكالية التي يصرح بها النظام لا تستطيع إخفاء حقيقة أنها شاشة مجتمع منبوذ منذ قرون. وكما تم في ظل الانتداب الفرنسي فتح جميع مدن سورية للعلويين. وبعد قراءة سورات، لم يكن من غير المألوف مقابلة القراء العرب الذين شعروا أنه بينما كان هذا النظام السياسي يقاوم إسرائيل إلى حد ما، فإنه يقاتل أولاً ضد شعبه الذي يخافه قبل كل شيء. وفي الواقع، هذه الأطروحات القليلة منتشرة بشكل كبير في الآراء المطلعة على واقع الشرق الأوسط: في أشكال محدثة وعلمية، تشكل نوعاً من الأرثوذكسية في الفكر حول سورية. ومع ذلك، فقد تم تطوير هذه الأطروحات بمواد من الستينيات والسبعينيات وهي تستند ضمنيًا على افتراض واحد: الخلود المذهبي لسورية. على أي حال، فإن تبديلها البسيط بشكل مماثل في السياق الحالي يطرح مشاكل حساسة. ولفهم سورية اليوم، من الضروري العودة إلى التعابير الأساسية لنقطة سورات وتجاوزها.

هذه القصة القانونية الآن عن سورية لا تخلو بالتأكيد من الفائدة، ولكن من الواضح أنها تظل أسيرة التحيز الذي يرى أن حاضر هذا البلد هو ماضٍ طويل، والذي يجب البحث فيه عن الحقيقة السياسية في التاريخ الجغرافي للاعترافات. لكأن العولمة تجاهلت سورية طيلة عشرين سنة، وكأن النخبة السياسية بقيت مجرد نخبة عسكرية. ومع ذلك، فقد اختلطت البرجوازية السنية، في معظمها، بالمصالح المهيمنة. وهكذا أصبح تحليل قوة الطبقة الحاكمة وفقًا لشبكة طائفية عتيقًا. لذلك، فإن قصة سورات

وأقواله لا تأخذ في الاعتبار حقيقة أن النظام يدافع عن مصالح أولئك الذين أصبحوا أغنياء، بما في ذلك جميع المجتمعات. يحدث كل شيء كما لو أن التحليل الطائفي له فضيلة إخفاء الحقيقة البسيطة للصراع الطبقي. إن الاهتمام السعيد بهذا التنجيم يسمح للمستشرقين والمعلقين بتقليص الصراع الاجتماعي، في سورية كما في الشرق، إلى أصل ثقافي وديني في الأساس، مما يسمح للبعض بتقييم خصوصية موضوع دراستهم و على الآخرين أن يفقدوا أنفسهم في الغريب. وهكذا، فإن استدلال سورات، الذي يجعل المنافسات المذهبية مبدأ الواقع العربي بشكل عام والسوري بشكل خاص، يرتكز على فرضية حاسمة: إعادة إنتاج متطابقة للبنى الاجتماعية. ولبنان هو الدليل القاطع – وهو مؤسف إذ قد يظن البعض! – أن التحديدات العرقية والطائفية تغطي المجال السياسي، وتبقى المشاريع العلمانية من صلاحيات ذلك الجزء من النخبة، الليبرالية أو اليسارية، المحكوم عليها بالتهميش أو النفي. ومع ذلك، فليس من المؤكد أن النموذج اللبناني، الذي أبهر سورات أيضاً، والذي يرتبط بلا شك بـ "الدولة الطائفية " حسب عنوان كتاب لمهدي عامل " 26 "، هو المفتاح الصحيح لقراءة سورية المعاصرة. وفي الواقع، لا يمكن للدولة أن تكون طائفية إلا إذا لم تكن الأمة، كمنظمة سياسية للشعب وكشعور جماعي، موجودة: لن تتسامح دولة، بالمعنى الأوروبي للمصطلح، مع ولاء المواطنين من خلال الاعتراف. فالشعب اللبناني إذن هو كيان إشكالي، بينما الدولة اللبنانية هي شكل من أشكال "الحكم" لمختلف الطوائف، وهي، بطريقة ما، ما بعد حداثية للغاية. ليس من قبيل المصادفة أنه خلال الحقبة السورية في لبنان (1991–2005)، تم حل النزاعات الخطيرة في دمشق، حيث تم حل النزاعات العادية تحت حكم الحاكم العام في لبنان الذي كان نموذجه الأولي غازي كنعان

. لكن من يستطيع أن يقول إن للسوريين العلاقة نفسها مع أمتهم مثل اللبنانيين؟ بالطبع، كما في لبنان، هناك عدد كبير من الطوائف المسيحية. الإسلام مجزأ هنا بين السنة والشيعة، دون احتساب هذه الطوائف العلوية أو الدرزية التي تطلق على نفسها اسم المسلمين عندما تتطلب الظروف السياسية ذلك. ولكن يبدو أن العروبة غالباً –

ولكن ليس دائمًا صحيحًا – تتجاوز هذه الانتماءات، بينما في لبنان، تظل العروبة، حتى يومنا هذا، تعبيراً إيديولوجياً يحمله المسلمون بشكل أساسي. وبالتالي من الممكن أن العلويين – أو يعتبرون كذلك – يفكرون في شراء الأراضي والمباني في جبلهم، على الرغم من أنهم قد يعيشون في دمشق أو على الحدود العراقية. لكن الشعور بالبقاء هو الذي يدفعهم، الخوف المشروع الذي سيضربهم بالانتقام في شكل تسوية طائفية للصفقات، وليس العودة المنشودة إلى "الوطن الأم المشترك Mère–Patrie communautaire". سورية كلها وطنهم مهما ظن بعض المستشرقين أو الإسلاميين. دعونا لا ننسى أن الإخوان المسلمين في سورية، في صراع سابق كان من نوع مجتمعي (1979–1982)، اختلطوا في تمردهم بشعاراتهم المناهضة للعلويين والإرهاب والأعمال المسلحة الكلاسيكية.

بشكل عام، فإن القراءة الطائفية للقوة والأحداث الجارية في سورية غير كافية إلى حد كبير، بل وحتى خاطئة. وفي الواقع،فقد شهد المجتمع العلوي، مع وصول حافظ الأسد إلى السلطة، مسيرة إجبارية نحو المزيد من "التشمس sunnicisation ". حافظ الأسد، كونه حريصًا على إضفاء الشرعية وترسيخ سلطته، منذ السبعينيات، أقام تقاربًا مع الإسلام كأرثوذكسي قدر الإمكان (صلاة عامة في المساجد السنية، الاحتفال بالأعياد الدينية السنية ...). بالإضافة إلى ذلك، بما أن الدستور السوري ينص على أن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مسلمًا، فقد طلب من موسى الصدر إصدار فتوى تؤكد أن الدين العلوي هو فرع من المذهب الشيعي، وبالتالي، أنه ينتمي إلى الإسلام. وبالمثل، شجع حافظ الأسد بشدة أو حتى أجبر المجتمع العلوي على محو خصوصياته الثقافية والدينية، مما تسبَّب في تشريد تراثه وفقدانه. تظهر سياسة "التشمس" الاستباقية هذه في برامج التعليم العام الرسمية وفي الحظر المفروض على بعض المهرجانات العلوية. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن وصوله إلى السلطة، وكذلك السنوات التي تلت ذلك، تميز باعتقالات سياسية عديدة لشخصيات علوية، بما في ذلك بعض رفاقه الرحالة منذ الساعات الأولى " 27 ". في الواقع، كان حافظ الأسد يخشى تأثير أولئك،

داخل جهاز الدولة الذين يمكنهم تحدي تحوله الاستبدادي. وأخيراً، وصفه الإخوان المسلمين بالزندقة hérétique رغم كل التقارب الديني والسياسي والمالي مع أهل السنة، فهو يأتي لتعزيز سلطته من خلال اللعب على مخاوف الأقليات وإقناعها بأن أمنها مرهون بها. وهكذا أصبح العلويون رهائن للنظام. وبالتالي فإن الواقع هو عكس رأي الجماعة. وإذا كان النظام في سورية تحت سيطرة أي عصبية، فهو نوع من " عصبية عرْضية asabiyya transversale " للمتميزين، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية الحقيقية أو المفترضة، فإنهم يخسرون أكثر من لكسب إذا انهار النظام " 28 ". وبعيدًا عن الأساليب الإرهابية في القمع، وسياسة "فرّق تسد diviser pour régner " " 29 "، من الواضح أن التنازلات الاجتماعية من هذا النوع، والتي لها أساس اقتصادي، تفسر طول عمر النظام. وبالتالي، يجب تعديل صورة سورات: لم تعد السياسة تحدد الاقتصاد في سورية بشكل أحادي الجانب، على عكس السبعينيات.

وهكذا جمدتْ رؤية ميشيل سورات سورية في شبكة قراءة طائفية، تمامًا مثل أولئك الذين يتابعون أطروحاته الآن ويجمدونها في الوقت المناسب. ومثل جميع المجتمعات الأخرى، يتغير المجتمع السوري وتغير كثيرًا في السنوات الأخيرة في ظل الآثار المشتركة للتحرر الاقتصادي والعولمة. وتدخلت القوانين الأولى للانفتاح الاقتصادي في التسعينيات، وتضخمت مع وصول بشار الأسد إلى السلطة، الذي أسس ما أطلق عليه اسم "الرأسمالية الصديقة" " 30 ". إن أسلوب حياة السوريين يتغير – جهة الاستهلاك، والوصول إلى القنوات التلفزيونية الدولية، والهواتف المحمولة، والإنترنت ... – كما يتغير نظام قيمهم. وينتشر التنقل الكبير داخل سورية: تكاثر وسائل النقل، ونقل الموظفين المدنيين، فضلاً عن النزوح الجماعي من الريف بسبب فترات الجفاف، يدفع العديد من السوريين إلى مغادرة مناطقهم الأصلية. وتضعف هذه الظاهرة البنيوية الأبوية، بينما تخضع المدن الكبرى لعملية تحول ديموغرافي، وبالتالي تمنح مكانًا أكثر أهمية للفرد والوحدة الأسرية.

إن جيل 15-25 عاماً، رأس الحربة في الثورة الحالية، هو نتيجة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية. وكانت تعرف القليل جدًا أو لا تعرف شيئًا عن فترة حافظ الأسد. وهؤلاء الشباب براغماتيون في اختيارهم للتدريب ؛ يمتلك البعض السيطرة الكاملة على أدوات تقنيات المعلومات والاتصالات الجديدة. إنهم يعملون في القطاع الخاص أكثر من الجيل السابق. إنهم لا ينكرون انتماءهم الديني وهم في بعض الأحيان متدينون، إنما لا تغريهم الإيديولوجية الإسلامية. وتنعكس هذه التغييرات الاجتماعية وظهور هذا الجيل الجديد في الحركة التي بدأت في آذار 2011. ومنذ ذلك التاريخ، برز السوريون بقدراتهم التنظيمية وإبداعهم وتضامنهم في سياق القمع الشديد والعنف . وفي جميع أنحاء سورية، تطورت المبادرات " 31 ": إنشاء لجان التنسيق المحلية، وتنظيم المساعدة المتبادلة، وإنشاء المستشفيات السرية، والقرى ذاتية الإدارة، وتطوير أنماط احتجاج جديدة، وتحمل المسؤولية عن وظائف الدولة الفاشلة (قمامة منزلية، أمن ...)، إنشاء صحف على الإنترنت (Suriyatuna, Jusuruna...) وشبكات من الفنانين المحتجين والأعمال الملتزمة. وفي نهاية آب 2012، شاركت حوالي 20 منظمة في عملية الاحتجاج، والتي تعكس جزئيًا هذه سورية الجديدة، وتدين مأزق التمرد المسلح. وهذه التجارب، التي تشاركها مكونات متنوعة للغاية في المجتمع السوري، قد أوجدت حسًا مدنيًا، ووعيًا سياسيًا، وقدرة على البحث عن حل وسط، وجعلت من الممكن إنشاء تجمع، وطن، يعكس تنوع المجتمع. لكن هذه الثورة الشعبية جاهدت لإسماع صوتها منذ حزيران 2012. والثورة الأخرى، ثورة الكفاح المسلح، فرضت نفسها ولكن ما جرتْ معايشته وتقاسمه نضجًا اجتماعيًا وسياسيًا، حيث تم الحصول عليه بقوة الأحداث، تساعد على تصفية النظام من أعماق المجتمع.

لكن لماذا هذا الواقع السوري الجديد محجوب؟ في المقام الأول، تجدر الإشارة إلى أن لمؤيدي النظام مصلحة في إخفاء سورية الجديدة هذه، الأمر الذي يجعل من غير الضروري الاستبداد يبرر نفسه بالغثيان في "الدفاع" المفترض عن "الأقليات". وفي المقام الثاني، يجد المعارضون المتعاطفون مع المذهب السنّي السياسي، بوضوح، في

القراءة الطائفية، رواية مغرية لتهميش مفترض وغير عادل للسنة. ثالثًا، يجدر التذكير بالانبهار بالنموذج اللبناني " 32 "، الذي نستوعبه بسرعة، وفي كثير من الأحيان، في واقع الشرق الأدنى بأكمله. وصحيح أن هذا النموذج يثير بشكل كبير، التحديدات العرقية والطائفية، وهذه الخاصية الغريبة تحظى بتقدير كبير من قبل العديد من الغربيين. وحتى أن تسوية الطائف (1990) أدت إلى استمرار الطائفية " 33 "، لذلك من الممكن الافتراض أن الدولة اللبنانية، نوع من الدولة بدون شعب. وهذا الانحلال للشعب، حتى عائقه، في "حكم ما بعد الحداثة gouvernance postmoderne " يثير بلا شك، العديدَ من مؤيّدي تهوُّر الدولة القومية، الذين، على اليسار واليمين، يخلطون بين رغبتهم في القواعد والواقع. سوى أن هذه الحقيقة ليس لها قيمة عامة، ولا يمكن تمديد القضية اللبنانية دون محاكمة أخرى للقضية السورية.

الخلاصة: أوعية المستقبل Conclusion : les marmites de l’avenir

رفض ماركس، في فقرة شهيرة، صياغة (وصفات (عدادات) لأوعية المستقبل) " 34 ". هذه الوصية الصحية، البعيدة عن أي إرادة نبويَّة، يجب أن يتبناها بلا شك أولئك الذين لديهم القضية السورية في الصميم. وما يمكن قوله في هذا العام 2015 هو أولاً وقبل كل شيء أن النظام الحالي لضمان بقائه، نجح في استغلال الخلافات المجتمعية على حساب إراقة الدماء التي تستمر في ري أراضي سورية، والتي تصيب المستقبل. إن أي "انتصار" لن يكون سوى انتصار باهظ الثمن. استمرار عدم تناسب الوسائل لصالح الاستبداد. لكنها أصبحت تابعة للقوى الأجنبية التي تدين لها ببقائها. وجاءت مقاومة هذا المستبد على حساب تدمير جزء كبير من الصرح الاجتماعي. لم يكن تهديده الضمني ("أنا أو الفوضى moi ou le chaos ") عبثًا، وهو ما كان واضحًا جدًا لأي شخص تابع السياسة السورية في لبنان طوال الثلاثين عامًا الماضية. لذلك، حدثت الثورة السورية في سياق جيوسياسي غير موات. لكن طابعها الديمقراطي في الأصل، والذي حرك الوعي الغربي الذي شكلته الثورتان الأمريكية والفرنسية لفترة

من الزمن، لم يكن له تأثير كبير في مواجهة صراعات السلطة القائمة ومنطق المصالح الراسخة. وتدريجياً، رسَّخت قوى الاستبداد والجهادية المعادية للثورة قبضة متزايدة. ومع ذلك، كانت ولادة الائتلاف الوطني (الائتلاف الوطني I'tilâf al–Watan) مشجعة. إنما في النهاية، لم يكن توحيد المعارضة فعالاً على الإطلاق. وكان مبدأ الحوار مع النظام نفسه حاجزاً. ومع ذلك، اقتداءً بالنموذج المصري (محمد البرادعي Mohamed al–Baradaï)، لم يكن الأمر يتعلق بالبدء بسقوط النظام بل إنهائه في ديناميكيات المفاوضات ذاتها. كان من الممكن أن يكون انسحاب الجيش من المدن (نهاية العنف)، وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين المرتبطين بالحركة الثورية، ومبدأ فترة الانتقال إلى نظام التعددية الحزبية، قد خلق الظروف لهذه المفاوضات. وبهذه الطريقة كان يمكن للمعارضة أن تكتسب الشرعية. وإذا كان النظام قد رفض مثل هذه المناقشة من حيث المبدأ، لكان قد عرّض نفسه لنزع الشرعية، في أعين أولئك الذين ما زالوا يريدون الإيمان بإمكانيات النظام (والذين يخشون الفوضى). بل أكثر من ذلك، كان التدخل الأجنبي عاملاً مهماً في النزاع بين أحزاب المعارضة . وفي الوقت الحاضر، تصادَر الثورة أكثر فأكثر من قبل أولئك الذين يريدون تجسيدها عسكريًا، ويكشف الجهاديون، بدعم من ديناميكيات من الخارج، عن المثالية الثورية، ويشكلون أولئك الذين لم يرغبوا في أي ثورة إحباطاً مثالياً repoussoir parfait. وكانت الثورة الحقيقية هي استبدال الفراغ الذي تركته الدولة، لتصنيع نظام جديد هنا والآن، أي إعادة المجتمع إلى قدرته على الحكم الذاتي، كما تفعل بعض مجالس الأحياء. إنما هل آمنت غالبية قادة التحالف في يوم من الأيام بقدرات الدستور الذاتي لشعوبهم ؟

مصادر وإشارات:

2–إ. جوسّي " مارتن ماليا، أو التاريخ الفلسفي للثورات "، Nonfiction.fr,23 تشرين الأول، 2008، عبر الانترنت:

www.nonfiction.fr/article-1695-

martin_malia_ou_lhistoire_philosophique_des_revolutions.htm

3–م. ماليا: تاريخ الثورات (مترجم من قاطرات التاريخ. الثورات وصنع العالم الحديث، 2006)، باريس، تالاندير، 2008، ص 17 .

4– س. ج. العظم، هذه المحظورات تطاردنا. الإسلام، الرقابة، الاستشراق، مرسيليا، أقواس، ص167–168 .

5–كما ينتقد صادق جلال العظم إدوارد سعيد لعدم فهمه لأهمية عمل ماركس في هذه النقطة (المرجع نفسه، ص 162–164.).

6–ينظَر حول هذا الموضوع، ف. جيمسون، الكل كمؤامرة. المؤامرة والبارانويا في الخيال المعاصر (ترجمة عن جمالية الجيو–سياسية: السينما والفضاء في النظام العالمي،1992)، باريس، البراري المنبسطة، 2007.

7–ينظَر، س. بسّيس، ميشيل سورات كان على حق "، لوموند، 28 أيلول،

www.lemonde.fr/international،... المجتمع يقف بحزم ضد دولة البربرية "، ميديابارت، ميديابارت، 19 آب.

https://www.mediapart.fr/journal/international/180812/syri،2012

.e-la-societe-tient-bon-face-l-etat-de-barbarie

8- هذه الكلمة المتمردة مناسبة: ألا يواجه الجنود الأمريكيون، مثل جيش الأسد، المتمردين الجهاديين؟ وهكذا تعرف "حرب بوش العالمية ضد الإرهاب" شخصيات الأسد أو حزب الله.

9- يقر بارح ميكائيل بأن "الوقت وحده هو الذي يمنحنا إجابة أكيدة لهذه الحقيقة" [الطبيعة الثورية للحدث]. ميكائيل، إعادة قراءة ضرورية لـ "الربيع العربي"، باريس، سيغن، 2012 .

10-غ.الأشقر، الشعب يريد. استكشاف جذري للانتفاضة العربية، منشورات الجنوب،2013.ص18 (التشديد منه) .

ص8.

11-المصدر نفسه، ص 19 .

12-م. فينلي،اختراع السياسة (ترجمة عن السياسة في العالم القديم، 1983)، باريس، فلاماريون، 2011.

13- يحذرنا من أن هذا الاختراع مميت، كما تظهره مؤسسة المدير في روما، بعد التدمير الذاتي للجمهورية.

14- قبل أن يتولى هتلر السلطة، علق كارل بولاني في عام 1933(في الفاشية الألمانية لا يكمن في المطالب المضادة ذات المحتوى الدقيق، ولكن في هذه المشاركة الشكلية والظاهرية للجماهير طبعة م. كانغياني، و ج. موكوران) Hن جوهر في السلطة الاستبدادية التي تمارس عليهم. بتعبير أدق، يكمن جوهر الفاشية الألمانية، من خلال الاعتماد على منظمة ما، في جعل الجماهير تجرد نفسها من قوتها. علاوة على ذلك، ليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ المعاصر التي يرتدي فيها الدين تحولًا اجتماعيًا ذا طبيعة فاشية، كما حلل بولاني (المرجع نفسه، ص 407-412)

في حالة النمسا في الثلاثينيات. وقد يعتقد المرء أيضًا أن الوثنية الجديدة العنصرية الألمانية في الثلاثينيات كانت محاولة لخلق نوع من الدين يهدف إلى بناء رجل جديد. يعلمنا التاريخ الأوروبي أن الدين والثورة المضادة المنتصرة يمكن أن يسيرا جنبًا إلى جنب.

15-س. زيزيك، مرحبًا بكم في صحراء الواقع، باريس، فلاماريون، 2002،ص 48-49 .

16-ف.بورغات، ور. كيلّيه، في حرب العصابات "الإسلامية"؟ المكونات الإيديولوجية للثورة المسلحة (تحرير: ف. بورغات، ب. باولي، لا ربيع لسورية. مفاتيح فهم الفاعلين وتحديات الأزمة (2011-2013)، باريس، لا ديكوفيرت، 2013، ص 55-83، هنا ص. 83)، يؤكدون أن الخوف الغربي من "أسلمة" المعارضة، خلال الفترة الحرجة لنهاية 2011، والتي شهدت صعود الجيش السوري الحر، كان من نتائجها الأساسية: سحقها تحت نيران مدافع النظام. وهم يحددون نقطة لا بد من التفكير فيها: "ألا يستطيع المجتمع السوري، بمجرد أن يتحرر من القيود الاستبدادية، أن يجد بنفسه توازناته الداخلية وأن يقوم بتهميش المتطرفين من أجل القيام بذلك؟ المجتمع الدولي أنكر له هذا الائتمان. "بهذا المعنى، فإن باحثًا مشهورًا مثل فابريس بالانش (" في سورية، انتقل المتردد إلى معسكر الأسد "، مقابلة جمعها داود بوغزاله، كوسور، شباط 2014، ص 24-25). يعزز الرأي الغربي. إذ أدرك، في إحدى مقابلاته الأخيرة، أن التطلعات التي لا يمكن إنكارها للعلمانية والديمقراطية كانت تظهر في آذار 2011، فإنه يحدد على الفور، بعد سؤال يذكّره بأنه النظام المسئول عن غالبية الضحايا: "بالتأكيد، لكن لا تستهينوا بأهمية القضية الوطنية. لو كان النظام قد سقط لشهدنا تقسيم البلاد [...] بانتصار النظام، تستطيع سورية أن تأمل في إنقاذ وحدتها. ويضيف: "من أجل الواقعية، أعتبر أنه من الأفضل هزيمة التمرد"، حتى لا تطيل الحرب دون داع (للحصول على وجهة نظر معارضة، ينظر، ج. ب. فيليو، الشرق الأوسط الجديد.

الشعوب في زمن الثورة السورية، باريس، فايار). نحن بعيدون عن الحياد المفهومي، خاصة وأننا كنا نفضل أيضًا أن هذا الاستبداد – الذي يفترض أنه لا يمكن تعويضه – لم يساعده الأجنبي كما كان، لأن هذا سمح بإطالة أمد الصراع والبقاء دكتاتورية من زمن آخر. ألم يكتب فابريس بالانش (2011، ص 33) عن هذا الموضوع: "ومع ذلك، عندما انتهى الأمر بسورية إلى الانغماس في" الربيع العربي "، لم يكتب (بشار الأسد) "بدائل أخرى غير القمع واللسان في الخد، لأن أفقه السياسي ليس سوى استمرارية النظام الموروث عن والده"؟ (ف.بلانش، "بشار الأسد،" شبل الأسد من دمشق "، الشرق الأوسط. الجغرافيا السياسية، الجيواقتصادية، الجيواستراتيجية ومجتمعات العالم العربي الإسلامي، عدد 12، تشرين الأول – كانون الأول 2011، ص 31–33، هنا ص 33). ويبدو من الممكن لنا أن نستنتج أن هناك أسبابًا هنا لضرورة إجراء تغييرات جذرية، بل ثورية، ما لم نعتقد أن ملكية الأسد تعكس فقط أفق المجتمع السوري الذي لا يمكن تجاوزه.

17–حول واقع هذا الاستخدام، ينظر، من بين أمور أخرى، ف. بورغات، ب. باولي ("مقدمة. ما هي مفاتيح فهم الدراما السورية"، ص 7–15، في ف. بورغات، ب.

18–م.سورات، سورية. الدولة البربرية، باريس، سوي، 1989.

باولي إد. لا ربيع لسورية، مرجع سابق، ص 14.

19–بهذا المعنى، يقلب ميشيل سورات حتمية الماركسية الأرثوذكسية ضد نفسها، مستخدمًا بمهارة عيبًا معروفًا في النصوص الماركسية: غياب نظرية مقنعة عن الدولة. لكن يبدو من المهم بالنسبة لنا أن نؤكد أن اللغة والفئات الماركسية تسقي من خلال عمله ومن خلاله. ألا يطرح أن "كل مجتمع" يخضع لـ "نمط إنتاج مهيمن"؟ علاوة على ذلك، يعرّف دراسته بأنها "الفعل الحاسم للدولة في عملية التأسيس الطبقي في الشرق العربي، كأداة لرأس المال الأجنبي، ثم عاملاً للتكامل الوطني لما يسمى" الفترة

الثورية ". ". في كلتا الحالتين، تلعب الأيديولوجيا دورًا بعيدًا عن الإهمال ". ينظر المرجع نفسه، ص 230.

20-حتى لو فضل ميشيل سورات الاقتباس من آلان تورين الذي، في إعادة صياغة بسيطة لماركس، يجعل الدولة الغربية "مجلس إدارة" البرجوازية الخاصة (تورين استشهد بها سورات، 1989، ص 229 .

21-ومع ذلك، فإن طريقة معارضة الشرق والغرب هذه قابلة للنقاش تمامًا لأن الدولة والإيديولوجيا والحرب الطبقية في الغرب نفسه لعبت دورًا حاسمًا في تطور البرجوازية ومؤسسة استقلالية الاقتصاد، كما يُظهر ماركس بوضوح في استحضاره للمرفقات، وعمل بولاني بأكمله. في القرن العشرين، يمكن تصور الدولة كمثال على شمولية الواقع المتناقض للمجتمع الرأسمالي

(كما هو مبين، في سياق ماركسي جديد واعد، ميشيل أغليتا، تنظيم وأزمات الرأسمالية، باريس، كالمان ليفي، 1976). إن الدولة الاجتماعية الغربية، على قدم وساق في ذلك الوقت، هي دليل على هذا الاتجاه نحو الاستقلال الذاتي، ونطاق مؤسسات إعادة التوزيع المناهضة للرأسمالية يتعارض مع بعض الأطروحات الماركسية الأرثوذكسية والرغبات النيوليبرالية (مثل كريستوف). راماوكس، الحالة الاجتماعية: للخروج من الفوضى النيوليبرالية، باريس، ألف ليلة وليلة، 2012). لذلك يبدو من المهم بالنسبة لنا تحديد الميول التي تعمل من أجل استقلالية الدولة تجاه العلاقات بين الطبقات أو الفئات الاجتماعية، بشكل عام، في المجتمعات الواقعة تحت تأثير الرأسمالية، مهما كان الوضع. الشكل الذي يفترضه. مهما كان الأمر، فإن هذا المنطلق لمقارنة سورات هذا، يتبنى الفكرة التي بموجبها "وُلد الاقتصاد الصناعي في إنجلترا تحت رعاية برجوازية خاصة خارج أي تدخل من الدولة" (المرجع نفسه) .، ص 229) لا يمكن الدفاع عنه ويشكل، في أحسن الأحوال، عنصرًا من تكوين الأسطورة الاستشراقية.

22–ينظَر، ج. موكورانت، ب. تينيل" رأس المال والسلطة الوطنية "، ماركس الحالي، العدد 43، ص 140–153،

. 2008

23– من غراسي إلى إ. رابّات، المسيحيون في بدايات الإسلام، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، 1985، نحن نفهم كيف تم تشكيل البنية السياسية في الهوية الطائفية منذ العصور البيزنطية.

24–م.سورات، 1989، مقتبَس منه، ص 85 .

25– يبدأ سورات نصه بشرح أن "الفكر الأصولي الإسلامي" الخاص بالإخوان المسلمين "له قيمة معينة في قيادة التفكير في الدولة.

26–اسمه الحقيقي حسن حمدان. لقد فهم منظّر الحزب الشيوعي اللبناني جيدًا أن مبدأ الدولة الطائفية قد تم تقويضه من قبل المعضل الذي يتعارض مع الحرية الدينية نفسها، ينظَر، جورج لابيكا، وهو يتحدث في هذا الصدد عن " جرامشي العربي" لدى، مهدي عامل، الدولة الطائفية. الحالة اللبنانية، مقدمة بقلم ج. لابيكا، باريس، لا بريش، .1996

27–ن. فان دام، الصراع على السلطة في سورية، السياسة والمجتمع في عهد الأسد وحزب البعث، لندن، توريس، 1996.

28–سهيل بلحاج (" سورية الأسد : مقاومة النظام "، مجلة الشرق الأوسط، العدد 21، كانون الثاني– آذار، 2014، ص 62) . ويظَر كذلك :" يتم تفضيل تماسك النخبة الأمنية السورية من خلال عمل السلطة، مما يسمح بتقاسم المجتمع (العلويين / السنة) مناصب المسئولية [...] هذه التعيينات تذهب في اتجاه الحفاظ على توازن مجتمعي معقد بين العلويون والسنة، بحيث أن البعض ليس في موقع يحل محل البعض الآخر [...]. وتشهد التعديلات الرئيسة في فرق إدارة الاستخبارات على هذا

البحث عن التوازن المجتمعي، بما في ذلك التعديل الوزاري في تموز 2012، حيث كان ثلاثة من السنَّة (علي مملوك، محمد ديب زيتون، ورستم غزاله) هم من بين كبار المسئولين الأربعة الذين تمت ترقيتهم".

29- كما كتب جان بابتيست بوشارد بحق ("الآثار اللبنانية للانتفاضات الثورية السورية"، ص 27-37، في سي ستوير، ج.ب.بوشار، وإي فاندينهايد، الشرق الأوسط بعد عام واحد. بين الثورة والثورة والركود، باريس، سيجن، 2012، ص 32)، بعد عام من بدء "الانتفاضة الثورية" في سورية، في فقرة تجعل من الممكن تحدي الفكرة القائلة بأن نظام الأسد "يحمي أقليات: "على الساحة السورية، يلعب النظام بـ" التشرذم الطائفي "، الذي كان استراتيجيته خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وبهذا المعنى، يقوم النظام حاليًا "بلبن" الفضاء السوري من خلال استيعاب نموذج إدارة الصراع الذي مكّنه من السيطرة على أعدائه المتعاقبين في لبنان.

30-ف.بابانش، المنطقة العلوية والقوة السورية، باريس، كارتالا، 2006. دوناتي، الاستثناء السوري. بين التحديث والمقاومة، لا ديكوفير، 2009، وحول هذا الموضوع، من الممكن إعادة صياغة مفهوم فيبر لـ "الرأسمالية السياسية ") ج. موكورانت،"الرأسمالية في العقلانية والسياسة، الشرق والغرب"، سيتيز،رقم 41، 2010، ص 15-34 .)

31-ل.فينيال " سورية تشريح الثورة "، حياة الأفكار، 27 تموز 2012، www.laviedesidees.fr،

32-كان السحر بالفعل، سحر سورات .

33-فضول آخر يكمن في حقيقة أن هذه الدولة فقدت الحق في اتخاذ قرار بشأن الحرب والسلام، وهو فصيل أخذ هذا الحق في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، مما يؤدي إلى مزيد من التساؤل حول مفهوم الدولة. فيما يتعلق بالكيان اللبناني.

34-ك. ماركس، " خاتمة للطبعة الألمانية الثانية من الرأسمال "،1873، www.marxists.org/francais/marx/works.

35- وهي مع ذلك حقيقية جداً! انظر أ. كاشيه، "مسارات المدن السورية في الثورة. نحو نشوء المواطنة؟ ملتقيات متوسطية، العدد 85، 2013 . *

المقال مترجم عن الفرنسية، ونقلاً عن موقع journals.openedition.org،

La Syrie entre révolutions et ingérences, 2016،

لكل من الكاتبين أكرم كاشي، وجيروم ماكورانت.

أما عن أكرم كاشي، فهو طالب دكتوراه في مختبر تريانغلي، ومحاضر في جامعة جان مونّيت في سان اتيان، وفي إيبب، في ليون، يعمل أكرم كاش على التحولات الديمقراطية. أصدر عام 2013 بشكل خاص بعنوان "مسارات المدن السورية في الثورة نحو نشوء المواطنة؟ في ملتقى البحر المتوسط رقم 85.

أما جيروم ماكورانت، فهو محاضر في الاقتصاد في جامعة جان مونيه، وعضو في مختبر تريانغلي، وهو مؤلف لعدد من المقالات حول التقليد المؤسسي في الاقتصاد، ولا سيما الجانب المؤسساتي للنقد ..

حارس المرمى

الشاعر الدانمركي كلاوس نيفا

ترجمة وتقديم: نادر القاسم*

كلاوس نيفا هو شاعر دنماركي من مواليد عام 1977 وقد ولد في مدينة فيبورغ، وهو مؤلف ومحاضر ومعلم ثانوي. يعيش حاليا في مدينة البورغ منذ عام 2009. وقد سبق له أن نشر مختارات الراب والشعر Rødder في عام 2014 مع مغني الراب Per Vers. نشر كلاوس نيفا كتاب للأطفال The Fly on the Wall في عام 2016، وله العديد من الكتب، وله ديوان شعر مشترك باللغة الدنماركية مع كاتب هذه السطور، وقد صدر عام 2017، تحت عنوان "قصائد من حلب قصائد من البورغ".

سيصدر للشاعر في نيسان القادم ديوان "ملاك الفوتبول"، ويترافق ذلك مع بطولة كأس أوربا لكرة القدم، وهو ديوان مختلف عم هو سائد في الشعر، وربما له الريادة في هذا المجال إذ يتناول نجوم وأساطير كرة القدم في القرن العشرين والقرن الحالي، ومما لفت انتباهي أكثر هو تخصيصه قصيدة لحارس مرمى الثورة وأيقونة من أيقونات الثورة السورية الشهيد عبدالباسط الساروت، ويشعر المرء بالغبطة والفرح لهذا الاهتمام النخبوي من شاعر دنماركي بشخصية سورية كان لها دور فاعل في الثورة والحدث السوري، وأن تشاهد اسم الساروت إلى جانب أساطير كرة القدم من بيليه إلى ميشيل بلاتيني وكرويف ومارادونا وميسي وآخرين مما دفعني لنقلها إلى قراء العربية، وذلك لأهميتها ولخصوصيتها السورية، وكنت قد تواصلت مع الشاعر فأبدى ترحيبه الحار بهذا العمل.

*** شاعر سوري مقيم بالدنمارك**

حارس المرمى

(إلى عبد الباسط الساروت)

جاءتْ الأغنيةُ بتوقيتٍ غيرِ متوقعٍ

لم تستطعْ تَجنُّبها

ومن ثم غنّيتَ

وغادرتَ مرماكَ لهدفٍ جديد.

من أجلِ مهمتكِ الجديدةِ

خلعتَ قفازتيك *

وألقيتَها

عندَ

قدمي

عدو الشعب.

لذلك وقفتَ هناكَ

وسطَ بحرٍ من الناسِ

وغنّيتَ مثلَ أورفيوس السوري.*

من أجلِ بلدِكَ

كنتَ أعظمَ حارس مرمى

في قارة آسيا

تركتَ قلبكَ وروحكَ تغني أولاً

ومن ثم حملتَ بين يديكَ

البندقيةَ الآليةَ

دفاعاً عن حمص.

رأيتُكَ في فيلمٍ

رأيتُ عدمَ رضاكَ

والحزنَ العميقَ في عينيكَ

على ما نذرتَ له نفسكَ

من أجلِ الهدفِ الأخيرْ.

في حالةٍ ميئوسٍ منّها

وبعد ثمانِ سنواتٍ من الحربِ الأهليةِ

سقطتَ في حماه

وفي غيرِ مدينتكَ

وجدتَ اخيراً قبرْ.

رأيتُكَ ثانيةً

رأيتُ نفسَ اللحظةِ

أعرفُ ذلكَ من صديقي السوري هنا.

تقتربُ الأغنيةُ من الخفوتِ

ولكنَّ الزمنَ سيجدُ مرةً أخرى هدفاً جديداً

من أجلِ الدفاعِ عن بلدٍ

أَطلقوا عليه ذاتَ يومٍ

اسم سوريا.

*خلع القفازات في العصور الوسطى هو لطلب المبارزة النبيلة من العدو.

*أورفيوس كاتب وموسيقي أسطوري اغريقي ونبي في الديانة اليونانية القديمة وفي الميثولوجيا الإغريقية.

* اللوحة المرافقة للقصيدة في الكتاب والتي يظهر فيها عبد الباسط الساروت مع علم الثورة هي من رسم الفنان مارتن بوير.

فضيحةُ القرن

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة وتقديم: أمل فارس*

فضيحةُ القرن عنوانُ الإصدار الأحدث للراحل الدائم الحضور أبدا ماركيز بطبعةٍ فخمةٍ وبصورته متصدّرةً الغلاف عن دار فينتاج الإسبانية (راندوم هاوس . نيويورك 2019). ما إن وصلني أجلّتُ ما بين يديّ من ترجماتٍ وغرقت في قراءته. مازلت أهيم بالكتب، على وجه الخصوص هذي التي تصل على غير حسبان في طرود مُحكمة تُدفئ القلب والروح رغم نثرات الثلج التي علقت بها فالثلوج في هذا الوقت من السنة تغمر الأرصفة ومداخل الأبنية بل تغمر روتشستر بأكملها إذ لم تتوقف عن الهطول طوال الليلتين الماضيين وهذا حدث أقل من عادي خلال شتاء نيويورك العاصف. المقالات المدرجة في الكتاب تشدُّك من عناوينها ولا يخيبُ ظنك في المضمون، وإن كُتبت في حقب زمنية متباعدة وبعيدة عن شكل العالم الحالي ومجريات أحداثه إلا أنها تُظهر مقدرة عالية لدى ماركيز الصحافي على المزج بين القصة والحدث اليومي وهذا ما يبقيها صالحة لكل زمان. من ضمن العناوين كانت العاصمة المكسيكية حاضرة كما وكوبا وباريس وبالطبع بوغوتا حيث بدأ حياته الدراسية. وكذلك فنزويلا حيث أقام ما يقارب ثلاث سنوات "حاسمة ومفصلية في تاريخ البلاد كما على الصعيد الشخصي" حسب قوله، أواخر الخمسينيات، شهد خلالها انقلاباً عسكريا لضبّاط الجيش ضد الرئيس ماركو بيريز هيمينيس (والذي وصل إلى الحكم بدوره بعد انقلاب عسكري نفّذه ضد الرئيس المنتخب الكاتب رومولو كاجيغو 1948) وكتب منها وعنها العديد من المقالات لصالح جريدة Momento/ دقيقة. كما عن زعيمها

الذي أحببناه وانتخبناه أواخر التسعينيات قبل أن يتبين أنه عرّاب انهيار البلاد الذي نشهده حاليا "تشافيز الفيديليّ" كما يطيب لبعض معارضيه المحليّن تلقيبه. وتحدّث ماركيز عن الفارق بين القصة والرواية السؤال الذي حسب قوله "احتل المرتبة الأولى من حيث عدد المرات التي كان عليه أن يجيب فيها عنه" ولكنه كان يُجيب في كل مرة كما لو أنها الأولى. وتطرّق إلى محاولاته الخاصة في مضمار الترجمة، وذكر أمراً بغاية الأهمية ألا وهو ضرورة التواصل مع الكاتب إن أمكن واشراكه في عملية الترجمة. وهذا بالفعل ما حرصتُ عليه منذ بدأت في هذا المجال وباعتقادي أنه واجب تجاه النص والقارئ أكثر منه تجاه الكاتب. وجاء عنوان المقال الذي اخترته للترجمة تعبيراً صريحاً عن مدى إحاطته بالجهد الذي يبذله المترجم (الذي لا يضاهيه جهد سوى جهد كاتب العمل) إلا أنّ مشقة المترجم المضاعفة تتأتى من كونه يتخذ الموقع الوسط بين لغتين ويتوجب أن يكون أهلاً لهذا الموقع ويتعامل بانتفاء تام لأنا الكاتب إن صح التعبير عبر تبنيه لنص ليس نصه على اعتبار أنه كاتبه وإعادة خلقه مع حرصٍ تامٍ على روح النص وجماليته.

هنا ترجمتي لمقال ماركيز عن الترجمة بعنوان "المترجمون الجيدون المساكين"، والتي نُشرت في جريدة "البابيس" الاسبانية قبل أن يحتويها هذا الكتاب المهم.

المترجمون الجيدون المساكين

غابرييل غارسيا ماركيز

قال أحدهم بإن الترجمة هي الطريقة المُثلى للقراءة وبرأيي إنها الأصعب والأكثر تعقيداً والأسوأ مردوداً. يقول المثل الإيطالي (Tradttore,Traditore) بما معناه أنّ المترجم خائن. ماوريس إدغار كويندرياو، واحد من بين أذكى المترجمين وأغزرهم انتاجاً في فرنسا، كشف خلال سردٍ لذكرياته عن تفاصيل تتيح لنا التفكير بشكلٍ مغاير تماماً إذ

قال "المترجمُ قرد الراوئيّ" مقتبساً عن الكاتب الفرنسي فرانسوا موریاك وقاصداً القول بإن على المترجم أن يقوم بنفس الإيماءات ويتّخذ ذات الموقع الذي يتخذه الكاتب في السّرد سواء أعجبه ذلك أم لم يعجبه. ويمكن القول بإن ترجمات ماوريس لأعمال أدباء أمريكا الشمالية إلى الفرنسية، ممن كانوا بعدُ آنذاك كتّاباً مغمورين غير معروفين في عصرهم أمثال ويليام فوكنر وجون دوس باسوس وإرنست همنغوي وجون ستينباك، لم تكن إعادة خلق بارعة وحسب بل ساهمت بالفعل في صنع جيلٍ فرنسيّ تاريخيّ كان تأثيره على الأجيال الأوروبية المعاصرة بما فيهم بول سارتر وألبير كامو أكثر من واضح. بما معناه أن كويندرياو لم يكن خائناً بل على العكس من ذلك تماماً كان شريكاً رائعاً. كما هي حال جميع المترجمين العظماء عبر الأزمان الذين غالبا ما تمرّ مساهماتهم في العمل المُترجَم دونما أن يلاحظها أحد، في الوقت الذي تُضخّم فيه عيوبهم وهفواتهم.

عندما تقرأ مؤلَفًا بغير لغتك الأم تتوّلد لديك رغبةٌ طبيعية وعفويّة بترجمته وهذا مفهوم، لكون إحدى ملذّات القراءة، كما الموسيقى، تكمن في إمكانية مشاركتها مع الأصدقاء. ولعل هذا يفسّر لنا الرغبة الملحّة التي لم يتسنَ لمارسيل بروست تحقيقها قبل وفاته وهي انجاز ترجمة من اللغة الانكليزية لكاتب آخر مختلفٍ كامل الاختلاف عنه كما كان جون راسكن.

في الحقيقة اثنان من الكتّاب كنتُ لأرغب بترجمة أعمالهم من الانكليزية لأجل المتعة الخالصة وحسب هما أندريه مارلو وأنطوان دو سانت إيكزوبيري اللذان بالمناسبة لم يتمتعا، كما هو حال مواطنيهما في وقتنا الراهن، بأعلى درجات التقدير، لكن الأمر لم يتخطَ كونه رغبة. بالمقابل أعمل منذ مدة طويلة على ترجمة أناشيد الشاعر والكاتب الإيطالي غياكومو ليوباردي قطرة قطرة كما يقال لكني أنجز ذلك في الخفاء خلال ساعات تفرغي القليلة بوعي تام مني إلى أنه لن يكون الطريق الذي سيقودني أو يقوده إلى المجد. بل أمارسها كنوع من التسالي التي أطلق عليها الآباء اليسوعيين ملذّات

العزلة. لكن الشروع بالتجربة وحده كان كافياً لأدرك مدى الصعوبة والتفان اللازم لمحاولة منافسة المترجمين المحترفين.

من النادر أن يصل الكاتب إلى حالةٍ من الرضى التام عن عمله المترجَم بمجمل كلماته وعباراته. كما ويكمن دوماً في كل مسار من مسارات الرواية نيةٌ خفية لا يعرفها سوى الكاتب، لذلك فمن المستحسن بأن يشارك الكاتب بنفسه في الترجمة بقدر الإمكان. إحدى التجارب البارزة في هذا الصّدد هي الترجمة الاستثنائية لِ عوليس للكاتب الأيرلندي جيمس جويس إلى الفرنسية، وقد اشتغل على إنجاز المسودة الأولى والأساسية للنص بأكمله وبمفرده المترجم أوغست موريل الذي عمل بعد ذلك على النسخة النهائية بالتعاون مع الكاتب الفرنسي فاليري لابرو وجيمس جويس بنفسه. وكانت النتيجة، بشهادة أهل الخبرة والاختصاص، تحفةً فنية. ولعل الترجمة الوحيدة التي توازيها في الدّقة والكمال كانت تلك التي أنجزها الكاتب والمترجم البرازيلي أنطونيو هواييس إلى البرتغالية. أما الترجمة الوحيدة المتوفرة بالإسبانية فهي شبه مفقودة من الأسواق لكن تبرير الأرجنتيني خ. سالاس سوبيرات الذي انجزها لذلك يفيدنا كذريعة إذ أنه قام بترجمتها لتجزيه الوقت والمتعة الشخصية فقد كان متخصصاً في مجال التأمين على الحياة. اكتشفها المحرر سانتياغو رويدا من بوينوس آيرس مصادفةً ونشرها في أواخر الأربعينيات. بالمناسبة لقد قابلت سالاس بعد عدّة سنوات من صدور ترجمته في العاصمة الفنزويلية كاراكاس خلف مكتبه في شركة تأمين غير معروفة. قضينا ظهيرةً رائعة نتحدّث عن رواياتٍ انكليزية كان هو يحفظها تقريباً عن ظهر قلب. آخر مرة رأيته فيها كانت أشبه بحلم: كان يرقص، وقد تقدّم به السّن بشكلٍ ظاهر وحيداً كما لم يكن ابدا، خلال العجلة الجنونية لكرنفال بارّانكيجا. كان ظهوراً غريباً جداً لدرجة أنّني قررتُ الامتناع عن المبادرة بالتّحية.

إحدى التّرجمات التاريخية المهمّة تلك التي أنجزها إلى الفرنسية جورج جين أوبري وفيليب نيل لرواية جوزيف كونراد الكاتب العظيم على مر الأزمان، اسمه الكامل

جوزيف تيودور كونراد كورزينيويسكي وقد ولد في بولونيا ووالده كان يعمل بالتحديد مترجماً لمجموعة كتّاب انكليز من بينهم شكسبير. لغة كونراد الأم كانت البولندية على أنّه بدأ بتعلم اللغتين الفرنسية والإنكليزية منذ طفولته المبكرة ووصل ليكتب باللغتين واليوم نعتبره، بحق أو بغيره، واحداً من بين أبرز أساتذة اللغة الإنكليزية. ويُحكى أنه قد جعل حياة مترجمي أعماله إلى الفرنسية لا تطاق إذ حاول فرض كمال أسلوبه في الترجمة عليهم. كما انه لم يتخذ القرار بترجمة أعماله بنفسه وذلك يبعث على الفضول حقا، على أنه لا يُعرف الكثير من الكتّاب ثنائي اللغة ممن يفعلون ذلك. المثال الأقرب المعروف من قبلنا هو خورخيه سمبرون الذي أتقن الكتابة بالإسبانية وبالفرنسية لكن بشكل منفصلٍ تماما. ولم يترجم لنفسه على الإطلاق. ولا يزال الإيرلندي صمويل بيكيت الحائز على جائزة نوبل للآداب المثال الأغرب إذ كتب العمل ذاته مرتين وبلغتين مختلفتين مع اصراره على أن أحدهما ليس ترجمةً للآخر بل إنهما عملان متمايزان كُتبا بلغتين مغايرتين.

قبل بضعة سنوات وخلال الصيف الحار لجزيرة يانتليريا كانت لي تجربةٌ أُلغُوزَةٌ كمترجم، كان الكونت انريكو سيكوغنا، مترجم أعمالي إلى اللغة الايطالية حتى وفاته، يعمل خلال تلك العطلة على ترجمة رواية باراديسو للكاتب الكوبي خوسيه لزاما ليما، الذي كنت معجباً بشعره وبشخصيته الغريبة، مع أني التقيته لمرات قليلة، أردت في ذلك الوقت أن أعرف أكثر عن روايته النثرية ولذلك ساعدت سيكوغنا قليلاً، لم تكن مساهمتي في عملية الترجمة بحد ذاتها إنما في العملية المعقدة لفك شيفرة عبارات ليما النثرية. وهنا أدركت حقاً كيف أن الترجمة هي الطريقة الأعمق للقراءة. ومن بين أمور أخرى وجدنا عباراتٍ كان الفاعل فيها متغير الجنس والعدد أكثر من مرة في أقل من عشر أسطرٍ حتى وصلنا إلى النقطة التي انعدمت فيها إمكانية معرفة من يكون ومتى كان وأين. ولمعرفتي بليما كان من الممكن أن يكون ذلك الاضطراب متعمداً لكن كان وحده قادراً على توضيح ذلك ولكننا لم نتمكن مطلقا من سؤاله.

التساؤل الذي شغل المترجم سيكوغنا تراوح بين اختياره احترام هذا الشطح في الاتساق عند نقله إلى اللغة الإيطالية أم إخضاعه لقواعد أكاديمية صارمة. وكان رأيي أن يبقى النص على حاله وبهذه الطريقة ينتقل العمل من لغة إلى أخرى بشكله الأصلي ليس بجماليته وحسب بل وبعيوبه أيضا وهو التزام أخلاقي تجاه القارئ من اللغات الأخرى.

بالنسبة لي لا وجود لفضولٍ أكثر مللاً من قراءة ترجمات كتبي باللغات الثلاث والتي ستكون مهمة مستحيلة بالطبع. كما أني لا أتعرف على نفسي سوى عبر اللغة الإسبانية. على أني قرأت عدداً من الترجمات التي أنجزها غريغوري راباسا إلى الإنكليزية وعليّ الاعتراف بأني عثرت فيها على بعض المقاطع التي حازت إعجابي أكثر من تلك الأصليّة. الانطباع الذي تخلفه ترجمات غروغوري أنه يحفظ الكتاب عن ظهر قلب بالإسبانية من ثم يعيد كتابته كاملاً باللغة الإنكليزية. إنّ إخلاصه أكثر تعقيداً وأبعد عمقاً من مجرد الحِرَفيّة الاعتيادية. لا يدرج شرحاً في الهوامش مطلقاً والتي تعد أقل المصادر صحة وللأسف أكثرها استعمالا من قبل المترجمين غير المحترفين. في هذا السياق يحضرني المثال الأبرز على ذلك، ما قام به مترجمٌ برازيليٌ لأحد كتبي إذ أدرج يشرح في أحد الحواشي كلمة Astromelia فكتب التالي: "زهرةٌ خيالية ابتدعها غابرييل غارسيا ماركيز" والأسوأ من ذلك بأنني قرأت بعد ذلك لا أعرف أين بأن تلك الزهرة، ليست موجودة وحسب في منطقة الكاريبي كما يعرف الجميع، بل وأصل الاسم برتغاليٌ أيضا!

21 يوليو/تموز 1982

جريدة البايس . مدريد

إشارات

. ماركو بيريز هيمبنيز **Marcos Evangelista Pérez Jiménez**

. ماوريس إدغر كويندرياو Maurice Edgar oindreau

. فرانسوا مورياك **François Mauriac**

. جون دوس باسوس **John Roderigo Dos Passos**

. جون ستاينبيك**John Ernst Steinbeck, Jr**

. جون راسكن **John Ruskin**

. أندريه مارلو**André Malraux**

. وأنطوان دو سانت إيكزوبيري **Antoine Marie Jean-Baptiste Roger Conde de Saint-Exupéry**

. غياكومو ليوباردي **Giacomo Taldegardo Francesco di Sales Saverio Pietro Leopardi**

. أوغست موريلAugust Morell

. فاليري لابرو**Valery Nicolas Larbaud**

. أنطونيو هواييس**Antônio Houaiss**

. خ. سالاس سوبيرات**José Salas Subirat**

. جورج جين أوبري**Georges Jean-Aubry**

. فيليب نيل Phillipe Neel

. جوزيف تيودور كونراد كورزينيويسكي **Józef Teodor Konrad Korzeniowski**

. خورخيه سمبرون**Jorge de Semprún Maura**

. الكونت انريكو سيكوغنا el conde Enrico cicogna

. خوسيه لزاما ليما**José María Andrés Fernando Lezama Lima**

. غريغوري راباسا**Gregory Rabassa**

* كاتبة ومترجمة عن اللغة الإسبانية، صدر لها حديثا ترجمة رواية "الطفرات" لـ كاتبها خورخيه كومنسال عن منشورات تكوين، وتعمل حاليا على ترجمة عدة مقالات لـ غابرييل غارسيا ماركيز من ضمن المقالات الواردة في العمل الصادر مؤخرا بعنوان (فضيحة القرن) والذي جمع فيه ورثة الكاتب عدداً من مقالاته المنشورة في عدد من الصحف الاسبانية والأمريكية الجنوبية (مومينتو الفنزويلية، الاستبيكتاذور الكولومبية، البابيس الإسبانية) من عام 1955 حتى 2004.

الحسنان: التلاشي إلى الأسود
في وثائقيات الشرخ السوري

أنطوان هاتزنبرغر*

ترجمة: زويا بوستان

"هذه السلسة الطويلة من الهدم والدمار والأنقاض والخراب الماثلة أمامنا"

نيتشه، العالم المرح(1)

لقد أرجأ وباء عام 2020 الثورة السورية إلى الصفحات الأخيرة من الصحف لبرهة من الزمن، ولكن التاريخ سيحفظ ذكرى مئات الآلاف من ضحايا الأعوام العشر الأخيرة للحرب جنباً إلى جنب مع الصورة الرهيبة لساحات الخراب وستستدعي كتابة الصفحات المأساوية من التاريخ السوري المعاصر سلسلة مترادفات عن التحطيم والشرخ.

في ربيع عام 2011 كان الشعار الأساسي الموحد، "الشعب يريد إسقاط النظام" الذي ردده المتظاهرون بشجاعة من درعا إلى حلب بعد أن دوى في تونس ومصر، كان هذا الشعار بالمعنى الدقيق للكلمة جزء من القطيعة الثورية: القائمة على الإطاحة بالنظام الحالي، وإسقاط رموزه القديمة، نزع صور عائلات قادته المتشبثين بمناصبهم، وتحطيم القيود وعرقلة ميكانيزماته.

حيث سيشكل التقاء إرادة الأفراد لحظة قطيعة وصدع مؤقت ينفذ من خلالهما تغيير نوعي سريع لطبيعة الأشياء. (2)

إنه ذلك الحدث الذي يندلع فيحرف مسار الزمن الملائم لثبات واقع الحال.

إنها أزمة، وبشكل أمثل إنها "هوة ما بين الماضي والمستقبل" بالعودة لما قالته حنة أرندت. (3)

ومع ذلك سيدخل المرء سريعاً في النطاق المعجمي للحرب إذ يصبح الشرخ بالمعنى القذر هو الإخضاع بقوة التدمير، وسياسة الأرض المحروقة.

بينما يحمل التحطيم معنى الفيربريشين (Verbrechen): الجناية، الجريمة، والعقاب وبتعبير آخر الموت والدمار، تعذيب الأجساد، قصف المدن، نهب المنازل، وتقطيع أوصال البلد. إنه يعني الجثث، الأنقاض، وحطام المباني. (4)

عنون روبين ياسين قصاب وليلى الشامي أحد فصول عملهما بورنينغ كاونتري (Burning Country) بلد يحترق، سوريون في الثورة والحرب، "سوريا المفككة". (5)

حيث لم يتبق من الموزاييك الاجتماعي والديني سوى شظايا مبعثرة ومشتتة، الشرخ هنا هو التشظي، تفرق العائلات، انقسام الأحياء، التمزق ونزوح الناس والهجرة الجماعية، وما كان مجتمعاً سياسياً أضحى انقساماً وتشتتاً.

إنها كارثة كبرى كما أشار إليها جوناثان ليتل في مؤلفه (Carnets de Homs) دفاتر حمص "لقد انشطر المجتمع السوري إلى اثنين، هناك مجتمعان متوازيان موجودان الآن في البلد، داخلان في صراع مهلك" (6)

وحول كل هذه الحيوات المحطمة والمباني المدمرة تقدم السينما شهادة متميزة.

ففي عام 2019 خرج فيلمان مؤثران على وجه الخصوص، سواء عبر الانتشار الواسع الذي نالاه أو النجاح الذي حصداه.

أولهما كان فيلم (الكهف) لفراس فياض والذي يظهر لنا مشاهداً لمشفى تحت الأرض في مدينة دوما في الغوطة الشرقية من دمشق.

والثاني هو فيلم (إلى سما) لوعد الخطيب والذي تم تصويره أثناء المعارك الدائرة في حلب.

الأبطال الأسطوريون في كلا الفيلمين هم الناجون فوق الدمار، المقاومون في الظل تحية للكوادر الطبية.

ولكن قبل ذلك كله ومنذ عام 2011 صور سينمائيون سوريون آخرون الثورة في سوريا، هذا التصوير سرعان ما أصبح توثيقاً للحرب.

وكانت أشد الأفلام فظاعة هي تلك المصورة على عجل بكاميرات الهاتف المحمول. (7)

حيث المتظاهرون والشرطة أيضاً والميليشيا السرية والمخابرات (8) وهكذا نشأت مدرسة أو تيار "سينما الطوارئ". (9) التي تم تحليلها وتوثيقها بشكل جيد. (10)

يسترعي انتباهنا في خضم هذا التصوير السينمائي الهائل وثائقيات أقل حضوراً ولكنها ملفتة لجهة أصالتها وفكرتها وآليات تصويرها ومونتاجها.

ومع وثائقيات علي الشيخ خضر وأكسيل سالفاتوري سينز وسامر سلامة نكون بمواجهة أوائل الأفلام التي تقدم هذه الميزة المتمثلة في كون ثورة 2011 عبرت خلالها.

لقد سجل هؤلاء المخرجون بذور الثورة حتى ولو لم يكن هذا مبتغاهم وهدفهم عند البداية إلا أنه كان واضحاً جداً على الشاشة وإن لم يتقصدوا هم ذلك.

والنتيجة: هذه أفلام تسمح بمرور التاريخ، ونستعير هنا تعبيراً لميشيل فوكو استخدمه دورك زابونيان ضمن هذا المنحى (دون أن تكون ملتزمة عن عمد) (11)

حتى إنها لتظهر في بعض الأحيان كأفلام محايدة خاصة في البداية.

انبثقت السيناريوهات الأساسية لهذه الوثائقيات الثلاثة تحت تأثير الإقحام ضمن إطار الحدث الثوري وبهذا أصبح الفيلم شهادة وليس تقريراً، أصبح صورة شاهدة ومتتبعة للحدث.

وكما يقول سامر سلامة: " أترك الكاميرا تصور لوحدها بينما أنغمس أنا في أعماق القصة".

الميزة الثانية التي تجمع هذه الأفلام، هي بزوغ رؤاها بين الهنا والهناك، بين سوريا والمنفى. حيث يعبرها الشرخ هنا زمانياً ومكانياً في آن معاً.

"وهكذا دخل الجندي الطيب شفيك الحرب الكبرى مع عاداته اللطيفة والمطواعة. سيدهش المؤرخون من تبصره. وربما آلت الأمور خلافاً لما كان قد صرح به ولكن لنتذكر بان صديقنا شفيك لم يتلق أي تدريب ديبلوماسي." (الجندي الطيب شيفيك) ياروسلاف هاشيك (12)

ظهر فيلم مزرعة الأبقار لعلي الشيخ خضر عام 2016 إلا أنه كان قد بدأ به عام2010، وهو فيلم تخرجه. (13)

يتبنى الفيلم متوسط المدة منظوراً استثنائياً ضمن السياق عن مزارع من ريف سلمية شرق حمص وحماة ويبدو أن هذا اللا اصطفاف يسبب الضيق لدرجة أن مدير صالة عرض مستقلة في فرنسا رفض أن يعرضَ الفيلم لأنه رأى فيه دعاية للجهاديين، بينما أحجم لاجئ سوري عن نقاش الفيلم بعد سماعه لهجات موالي النظام فيه.

صراع التأويل هذا يشير تماماً إلى صعوبة تدخل الفرد في المنطقة الواقعة وراء خطوط الجبهات، ولكنه في الوقت نفسه دخول في قلب خط الصدع.

مع ذلك فإن هذا الوضع الذي يكتنفه غموض متعمد بالإضافة إلى آليات تعميق الهوة يسمحان على طريقتهم بالتعبير عن الانفصام الإجباري بين الأصدقاء والأعداء والمفروض على الجميع، حتى على الأشد صلابة.

يربي حسن المنعزل في قريته عشرات الأبقار داخل اسطبل مبني من الطوب الأبيض، يبيع حليبها في المدينة ويعود مع بعض عبوات البيرة في كيس أسود يعلقه بمقود دراجته النارية الصينية.

تشكل هذه القطيعة عن عائلته الإسماعيلية شكلاً من أشكال التنسك المتجنب للبشر الذين يفضل عليهم حيواناته.

حدث الانقطاع الأول عام 2010 بعد تجهيز مكان التصوير، إذ توقف الفيلم في مراحل تصويره الأولى، ووضع المخرج كاميرته بانتظار ما يحفزه على إكمال التصوير.

تغيير عام 2011 تجلى على الشاشة بتلاش إلى الأسود، أما اللقطات التالية لهذا التلاشي فكانت لمتظاهرين في الشارع على قناة شام التلفزيونية مدمجة كفيديو ضمن الفيلم. يلوذ المتظاهرون بالفرار وأحدهم يحمل جثة على ذراعيه، جندي يصوب نحو المصور بينما تدوي أصوات الأسلحة الأوتوماتيكية.

وبصوت المعلق نسمع: "لقد قاد العنف الشديد للنظام البلاد إلى الحرب وانقسم المجتمع السوري بين موال للأسد ومناهض له"

تتبع ذلك بيانات لفصائل مختلفة من المعارضة ومشاهد قصف.

مبنى سكني تحول إلى غيمة من غبار، وجسد ملقى من أعلى البناء

بصوت المعلق: "ماذا يفعل حسن في خضم هذه الفوضى الخانقة"؟

الشمس تشرق على المزرعة عام 2012 وتعبر السماء مروحية مقاتلة.

يتابع حسن الأخبار من على فراشه عبر شاشة تلفاز صغير موضوع على أحجار إسمنتية. ثم يعلق عليها من أجل ابن أخيه المتهكم.

"علينا أن نأخذ السلاح ونؤسس كتيبة البقر، سنسقط النظام بالبقر، رمز الثورة السلمية. ستعبئ البقرات سلاحها وتقول: نحن متظاهرون إسلاميون مسالمون لا نريد أذى لأحد، نحن كتيبة البقر."

يتابع حسن تحليلاته المتعجلة، فيبدو منتقداً للمعارضة المسلحة ومندداً بالممارسات التخريبية حين يتحدث عن "خبث الإخوان المسلمين" من جهة، وحين يقول أيضاً عن الانقطاعات المتكررة للتيار الكهربائي "إنه لأمر مرهق نفسياً ألا يكون لدينا كهرباء ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى حمل السلاح وتخريب كل شيء

علينا أن نجد وسائل أخرى لوضع حد لهم هم والصهاينة معاً"

هناك لبس دائم بين الهم والنحن والمعاداة الرسمية العتيقة للصهيونية ولكن بالنسبة لحسن فالموضوع هو إما بشار أو إسرائيل.

ومن جهة أخرى عندما يأتي إعلان المذيعة عن أن وزارة التربية ستضيف مادة حقوق الإنسان، يعلق هو:" أكره حقوق الإنسان، إنها لا شيء إنهم لا يفعلون شيئاً". ثم يضحك كثيراً عند ظهور وزير الخارجية وليد المعلم على الشاشة ليقول بأن المعارضة قد ضللت، ويرمي نكتة: عندما بدأ النظام باستعمال البراميل المتفجرة، اتبع وليد المعلم حمية غذائية خشية أن تتم دحرجته هو الآخر كبرميل.

يكمل هذا المشهد الساخر مداخلات لابن أخي حسن بينما تمر على شاشة التلفزيون دعاية مصورة داعمة للجيش السوري ومنددة بدولة قطر.

بعد ذهابه إلى الإمارات تجنباً للانخراط في الخدمة العسكرية مدة سنتين ونصف، اختطف حسن من قبل إدارة المخابرات الجوية لأنه فار، فضرب وتلقى السياط على أقدامه ورجليه وظهره وكسرت أسنانه.

يظهر حسن في الجزء الأخير من الفيلم في حالة قطيعة مع عائلته. أمه تذكره بأن نصف المدينة في الجيش الآن، وأن بعضاً من أبناء عمومته يخرجون في المظاهرات،

وحسن الذي تتقاذفه الأحداث يوازن ما بين الحرية وثمن الخبز، والتبغ والمحروقات، ويفكر بأن الحرية مطلب محق ولكن ربما كان من الممكن القيام بذلك على مراحل.

مع ذهاب المخرج إلى القاهرة ليتفادى بدوره الخدمة العسكرية أيضاً يحدث الانقطاع التوقف الثاني للفيلم. خلال هذا الوقت يلتحق حسن بالجيش لكونه من الاحتياط وفي مقاطع تلفزيونية مصورة يظهر مشاة من الجيش يتقدمون في أحد الشوارع بحماية إحدى الدبابات.

في أيار من عام 2013، حسن يلقى حتفه مع- ضد الجيش السوري الحر.

فيلم شباب اليرموك لأكسيل سلفاتوري سينز والذي تم تصويره بين عامي 2009 و2011 يسبق فيلم علي الشيخ خضر بقليل. وتشكل الخدمة العسكرية موضوعه الرئيسي أيضاً. (14)

وكما في فيلم فراس فياض، التقطت المشاهد العامة لمخيم اليرموك من أعالي جبل قاسيون،

مجموعة أصدقاء تنتمي إلى الجيل الثالث من لاجئي مخيم اليرموك الواقع جنوب دمشق، يعتريهم هاجسان، الإفلات من نداء الخدمة، والمغادرة. يتمكن علاء من ذلك عندما يذهب لدراسة السينما في التشيلي، بينما يخفق سامر في ذات اللحظة، أما حسَّن فهو يكمل دراسته مرتدياً الزي الرسمي لجيش التحرير الفلسطيني التابع للجيش السوري. سنشاهده كثيراً في هذا الزي الذي يرتديه كبدلة مسرح مع النسر السوري فوق قبعته الحمراء.

يلاحظ حسَّن أن الثورة قد بدأت تلقي بظلالها على حياة المخيم، ولكنه يشرع في تأسيس طابق آخر على سطح عمارته، من أجل زواجه ويقول "بأنه قد بدأ يشعر بالانتماء إلى اليرموك أكثر من قبل"

فبالنسبة لحسَّن كما هي الحال مع أبيه، المخيم "قطعة من فلسطين".

هل كانت تلك استراتيجية للتستر المتهكم على وسائل التواصل، صعوبة في تقدير سرعة تطور الموقف، أم أنه كان إنكاراً بريئاً وبسيطاً.

في كل الأحوال يبدو أن حسَّن قلل من شأن تمدد أحداث عام 2011 في محادثة عبر السكايب مع علاء السعدي:

"ما هي هذه الثورة في درعا؟

كل شيء تمام والدرعاوية مرتاحون.

يتمازحان قليلاً ثم يقول سامر: ماذا؟

إنهم مندسون، وكل هذا كذب يتابع حسَّن.

مندسون هكذا؟

نعم ليس هناك شيء

إذن إنهم زعران وحسب.

لاشيء لاشيء

إذن الموضوع لا يعنينا ليس هناك شيء.

المنطقة بأكملها غير مكترثة

في المقطع الأخير من الرسالة الجماعية التي قرأت عن بعد في ختام الفيلم، تختم رفيقتهم تسنيم بالآتي:

"هنا كل كما في كل مكان على الأرض، نحن مازلنا نحلم، ونرفع رأسنا لنرى إن كانت السماء قريبة. هنا نخبئ أيامنا بعيداً عن الجنود والأصوات، نعرف بأننا سنعيش يوماً دون الحاجة إلى القتال من الأجل التنفس، آمالنا وإخفاقاتنا تكبر، وخيمتنا تضيق". (15)

في الحقيقة بعد عام 2011 (تسنيم تلعب هنا على أصل تسمية مخيم اليرموك والذي كان مجموعة من الخيم) سيُقصف مخيم اليرموك ويحاصر ثم تجتاحه داعش وتدمره، أما شعبه فيغدو بين قتيل ونازح.

حسن يختفي في أيلول عام 2013. تلاش إلى الأسود.

سيخصه أكسيل سلفاتوري سنز أيضاً بفيلمه القصير عزيزي حسن (فرنسا 2014)

والذي تمت عملية مونتاجه في فرنسا في خضم التمزق والبعد والاختفاء مع ما بقي من حسَّن الصديق، مزق قميصه وعليها صورة لتشي غيفارا. (16)

صديق آخر هو ثائر السهلي يجمع بدوره لقطات دمار لمدرسة ولمشفى اليرموك، بعض هذه اللقطات كانت قد صورت من قبل حسن في ميغ سوريا 2013

عنوان فيلم سامر سلامة (نحن ولاد المخيم 194) (17) (عام 2017) يحيل إلى القرار 194 للجمعية العامة للأمم المتحدة الذي يحدد مبدأ حق العودة للاجئين الفلسطينيين منذ عام 1948. وينبغي أن ينظر إليه كجزء من ثلاثية يشكلها مع فيلمي (شباب اليرموك) و(ميغ)، حيث نجد في الأفلام الثلاثة نفس الشخصيات ونفس لقطات المخيم مصورة إما من النافذة أو من على سطح أو شرفة من قبل مجموعة أصدقاء المخيم.

"لقد بدأ الربيع العربي، يجب أن التحق بالخدمة العسكرية"، يعلن صوت المعلق، بينما تهم الشمس بالإشراق على اليرموك.

حاول سامر وبمساعدة من حسن أن يحصل على توصية لكي يمضي فترة خدمته الإلزامية في فرقة المسرح العسكري.

خلال لقاء من أجل فلسطين حرة ومن على منبره يوجه أحد المحاربين القدماء ألف تحية لثورتي الشعبين التونسي والمصري، ويحث الجموع على مواجهة القمع والديكتاتورية.

في الخامس عشر من أيار والخامس من حزيران تتحول ذكرى النكبة والنكسة إلى مسيرة باتجاه الجولان. ويتحول شعار ثورة آذار ضد النظام إلى "الشعب يريد تحرير فلسطين". حتى إذا بدأ انطلاق رشقات الرصاص واشتعلت الرايات محترقة بزغ تحول جديد في الشعار الذي أصبح "الشعب يريد سقوط من يستغل قضيته"

يعلق هنا صديق لسامر قائلاً: "إنهم يستخدموننا كقنابل دخانية للتعمية على واقع المجازر الحاصلة في سوريا."

في هذه الأثناء حسَّن ووعد يتزوجان ويكادان ينهيان تشطيب شقتهما على السطح

إلا أن قذيفة دوشكا اخترقت السيراميك الحديث في حائط الحمام. وبعد قليل تصبح المدرسة هي المستهدفة بالقصف.

تتدلى صورة للرئيس السوري على الحائط الوحيد المتبقي.

سامر يقوم بزيارة للشقة المدمرة لأستاذه في الدراسات السينمائية. يُخرج من علبة معدنية مدورة بكرة 35 مم ويسحب شريط الفيلم مجرجراً الشريط خلفه حتى الشارع.

قطع. سامر الآن في فرنسا يعشق لقطات مصورة في مخيم اليرموك بتلك المصورة في قطار باريس كي يجسد تشابك الحكاية السورية مع حكايا الحياة.

"الانحدار نحو الأسوأ لا يمكن أن يدوم للجنس البشري لأنه ما إن ينزل إلى درك ما حتى يدمر نفسه بنفسه.

لهذا فإنه عندما تتراكم الذنوب والخطايا إلى حد ما يقال: لن يتفاقم الأمر أكثر من ذلك إنها نهاية المطاف.

ويحلم الورع المتبصر بعودة كل شيء وبتجدد العالم كلما انغمس الكون الحالي في النار."

كانط (صراع الكليات). (18)

علي الشيخ خضر أراد تصوير مزرعة ابن عمه في سلمية، أكسيل سلفاتوري سينز وسامر سلامة أرادا تصوير حياة وصمود أصدقائهم في الحي الفلسطيني بدمشق.

سجلت كاميراتهم اندلاع الثورة وحاولوا تتبع متاهة الأقدار الإنسانية بين حتمية السياق وهوامش الوكالات، بين البطولة والشهادة، بين المنفى والموت.

صورهم تتمازج وتدخل في حوارات خالقة ما يشبه كومونة صداقة عالمية عن بعد.

ولكن هل وضعوا بحسبانهم حقاً كل التعقيدات والأحداث، والعقبات الشخصية وهذا الانقطاع التاريخي.

وهل سننتهي يوماً مما أسماه كانط: المفهوم الإرهابي للتاريخ البشري؟

* أنطوان هاتزنبرغر: أستاذ ودكتور في الفلسفة، حاصل على ماجستير في الإسلاميات من جامعة ستراسبورغ، وعضو مشارك في l'Institut d'histoire des représentations et des idées dans les modernités. صدر له مؤخراً: Les Insulés : exilés politiques en Corse (Paris, Riveneuve, 2020).

الهوامش

1Nietzsche ([1882-1887] 1993), Le Gai savoir trad. H. Albert et J. Lacoste, Paris, Bouquins.

2J'ai esquissé ailleurs une analogie entre révolutions et tremblements de terre, dans L'hiver à Tunis et le printemps (2011), Les Temps modernes, 664, « Soulèvements arabes », Jeanpierre, L., Maniglier, P. (dir.), p. 21-25.

3Arendt, H. ([1954) 1972), La Crise de la culture, préface, trad. J. Bontemps et P. Lévy, Paris, Folio.

4Voir Al-Sabouni, M. (2018), Dans les ruines de Homs : journal d'une architecte syrienne, trad. J. Breta, Marseille, Parenthèses.

5Yassin-Kassab, R., Al-Shami, L. (2016 et 2018), Burning Country : Syrians in Revolution and War, Londres, Pluto Press, (« Syria dismante- led ») ; Paris, L'Échappée.(2019)

6Littell, J., (2012), Carnets de Homs, Paris, Gallimard, p. 49. « Avant la révolution, il y avait bien sûr de la résistance passive au régime, mais les gens restaient insérés dans le maillage général par de très nombreux liens. Maintenant, ce second maillage s'est complètement dégagé du premier, cou- pant tous les liens un par un. Or les deux ne peuvent coexister et la lutte est mortelle. L'un des deux doit être défait, et ses composantes détruites ou réabsorbées par l'autre« .

7Voir le dispositif entre la Syrie et l'Europe de Sasse, E. (2018), The War on my Phone.

8Voir Vermeersch, L. (2015), À propos d'Eau argentée, Syrie autoportrait, Vacarme, 73: 39-15, à propos du film de Ossama Mohammed et Wiam Simav Bedirxan.(2014)

9Boëx, C. (2012), Un cinéma d'urgence : entretien avec le collectif Abounaddara, La Vie des idées. Voir aussi Béghin, C.,

Zabunyan, D. (2015), Fragments d’une révolution : rencontre avec le collectif de vidéastes syrien Abounaddara, Cahiers du cinéma, juin 2015, p. 68-73.

10Voir en particulier Boëx, C. (2013), La création cinématographique en

Syrie à la lumière du mouvement de révolte : nouvelles pratiques, nouveaux récits, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 134: 145-156 ; et Boëx, C. (2013), La grammaire iconographique de la révolte en Syrie : usages, techniques et supports, Cultures & Conflits, 91-92: 65-80. Voir aussi Appelt, N. (2018), Un cinéma affranchi du contrôle de l’État : le docu- mentaire syrien d’après 2011 ou la construction d’un récit national contras- té, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 143.

11Zabunyan, D. (2012), Mal de fiction et passage de l’histoire, Trafic, 82: 5-15 (p. 9). Voir aussi : La Syrie en images : de la banalisation de l’horreur à l’horreur du banal, AOC, 24 avril 2018.

12Hašek, J.([1921] 1932), Le Brave soldat Chvéïk, trad. H. Horejsi, Paris, Gallimard.

13Ali Sheikh Khoudr, The Cow Farm (Mazraat al-abkâr, Syrie/Égypte, Fakturafilm, 2016, 60’). Voir Jaafari, S. (2015), In

Syria there is no black and white, says Syrian filmmaker, The World, 23 avril 2015 ; Ackerman, E. (2015), Searching for a true story of the Syrian civil war, The New Yorker, 18 avril 2015 ; Segal, C. (2016), Syrian filmmakers tell the stories you aren't hearing about the Syrian war, série « Syrian voices », « Canvas », Public Broadcasting Service, 4 janvier 2016.

14Salvatori-Sinz, A. (2012), Les Chebabs de Yarmouk, France, Taswir, 77.'

15Tasneem Fared joue le rôle de la mariée dans le film sur l'immigration de Augugliaro, A., Del Grande, G., Soliman Al-Nassiry, K. (2014), Je suis du côté de la mariée (Lo sto con la sposa), Palestine/Italie.

16Il faut mentionner également son film posthume, Les Chebabs, le film et moi, France, 2019, 77.'

17Salameh, S. (2017), 194. Nahna, oulad al-moukhayyam, Syrie/Liban/

Palestine, Bidayyat, 90.'

18Kant ([1798], 1990), Le Conflits des facultés trad. S. Piobetta, Paris, GF-Flammarion.

أوراق التشكيل

ملامح سقيمة، حياة متآكلة

المعنى في وجوه سهف عبد الرحمن

علي سفر

كاتب وشاعر سوري

"ما هذه الوجوه؟"

"لقد رأيتها من قبل، لكنني لا أذكر أين؟!"

"كيف تتسرب إليَّ ملامحها، رغم كل هذه الطبقات من الوهن والأذى الذي أصابها؟!

أأنا أقف أمام مرآة؟

كيف تتمكن كل لوحة من أن تنقل لي جزءاً كامناً في دواخلي؟!"



يفترضُ القارئ/ المشاهد، هذه الأسئلة، وهو يشاهد لوحات سهف عبد الرحمن، ضمن مشروعه الذي يحمل عنوان " ربما أحد ما هنا".

وربما يتعذر عليه طرح الأسئلة، فنحاول أن نلعب دور الوسيط بينه وبين السطح المتموج للوجوه، أو المساحة التي تراكمت فيها طبقات الألوان، بين التأسيس، وبين تتبع الأشكال المفترض للوجوه، وقد انتقلت من حيزها الواقعي إلى نهر الأفكار والهواجس والتجارب والرغبات، في رأس سهف، فأعادها إلى الواقع مرسومة بهذا الشكل!

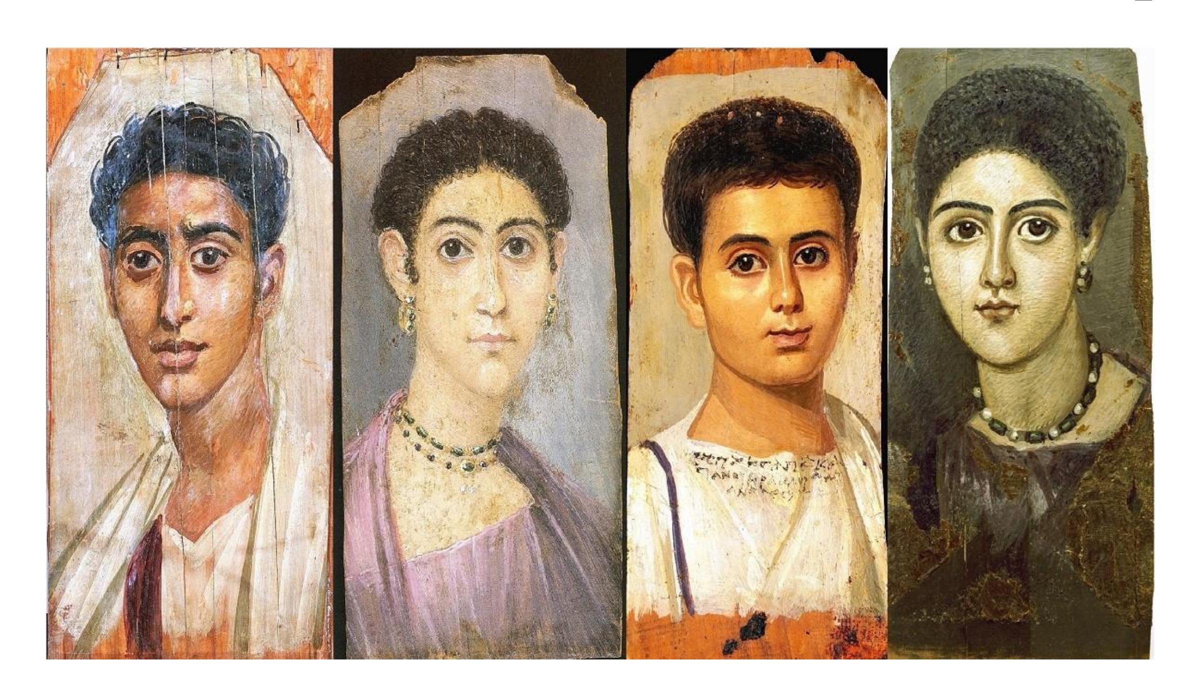
استنطاق الشخصيات، قد لا يفيد هنا، طالما أننا نخضع لرغبة الرسام، فهو من يحدد ملامح الأهوال التي أصابتها، فأمسى نطقها، أو حديثها عن نفسها، محدداً سلفاً، فهي الضحية، وهي صاحبة الألم، وهي الساذجة، وهي الغارقة في غيبها العقلي، وهي البائسة، إلخ

لكننا ونحن نحاول رصد المصائب المتكاثفة على الوجوه، سنغرق شيئاً فشيئاً في استحضار الشخصيات التي نعرفها، لا شخصيات سهف عبد الرحمن التي اشتغل عليها في هذه اللوحات!

وضمن هذا المسار في التلقي إلى أين ستمضي بنا هذه التجربة في استنطاق الدواخل، والذاكرة، واستحضار الشخصيات الغائبة؟



2

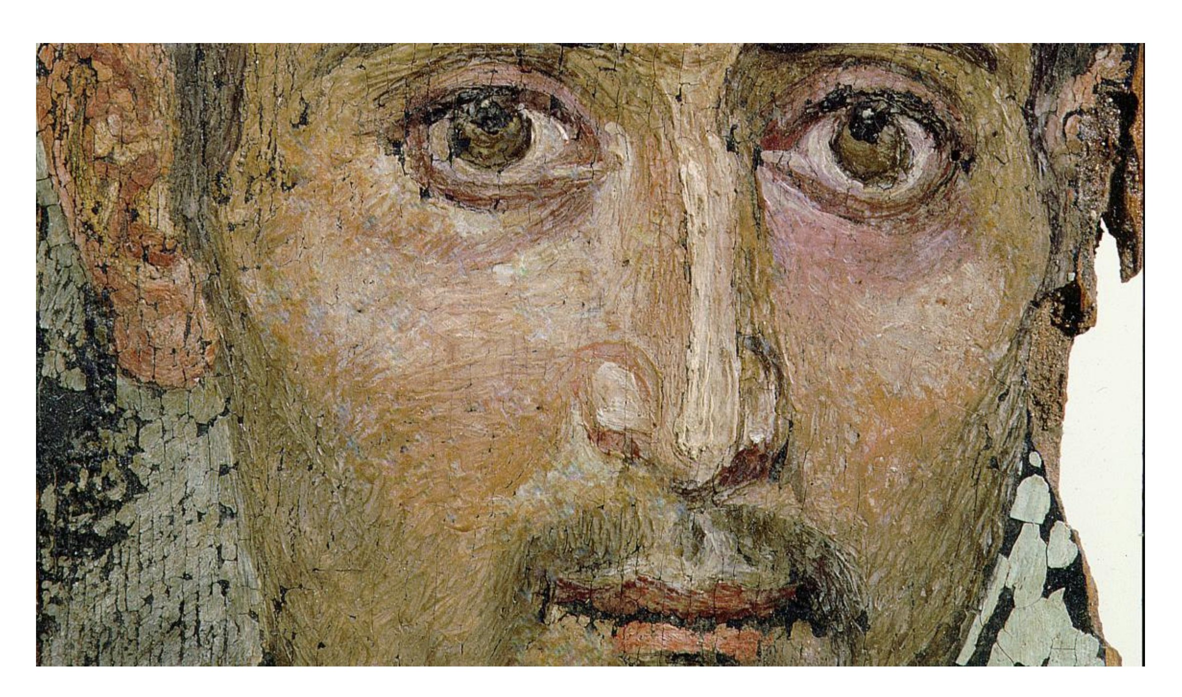


كانوا يصورون الموتى!

يرسمون وجوههم على أغطية التوابيت!

حدث هذا في مصر القبطية الرومانية، إذ يحتاج المرء إلى أجوبة لأسئلته من جديد، وهو يرى وجوه الفيوم، فالشخصيات التي تم تصوير وجوهها عبر الكاميرا، وعبر رؤيتها بشكل تتابعي، لن تجعلنا مستغرقين في مسألة الموت وطريقة التعبير عنه، أو طريقة تحديه!

بل إننا سننتقل فوراً إلى رؤية الشخصيات بكامل بهائها، أو ألقها، وسنهرع للتمحيص في قدرة الفن البسيط على اختراق المسافة المصمتة للموت، حيث سنرى عوالم الشخصيات من خلال تفاصيل عيونها، وطريقة تصفيفها لشعرها، كما أننا سنبحث في شكل الشفاه، ورسم الوجوه، وسنخلص في المحصلة إلى تقدير عالٍ لذلك الرسام الشعبي، الذي أدى عمله بإتقان، فجعلنا وبعد مئات السنين، نتجاهل التفكير بالأجساد المتحللة في التوابيت، أو تلك التي تم تحنيطها، ونبتعد عن طرح الأسئلة عن الطبقة الاجتماعية، التي تدل عليها قبور بسيطة بتوابيت عادية، ربما، ولكن بوجوه باقية!



لا يحتاج رسامنا المصري هنا، لأن نذكره بأن فكرة مواجهة الموت، والبحث عن أبدية الشخصيات، فالأهرامات قريبة منه هو، وقد كلفت الفكرة الغرائبية لدى العائلات التي حكمت مصر، مئات آلاف العمال الضحايا، من أجل تأبيد حضور ميت واحد فقط!

ولكن، كم كان الحل ذكياً وبارعاً، هذه المرة، فلا أحد منا يعرف شكل وجوه أي من الفراعنة خوفو وخفرع ومنقرع، الذين تتراصف أهراماتهم وراء بعضها في الجيزة، لقد أحتاج تشكيل وجه بعض ملوك الفراعنة القيام بعملية إعادة تكوين عبر برامج الرسم ثلاثي الأبعاد ((D3، رغم وجود الآثار الدالة على مرورهم في الحياة!

لكن الرسامين الذين تركوا لنا وجوه الفيوم الجميلة، وبالتفاصيل التي منحوها لشخصياتها، نقلونا إلى عالمٍ أكثر دفئاً من الحجارة العملاقة التي بنيت منها الأهرامات.

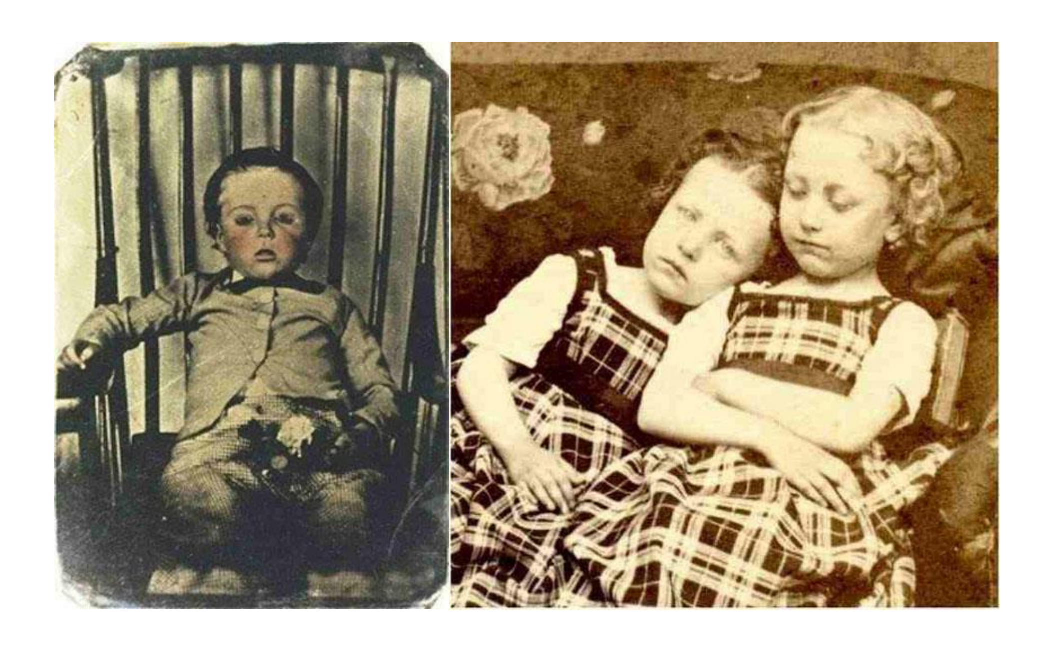
ومن موقعنا كمشاهدين، سنذهب في رحلة متخيلة مع كل واحدة منها، فنبني تفاصيلاً، ونهدم أخرى، ونعيش في مدن وأوطان، ونهجر مدناً وأوطاناً، إننا نترك أنفسها في نهر الماضي المتخيل، للشخصيات الميتة، ونستسلم لها، فلا نفكر إلى أين تأخذنا، وكيف تتركنا!

لكن ما نحن متأكدون منه، هو أننا لسنا ما نشاهده، وأن ثمة مسافة يجب أن نحترمها ونحن ندخل عالم هؤلاء الموتى، لا لتقديسهم، وتبجيلهم، بل لجعل مساحتهم الخاصة أكثر إشعاعاً، بدلاً من أن نطمس ملامحها في ذواتنا، وهي تعبر المشهد النادر لمثل هذا الانتصار الجمالي على الموت!



3

في فيلم (الآخرون –The Others) للمخرج الإسباني أليخاندرو آمينابار والذي لعبت دور البطولة فيه نيكول كيدمان، تحضر على سطح الحكاية وجوه لموتى في العصر الفيكتوري التقطت عبر الصورة الفوتوغرافية! ورغم الإحساس الحميمي الذي دأبت الصور بالأسود والأبيض، وقد عتقت فصارت ألوان ورقها المقوى ضائعة لونياً بين الأصفر والبني، إلا أن صرامة الموت الواضحة على الوجه، ستطردنا فوراً من أي خيال محتمل، يقترب من عوالم هؤلاء الغائبين، الذين قررت عائلاتهم بعد وفاتهم أن تحتفظ بحضورهم، فالتقطت لهم الصور بحضور بقية أفراد العائلة!



هنا لابد من التفكير بقدرة العادة، أو التقاليد على جعل الحزن الذي يفترض أن تحمله وجوه الأحياء المنكوبين بأحبائهم، صرامة وقوة تنفر ملاحهما في الصورة!

وكعادة أي فيلم رعب نفسي، ستنتقل إلى الشخصية الرئيسة في الحكاية غريس ستيوارت، الهواجس عن تلك الأرواح التي تتجول في البيت الذي تسكنه وطفليها مصابين بمرض نادر هو الحساسية من الضوء، وستكتشف أن كتاب الموتى الذي وجدته في المكان، وبالصور التي يحتويها لشخصيات راحلة، سيكون مدخلاً لاكتشاف طبيعة وجودها وطفليها في الحيز المشترك مع الآخرين، وهنا، لن يفهم المشاهد في اللحظات الأولى للتصاعد الحكائي الدراماتيكي، والسقوط المفاجئ بعد الترقب والتشويق، أن من يظنون أنفسهم أحياء، ليسوا في الحقيقة سوى موتى، يرفضون أن يغادروا البيت، وأن تلك الاستحضارات الشبحية، لم تكن مستجلبة من صراعات نفسية داخلية، بل كانت لأحياء يحاولون أن يكتشفوا سر الموتى الراسخين في الفضاء المشترك!

وهكذا ستضطرب النهاية في سياقها الفيلمي، لكن معرفة الحقيقة ستترك أثراً هائلاً لدى المشاهد، الذي سيتعرف وعبر جرعة فنية إضافية إلى أي درجة يكون الأحياء قريبين

من الموتى، والعكس صحيح، وكيف يمكن للصورة أن تدمج بين الفضاءين، في ميكانزمات تفكيرنا!

فالانتقال عبر الصورة من عالم الموت، إلى الحياة، لا يتضمن دائماً رسم الوجوه وبشكل يضيف على ملامحها زوائد تنتمي إلى عالم الرسامين أو رغباتهم بالأحرى، بل يمكن أن يتم الأمر عبر الفوتوغراف، ففي كل صورة من الصور الفيكتورية، لن نعرف من الميت ومن الحي سوى عبر إغماض الموتى لعيونهم، بالتقابل مع العيون المفتوحة بقسوة لأفراد عائلاتهم!

صحيح أن غريس ستيوارت لم تغمض عينيها لتتخيل موقعاً لها بين عالمي الحياة والموت، لكن المشاهد الذي سيتماهى مع الحكاية سيغمض عينيه للحظة، ليفكر بالمعادلة الممكنة، الذي يصنعها الفن ههنا، ليكون السؤال؛ من منا الحي ومن منا الميت؟

هل نحتاج لتهديم ملامحنا، كي ندلل على كينونتنا، بين الضفتين، يمكن لإحداهما أن تكون المرآة/ اللوحة بوصفها صورة الموت، وربما الحياة؟!



4

الوساطة بين الوجوه في اللوحة التي يقدمها سهف، وبين فهمها، وقراءة ما تحتويه، من مسارات وعوالم معقدة، رغم بساطتها، ستحتاج ربما من الباحثين إلى تعمق أكبر في حالات رسم الوجوه (البورتريه) بوصفها جزء من الاشتغال الفني التاريخي العظيم للفن التشكيلي.

ولكنها بالنسبة للمشاهد السوري، أو السوري الذي يتأمل في تكوينها وملامحها، ربما ستحتاج إلى شيئين أو طريقين للقراءة والتحليل، يمكن الاستغناء عن أحدهما لصالح الآخر، طالما أن المتعة من واقعة المشاهدة قابلة للتحقق دائماً؛

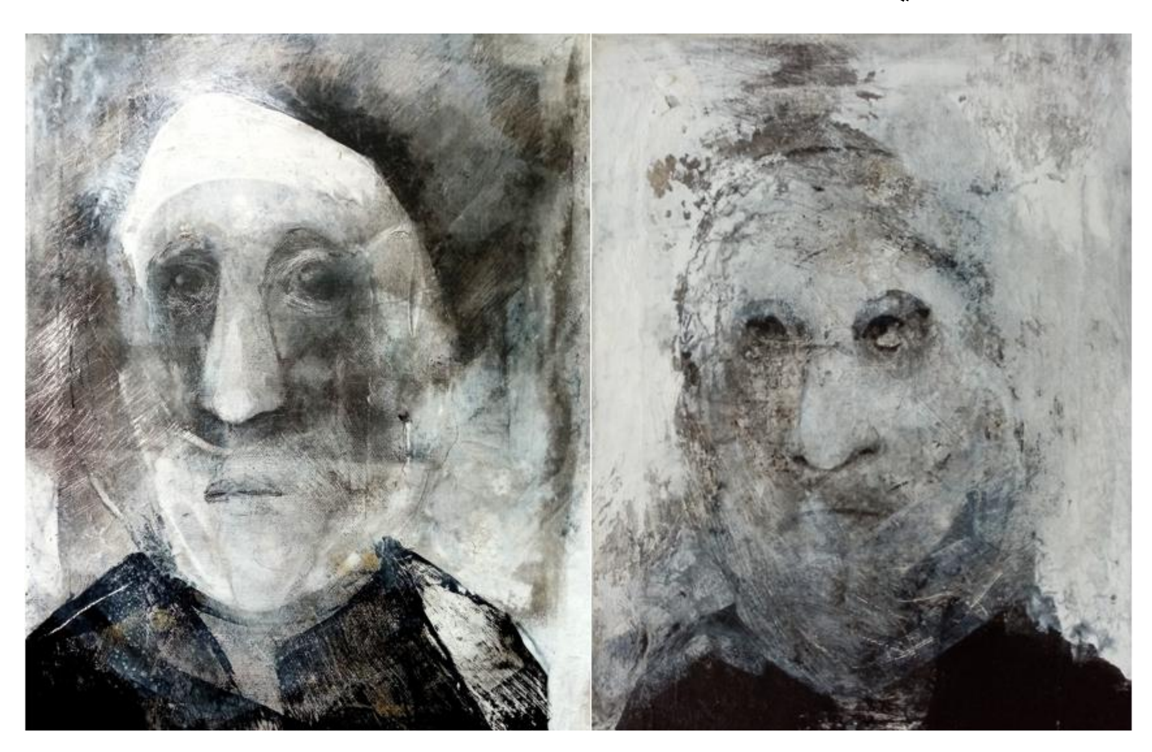


الأول: هو الحساسية العالية للضوء في اللوحة، والقدرة على أن تتجول العيون في سطوحها فتتابع التموجات التي تفرضها طبقات اللون، كما تستطيع أن تتأمل وجود مساحات لم يراكم الرسام، متعمداً، اللون بكثافة كما في مساحات أخرى، تاركاً (كنوع من التقنية الفنية) المشهدية مفتوحة أمام جعل هذه الملامح موحية بالتأويلات لدى المشاهد.

فهنا وبحسب ظني لن يكون الجمهور سعيداً بالصلافة والقسوة المبهرة لمثل هذه الوجوه، ولو كان هذا الأمر محتملاً، لكنا الآن أمام تشكيلات مختلفة، تعود بنا إلى الأسلوب الكلاسيكي، الذي ينقل الوجوه كما هي، فتصبح فنيته مرتبطة بقدرته على النقل.

بينما نحن الآن في بداية العقد الثالث من القرن الأول في الألفية الثالثة، نقترب أكثر فأكثر من التعاطي مع الأشكال الهيولية، غير المتشكلة بشكل هندسي معروف أو متوقع، على أنها ممكنات، وقابلة للحضور، قد تبدأ من شكل الثقب الأسود في المجرات القريبة والبعيدة، ولا تنتهي باعتبارنا للرسومات الطفلية التي ينجزها الأطفال في المدارس الابتدائية نوعاً من الفن الخالص النقي!

ولهذا، لا مجال هنا للبحث عن الأشكال المحددة ضمن فهمنا الحياتي والمادي لما نعيشه، بل إننا نجد في تقنيات التكسير والتهشيم مدخلاً للدخول إلى ما هو أبعد من المتاح والمدرك في عوالمنا!



هذا ما يفعله سهف على المستوى التقني، كمدخل –ربما–لجعلنا نغوص في الطريق الثاني الذي نرى أنه مقترح هنا؛ وهو أن نتعاطى مع الشخصيات المرسومة بناء على

المعطى النفسي الذي تثقلنا به الحالة السورية، ففي فضاء لا يمكن أن نعبره دون أن نتصور أنفسنا موتى بفعل القهر، وبفعل الأثر الكارثي لجرائم غير مسبوقة على مستوى الإنسانية، ولاسيما القتل تحت التعذيب، والذي أنتج ظاهرة غاية في الحفر داخل الذاتي البشرية هي صور قيصر، التي غالباً ما تمت مقارنتها بصور الهولوكوست وضحايا معسكرات الاعتقال النازية.

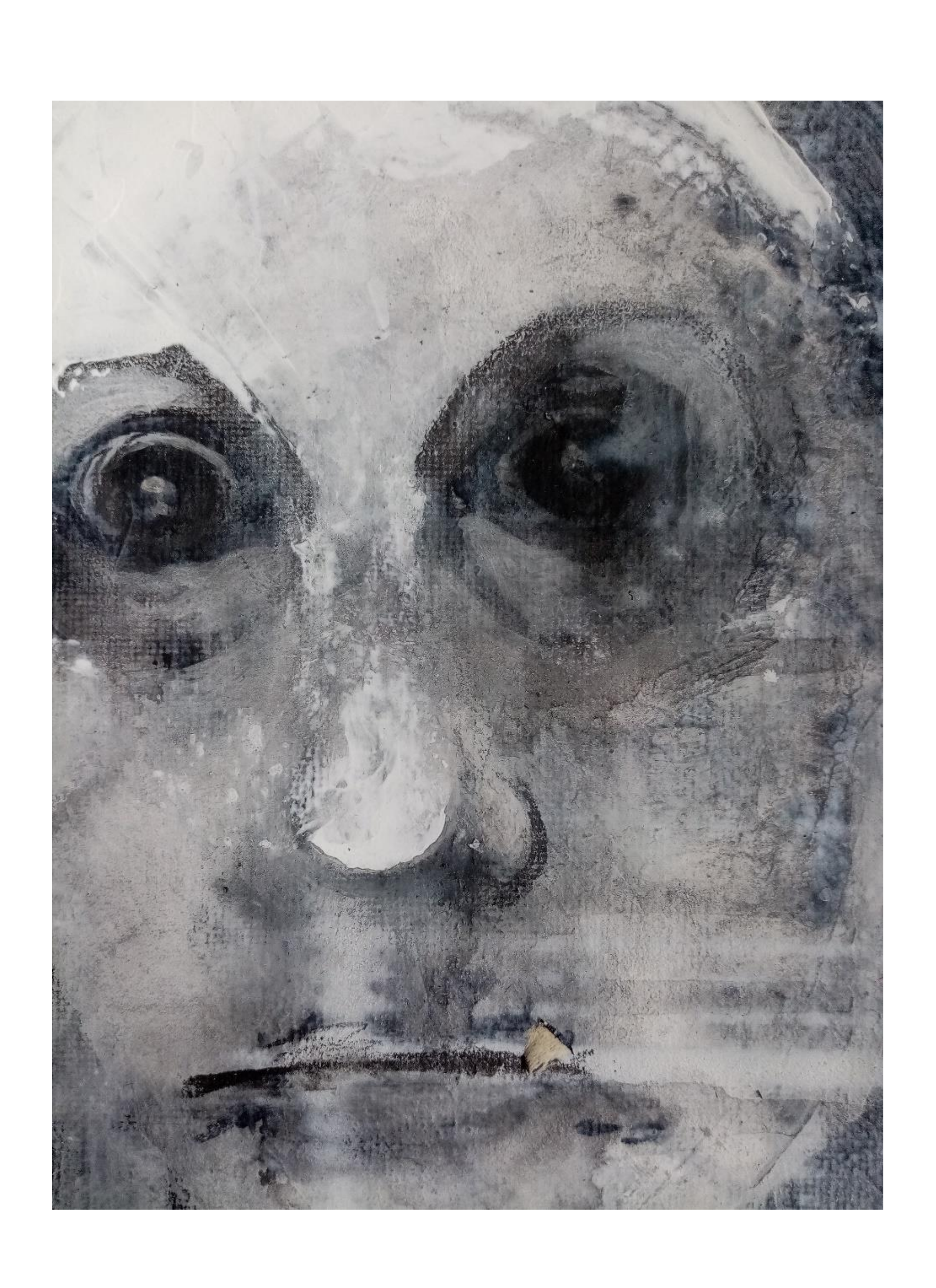
الصور السورية المريعة، وبما تضمنته من خلاصة لمعنى فعل المحو، وتذويب القتلى ضمن الملامح المبهمة، التي يختصرها الرقم المكتوب بعجالة على رؤوس الضحايا، وبما يجعل من الصعب على الآخرين التعرف على أصحابها، لا تخط في النهاية شيئاً من منعكسات في الذاتي البشرية سوى ديمومة الأذى، خاصة وأن القتلة مازالوا بعيدين عن يد العدلة، وضمن هذا الإطار لا يمكن لأفراد يعيشون الحالة السورية بكل قسوتها إلا أن يتماهوا مع ضحايا القتل تحت التعذيب، فلا يرون في أي سلسلة متتالية من الوجوه سوى أصداء للثائرين الذي ماتوا في أقبية نظام الأسد!

هنا، لسنا بحاجة لسؤال سهف إن كان قد أراد فعلياً أن يجعل الجمهور يعايش هذا التأويل، لكننا نتلمس القسوة الرازحة في المعنى، إن كان في مثل هذا النزوع الفني، أو ما يشبهه في فنون موازية.

إننا نرى أنفسنا في لوحات سهف، وقد أمسينا موتى، أو ربما فينا ما يكفي، لأن نصبح هكذا، سقماء، لم ننجو رغم أننا مازلنا على قيد الحياة!

يقول سهف: " كل ما أفعله وفعله غيري من قبل لم يكن أكثر من محاولة لجعل الوجود أمراً محتملاً، الفن هو تخفيف لوطأة الوجود أو هكذا أراه، إنه العمل في حقل (ما يجب أن يكون) إذا في جوهره ومهمته هو اعتراض على ما هو كائن، اعتراض على الحدث والواقع، اعتراض على الشكل والمضمون، وهو في حده الأدنى تحسين للواقع، واعتراض عليه، وفي حده الأقصى تثوير للواقع، وإعادة صياغته شكلياً بناءً على ما يجب أن يكون.

في مجموعة (ربما أحد ما هنا) أطارد وجوهاً هربت من الذاكرة، أحاول اليوم ما استطعت، أن أستعيد حياتي، وأقبض عليها، بما ذهب مني، وما بقي منها، تلك الوجوه، ربما كانت لأناس معي في مقاعد الدراسة، أو لأناس صادفتهم في طريق ما، وربما تبادلنا الحديث، أو أكلنا سوية، أحاول استعادتهم، ومن خلالهم أطبع قبلة على جباه الناس المنسيين، أولئك الذين يحتمون بالهامش من غضب الحياة"!



سهف عبد الرحمن؛

من منفى إلى منفى أعرف نفسي وأقاوم التنكير

حوار: علي سفر

لا يرغب الفنان التشكيلي سهف عبد الرحمن بوضع سيرة ذاتية له في أي حوار يجريه مع الصحافة! فهو يرى أن التعريف يفرض سلطة قبْلية على زوار معارضه، وهو يرغب أن يذهب القارئ ههنا في هذا الحوار إلى حيث يريد، طالما أن نظرة على الكلمات ستعقبها نظرات على اللوحات وشخصياتها؛



– قبل أن ألتقيك صدفة في سوق مدينة غازي عينتاب قبل سنين، رأيت أعمالاً لك على أغلفة كتب عدد من شعراء حمص، كأنك كنت مفتوناً بالشعر، أو لعلهم كانوا مفتونين بلوحاتك؟

– بالتأكيد كنت ولازلت مفتونا بالشعر، وتربطني علاقة خاصة وصداقات حميمة مع شعراء مدينتي، كنت لاجئاً فنياً في المشهد الشعري، أغتني بحواراتهم وألاحق منظوماتهم الجمالية، كمن يطارد فراش الربيع، علاقتي معهم رسخت قناعتي وإيماني بأن الشعر مستثنى من مشروع التأخر الحضاري، الذي أنتج عبر مسيرة قرون، ولم يزل غير قابل للنقد، ومستعصٍ على الهدم، بعد أن اختلط مع مشروع الهوية، وأصبح دالاً عليها، الشعر هو الناجي الوحيد من تلك الحفرة التي تزداد عمقاً، والشعر بوصفه خطاباً جمالياً وفكرياً مكثفاً، يتناقض مع السرد الاجتماعي الدارج، والحامل لمصفوفة التآخر والكراهية، نستطيع أن نلحظ هذا التفارق فيما لو قارنا بين الشعر الصوفي والسرديات الفقهية، فكلاهما موضوعياً يعالجان الفكرة الدينية مع اختلاف الناتج، فيما تحول السرديات الفقهية الفكرة الدينية إلى مصفوفة عقائدية إيديولوجيا جامدة استنقاعية، ينقل الشعر الصوفي الفكرة الدينية إلى المستوى الجمالي، ويسمو بها لتغدو غذاءً روحياً جمالياً، الشعر حركة ثورية دائمة، ومتغيرة، ويحتوي على ميكانزمات الخطاب البديل، الذي نحتاجه للاشتغال على تغيير بنية الوجدان والعقل السائد.

– قرأت عدة حوارات معك، أجريت قبل الثورة، كنت تتحدث آنذاك عن مختبر فني متقدم، شبابي، برؤى مختلفة، هل كان المناخ الفني في حمص، يدفع بهذا الاتجاه؟

– بالتأكيد لم يكن المناخ في حمص مناسباً، بل كانت هناك طبقة من الفنانين التي نمت علاقاتها منذ زمن بعيد، وكانت هذه الطبقة كتيمة ومتماسكة لا تسمح بأي جديد، إلا من خلالها وبإشرافها، كما شكلت تلك الطبقة عبر علاقاتها مع بعضها تقاليد راسخة، وهذه التقاليد تحولت إلى مفاهيم مستقرة، أثّرت على الذائقة الفنية، مما جعل إمكانية ولادة الجديد أشبه بالمستحيل، نعم حَلمتُ بمختبر شبابي وحلمت بتجاوز ما هو قائم ومستقر، وحلمت بالمختلف والمميز في حمص، حمص حجر أسود على ضفة العاصي تحلم بأن تصبح عصفورا وأنا حلمت معها!

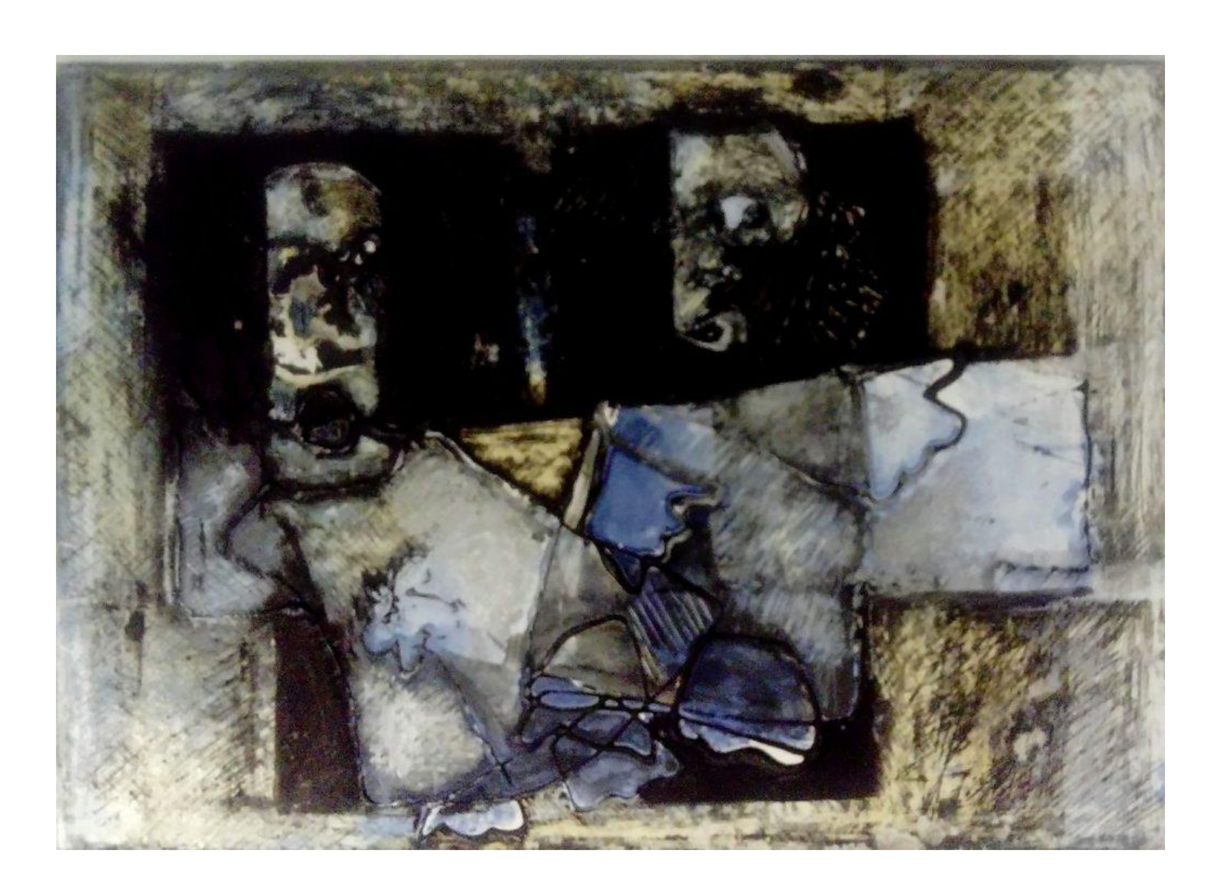


- من أين بدأت تجربتك؟

- من أول جدار في بيتنا، رسمت عليه بالطين، وبقيت لساعات أمامه، من وقع الشمس على أوراق شجر المشمش، ومن ظلالها على تلك المساحة الإسمنتية المتصدعة، كل ما أرسمه الآن هو صدى لتلك الظلال الوارفة على بنية متصدعة.

- كان الشعراء الحمامصة يعيشون صراعاً على مستوى الرؤى والبنية الفنية في ذلك الوقت، وكأنهم لم ينجزوا قطيعتهم الفنية بين التفعيلة والنثر، هل كان لهذا الصراع صداه في الفضاء التشكيلي؟

وهل يمكن قلب المعادلة ليكون هناك صدى لصراع الأنماط في الفضاء التشكيلي على الفضاء الأدبي؟



– شكلت قصيدة التفعيلة الركيزة الأساسية للمشهد الشعري بحمص، واشتغل معظم الشعراء الحمامصة عليها، وفي فضائها، وكان لتجربتهم صدى وأثر في المشهد الشعري السوري، لمعت وبرزت العديد من التجارب، اشتغل الشعراء الحمامصة على تجديد الخطاب الشعري في قصيدة التفعيلة، وصاغ العديد منهم أسلوبه الخاص، ونادراً ما تشابهت تجارب الشعراء الحمامصة، إذ كان لكل منهم صوته الشعري الخاص ورؤيته الجمالية، اقترب بعضهم من قصيدة النثر، ولكن بقي النص النثري على هامش التجربة الشعرية، ربما يعود ذلك إلى طبيعة المدينة فلطالما ارتبط الشكل الشعري ارتباطاً وثيقاً بالعمران، فحمص مدينة مموسقة، تفاصيلها البسيطة العادية وعمرانها البسيط لا يمنح للسرد مادته الأولية، كما لا يمنح لقصيدة النثر فضاء اشتغالها، قصيدة النثر ابنة لظاهرة الاغتراب في المدينة الحديثة، إنها الهروب في العادي واليومي من الوحدة والعزلة، ومحاولة نقل الحياة إلى خانة المجاز لتصبح مقبولة ومعقولة، وحمص بقيت على ضفائرها وحكاياتها الريفية، لذلك بقي شعراؤها ينشدون لها كي تكمل نومها البسيط، كذلك في التشكيل لم تمنح المدينة رساميها التناقض الكافي للسؤال والتجريب

والخروج عن النمط والمتعارف عليه، وكما أن قلة المشتغلين في الفن والثقافة ساهم في التنميط، وضيّق مساحة الاختلاف، بالإضافة إلى حالة الاستنقاع التي فرضها الاستبداد على المجتمع والثقافة، والتي تجعل من كل جديد مخيف، حمص حجر أسود محتجز بين العاصي والبادية!



- هل كان الفضاء التشكيلي الحمصي معزولاً عن الفضاء الدمشقي؟

- لحمص فضاؤها ومزاجها الخاص، بقيت بعيدة عن المركز، واكتفت بإيقاعها البطيء، بعض الفنانين الحمامصة ذهب باتجاه دمشق، وبقي العديد منهم في زوايا حمص، يؤلف لوحته التي اعتادها واعتادتها الناس.

– كيف عشت تجربة المدينة الثائرة من موقعك كتشكيلي؟

– في بداية الثورة سيطر الحماس، وحلم التغيير، واستعادة الكرامة المهدورة، على معظم الناس، كانت الحالة أشبه بخمرة ثورية طافت في رؤوسنا، فرحت بالصوت، باكتشاف الناس لأصواتهم بعد غيابها لعقود، للأسف لم يكتمل الحلم، وسرعان ما أطلت الفتنة الطائفية برأسها، حمص كانت التحدي الأكبر، فحمص عقدة الوصل وفيها نسخة مصغرة عن النسيج السوري طائفياً واجتماعياً، للأسف القيادات الشابة التي تنطعت لقيادة الحراك لم تكن تملك الخبرة الكافية، لإدارة الصراع مع نظام أمني متجذر، لعب لفترة طويلة بملفات إقليمية، ولديه من الخبرة ما يكفي لإشعال التناقضات، وإدارتها، والتكسب منها، دخلنا أو أدخلت المدينة في الحرب، صار صوت السلاح هو الصوت الأعلى، وبدأت ملامح خرابها تلوح في الأفق، و بالرغم من الثمن الباهظ الذي دفعناه، والخراب العميم، لكن النظام لن ولم يربح المعركة إذ إنه في هذه المرة يواجه التاريخ، نعم حَلمتُ مع مدينتي ونَزفتُ معها ورَحلتُ عنها.

– خرجتَ من حمص، ماذا حملتَ معك إلى منفاك القريب؟

– حملت ماض لا أحسد عليه، مازال يحاصرني إلى اليوم، حملت هزائم وأحلاماً مجهضة، مجتمعاً محاصراً بقناعاته البالية، أناس يتصارعون على الوهم، وكأنهم سيعيشون الأبد، مجتمع ذئبي، يغذي حقده بسرديات الكراهية، لست ممتناً لمدينتي، وأحبها، وممتن جداً لأصدقائي، الذين قاوموا ومازالوا يقاومون أنياب الخطاب المتفسخ، كورودٍ صغيرةٍ طافية على مستنقع آسن.

– ماذا فعل بك هذا المنفى، وصولاً إلى المنفى الراهن؟

– أكاد أشك بأنني ابن مكان ما، اعتقد بأنني نفيت من رحم أمي، وها أنا انتقل من منفى لمنفى، في كل نفي تتحول إلى مجهول، يجهد في تعريف نفسه لا يوجد ما هو

أكثر أيلاماً على الكائن من تحوله إلى نكرة، الذي فعلته المنافي بي، هو أنني ما زلت أعرّفُ نفسي إلى اليوم، وأقاوم التنكير.



– مشروعك الذي يحضر في حوارنا الراهن يحمل عنوان (ربما أحد ما هنا)، وهو سؤال يحمل الدهشة حول احتمالات الوجود في اللحظة الراهنة أو المكان الحالي، بينما تتكرس الموجات اللونية حول الوجوه، كيف يمكن تفسير الأمر لقارئ اللوحات؟

– أنا اليوم لست متأكداً من شيء، حتى من وجودي المادي! كل ما حولي هو احتمال ومحاولة، الوجود احتمال، والكائن محاولة، ومن هنا أحاول أن أثبت احتمال وجودي، العمل الفني عمل برهاني، وكلما حاولت تحسين الصياغة والتأليف اقتربت من البرهان أكثر، فما بين عنوان المجموعة وتقنيتها ومواضيعها جدل الاحتمال والبرهان، ولهذا يغدو العمل مجموعة من الطبقات التي تشف عن بعضها بعضاً وكأنها في حوار دائم.

– بحثتُ كثيراً في الوجوه كثيمة فنية متاحة ومتكررة، لكنني دائماً حين أرى الوجوه في هذه السلسلة من اللوحات أتذكر وجوه الفيوم المصرية! لقد رسموا وجوهاً بهية للموتى، لكنك تستعيد صوراً شبحية لأشخاص ربما مازالوا على قيد الحياة، أو يعيشون في ذاكرتك على الأقل؟

– هذه المجموعة تحديداً والتي تقارب الخمسين عملاً، هي رحلة في أعماق ذاكرتي، محاولة لاستعادة وجوه وأناس غطاهم الزمن بغباره، ودفعتهم الحياة بعيداً إلى قاع الذكريات، إنها تحية صغيرة للناس المنسيين للهامشيين تحية بحجم زهرة ياسمين.

– كيف ترى الاشتغال التشكيلي السوري في المنافي؟

– لم تتشكل إلى اليوم ظاهرة تشكيلية سورية في المنافي، لم يزل الوقت مبكراً، هناك من يجتهد ويجرب، وهناك من بقي متحصنا في مفاهيم وحساسيات القرن الماضي، ولا يملك الجرأة أو القدرة على تجاوزها!



أوراق النقد

(التشاكل المعنوي الحسي، والمعجم اللغوي)
في مجموعة صليل الآه للشاعر محمد عارف قسوم

محمد طه العثمان

شاعر وناقد سوري

عندما ندرس نصاً شعريا أول ما نوجّه إليه اهتمامنا هو (النسق) وعلينا أن نكتشف العناصر النفسية أو الحسية أو المعنوية المكونة له والعلاقات التي تربط الكلمات بعضها ببعض من خلاله؛ وكيف تشكلت على هذا النسق لتؤدي معنًى ما. فلا قيمة للكلمة دون وجودها في نسق من الكلمات، تتآلف مع بعضها لتشكل علاقات تؤدي إلى معنى مفهوم وحس أو شعور واضح، ومن هنا كل بنية "أي كلمة" تتساوق مع الأخرى لتتكون الجملة الشعورية. لنصل إلى عناصر خطابية متطورة، أي وهي تتطور في معناها؛ ومن هذا الباب سوف ندخل إلى مجموعة (صليل الآه) للشاعر محمد عارف قسوم، للكشف عن خصوصية المجموعة من نواحٍ ظاهرية نسقية ومعنوية، ومن ناحية خصوصية معاجمه اللغوية، التي صبت في مصلحة الشكل النهائي للنصوص.

التشاكل بين الحسي والمعنوي في تكوين.

إن التشاكل بين المفردات هو الذي يخلق مساحة الرؤيا وهو من ينقل الدلالة، وحدد مسراها إن كانت حسية أو معنوية، فالتشاكل والتضارع هو أساس التكوين البنائي للجملة الشعرية، لتتحول إلى مجاز أيضاً، ولكن هذا التشاكل لا يرتكز على كونه أداة بلاغية محضة، لأن هذا الضرب من المجاز لن يثير الدهشة أو الغرابة، إذا ما خلخل سياق الحسي ليجعله معنويًا أو العكس، من هذا قول الشاعر في قصيدة خوابي النور:

أمشي على كتفي محمولةٌ طرقي

أقتاتني رمقًا

يُستلُّ من رمقي

الحسية في المشي والتصور الذهني له ينحاز إلى المعنوي في هذه الجملة (أمشي على كتفي) لنشهد صورة جديدة للدرب الذي صار معادلًا للكتف، وهو الذي يعبر عن الجسارة والتحمل والطاقة، وكأن مصير الشاعر قد تداخل في مصير الأشياء التي حوله، فأنسنها، ليعبر لنا عن التجربة النفسية التي تعتريه ويسقطها على الأشياء والمشاهد الكونية، فحين يفكر في أمر من الأُمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه ينقله من كونه حسي إلى معنوي، "وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي، وإخلاص فني، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجاري شعور الآخرين بل ليغذي شاعريته"[1]

وفي موضع آخر يقول:

يا صامتًا في حزنه، يا واحدًا

لم يسمع الصبر الجميل بمثلهِ

فطريقة خلق الصورة ألقت بظلالها على وجدان القارئ، بحيث أعطت صفة مطلقة للمخاطب، عن فكرة التحمل والصبر، ولكن بعد أن نقل البعد الحسي في السمع للبعد المعنوي في الصبر، وجمع بينهما في تكوين نفسي وعلاقات عدولية مجازية تداعب مشاعر المتلقي فينهض من خلالها الشعور بالرضى من جمال العبارة ورشاقتها.

ونرى الشاعر يستمر في استثمار هذه الخصيصة بشكل مميز في مجموعته، ولا ينفك عن خلق مساحات تأويلية لا تنتهي من خلالها، فيقول:

عندي مساحة عفوٍ لو تقارنها

---

[1] ـــــ د. محمد غنيمي هلال: *النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ـــــ بيروت 1973، ص 383*

بالكون،

تملؤه عفوًا وتشغلُهُ

الشاعر يقدم في هذا الشاهد رؤيا متسامحة، ومساحة من المحبة غير المنهية، وكل ذلك جاء بسياق متوتر بين علاقات متشابكة بين الحسي والمعنوي (المساحة) (الكون) وإشغال بال الكون بالتسامح والعفو، فمفردات المحبة والعفو تعبر عن رغبة قوية في بناء عالم يسوده الحب والسلام وهذا أيضًا يدخل في تشاركية عالية مع ذات القارئ.

أما في قوله:

واطبق موج الذل.. لم يبقَ موضع

بجسمك إلا الذل أجزاءَه تشكو

نلاحظ أن حرارة الموقف الانفعالي الصادر عن حالة الذل التي وصل إليها الإنسان العربي المخذول، جعلت الشاعر يبدد المسافة بين كل المكونات في مشهد تراجيدي يعزز ظلام الخيبة والانهزام، فحتى يجمع بين (الذل) ودلالته الموغلة في التغرّب، زاوجها مع الموج المطبق على الجسم، فكاد أن ينهي الشيء من خلال جنسه، فيكوّن هذا العامل نقطة حيوية لا تجد في الواقع مستساغًا لرؤياها بل تتخطاها لتحطيمه تمامًا، ليجعل المعنى من ينأى عن أحادية التوجه، فيكون صوت المؤثِر واضحًا لا صوت المستأثر، صوت الحاثّ للآخر، الموجه له.

المعجم الأدبي الشعري:

المعجم الشعري هو لغة القصيدة والجدول الذي يختار فيه الشاعر الكلمات التي تؤلف لغته الشعرية، وإن تمحور المعجم الشعري يخضع لحركة القراءة التي يجريها القارئ في النص، فهو شكل من أشكال إنتاج الدلالة النصية.

يخضع المعجم الشعري لمبدأ الإفادة، إذ لا يمكن أن نعد جميع الكلمات معجماً، بل ينبغي أن نستمع إلى اختيار الشاعر، وإلى الأقطاب الدلالية التي يستمد منها معجمه، وفي هذه المجموعة نجد أن لغة الشاعر نضجت من أربعة معاجم وهي:

1. معجم الطبيعة: ومنها (الثلج، الريح، غصن، النور، نخل، الليل، الورد، المطر، السماء، البدر، الضوء، بيادر، البنفسج، البحر، النجوم، ينابيع النخيل، الظلال، غيم)

حيث أكثر الشاعر من استخدام هذه المفردات بشكل ملحوظ، فلا نكاد نرى قصيدة تخلو من بعضها، وهذا يدل على تشاركية الشاعر مع الطبيعة واندماجه بشكل كبير مع مكوناتها، وهذا التداخل معها، يعطي مساحة كبيرة للامتداد واتحاد النفس مع أشيائها، فنراه يقول مثلًا:

من بحره .. فيض الدمع في الحدقِ

ومن ينابيعه .. إن لم ترقْ يرقِ

قوله:

انت والصبح والخيوط الأولى

يا لوجهٍ يضوّئ القنديلا

وقوله:

وأنك أنت النور أنت مداده

عليه إذا اشتدّ الدجى اتوكأُ

ومن الملاحظ أن هذا المعجم جاء متناسباً مع حالته في التشبث بالأمل وتخفيفا لحالة الحزن، وسعادةً له، ونسيانًا لما يمر به مشقات وغربة.

2. معجم الأفق: ومنها (السماء، السرى، الشمس، عاليا، شامخًا، ارتفع، شاهقاً، الهواء، غائم، نسر، عالي)

هذه المفردات تساوقت مع حالة الانطلاق وعدم الاستسلام للواقع، وتحليق الشاعر في فضاءات المجاز، ومن ذلك قوله:

حتى السماء تحل طوع بنانه

وتحل طائعة له ألغازها

وقوله:

لا تنحني أبدا

شموخ جبينها شمسي

وإني قاب قوس الشمسِ ملتصق جبيني

وقوله:

سموتُ فما يومي، سواهُ ولا أمسي

ولا غير وجهٍ كان صاحبه شمسي

وقوله:

وإليك سرب هوى يحلق عاليا

قلبي وروحي والسنونو رفُّهْ

كل هذه العبارات جاءت لتعطي انطباعاً عن حالة الشاعر في بداية النص عندما كان محلقاً في الأفق متجاوزًا الصدمات في الواقع الذي يعيشه، ويتعالى على الجرح الذي ينز من قلبه.

3. معجم الحزن: ومنها (دمعته، البكاء، واحره، نار، أشتكي، العجز، أقساه، مرارة، جروح، الآه، الحنين، الوهم، المكابرة، شاحباً، الوداع)

هذا المعجم هو الأكثر، والمسيطر على ثنايا المجموعة، وفيه وفرة من المفجرات التي تعطي انطباعًا عن حالة الشاعر المتخفية وراء المعاني البعيدة، لذلك ما نكاد نرى حالة

تحمل أو صبر أو تسامٍ حتى نلمحه معها حالة وجع، وتشظٍ، ولعل الحالة السورية ألقت بظلالها على ذات الشاعر ومشاعره، ومن ذلك يقول:

أيُّ ليل هذا .. تمادى عليَّا

أشتكيه فما يصيخ إليّا

وقوله:

آه عليك وأهٍ منكَ يا رجلُ

حتامَ تلقى الذي تلقى وتحتملُ

توزع الحزن بين الناس أجمعهم

وأنت فيك جميع الحزن يُختزلُ

وقوله:

أبكي عليَّ أبث الكون أسئلتي

والعشق الحقّ بكّاءٌ وسآلُ

وقوله:

تطاول ليل الحزن حد نجومه

سكارى لهولٍ لا حدود له خُرْسُ

وكما أسلفنا أن معجم الحزن كان موافقا لحالة الشاعر في معظم النصوص، فتجلى ذلك عند اختياره لهذه المفردات بكثرة ووفرة.

في النهاية المجموعة مليئة بالفضاءات الدرسية كـ: الدراما، والتناص، التوظيف، ولكن آثرنا دراسة المعجم الشعري والأسلوبي التشاكلين لأنهما ظاهران فيها بشكل ملحوظ.

دلالات الرّمز: في "مأساة عائلة الأشجار"[2]

سوسن إسماعيل
ناقدة سورية

"شجرةُ الزيتون لا تبكي ولا تضحك
هي سيدة السفوح المحتشمة"
محمود درويش

ـ تمهيد:

إنَّ أيّ قراءة تحليلية لأيّ نصّ إبداعي، هي فعاليةٌ تعكسُ الكيفيّة التي عليها النّصّ، وذلك لا يتمُّ إلا عبر القارئ؛ وما يتشكّل لديه من تراكم دلالي ينجزه من خلال الرسالة ـ النصّ الذي يُستقرأ فيه المعنى، بعد أن يكونَ قد كسر الجدار الهلامي، من خلال القراءة الفعالة لشيفرات اللغة بمقصدياتها، اللغة بوصفها الأداة ولسان الحال، والقالبَ الذي يكشف عن مآلات الإنسان النفسية والاجتماعية، وعبر مقاربتها مقاربة ثقافية، لكونها تعدُّ الواجهة الأولى لفكِّ شيفرات النص وأسراره.

أولاً ـ نطاقات التحديد:

القراءة عموماً هي عملية جمالية وإبداعية ولكنها تتسم بالصعوبةِ، ولاسيما في نص يمتاز بالترميز والتكثيف كحال **(مأساة عائلة الأشجار)**، وذلك لأنَّ القراءة عليها أن تأخذَ في هذا النصّ المكثف والمفتوح بالبنيّة اللغويّة التي تسهم في إنجاز المعنى، ولا سيّما في نصٍّ يطفحُ بالرمزية، رموزٌ تتفجّرُ بطاقات إيحائيّة عاليّة. يلجأ إليه القاص أحمد إسماعيل إسماعيل إلى الترميز والتشفير في هذا النص، ليقدّم كائنات واقعية بدلالات مغايرة أكثر عمقاً وأوسع معنى، عندما تعجزُ اللغة المتداولة عن الإفصاح بمكنوناتها، دون أن يسهو بأنَّ للرمز ارتباطات تاريخية وثقافية وإرثاً أسطورياً يتعلق

[2] ـ أحمد إسماعيل إسماعيل: مأساة عائلة الأشجار، مجموعة قصصية قيد الطباعة والنشر، القصة من أحد العناوين القصصية في المجموعة بذات العنوان.

بشعب ما. وفي هذا النصّ يراعي القاص جملة من الشروط الثقافية والبنيوية لتركيب مجتمعٍ مراعياً خصوصية النصّ وخصوصية البيئة الثقافية للكائن المرموز في النص. ومن هنا؛ فالقراءة في السّرد القصصي الموسوم بـ "**مأساة عائلة الأشجار**"، تعدُّ نوعاً من المجازفة وبخاصةٍ أَنّها ستتناول النسق الثقافي واللغوي لفئة معينة من الواقع، فأيّ نصّ أدبي هو خليط سابق لجملة من العلاقات التي تنتجُ اللغة، واللغة هنا مشحونة بالإيحاء والرمز، لذلك فآليّة التفسير تختلف من لغة لأخرى ومن ثقافة شعب لآخر.

إنَّ القاصَّ يتكئ على الرمز للتدليل على مأساة هي مأساة عائلة/ أشجار/ مدينة/ وطن، ليست شجرة واحدة إنما عائلة بأكملها، ولأن "الرمز يؤطر فوضى الأشياء"، فالقراءة حيال نصّ قائم على جملة من الرموز التّاريخيّة، الدّينيّة، وتمتُّ للأسطورة أيضاً، نصّ بمخزون رمزي كبير لا يغيبُ فيه التكثيف والإيحاء العميق، فإلى عوالم هذه الرموز التي تشكل العمود الفقري للنص ـ قيد القراءة:

1 ـ رمزيّة الأسماء:

اعتمد القاصُّ على توظيفِ الأسماءِ توظيفاً رمزيّاً، ليخدمَ مجموعة من الأفكار ويمرّرَ عبرها مجموعة دلالات ومختزلة في تركيبها، فـ (خالد) المقاتل والمجاهد في فيلق **(الحمزات)**، والذي دخل منطقة عفرين مع الكثير من فصائل المعارضة المنضوية تحت العلم التركي، واستوطن بيتاً من بيوت سكانها الكرد الأصليين، فثمّة فرحة عارمة يعيشها، فبإمكانه الآن أن يتزوج ويجلبَ أهله لهذا البيت الجديد، مع خطيبته وأهلها، بعد أن فقدوا بيوتهم في الغوطة...! إن الإشكاليّة هنا لا تتقيدُ برمزية الاسم التاريخي فقط وتقاطعه مع (خالد بن الوليد سيف الله المسلول) ـ قائد من قادة الغزوات الإسلامية، الذي كان يتركُ خلفه أنهاراً من الدم ـ إنما تتمثلُ في الربط بين تاريخ مضى وآخر لايزال ثابتاً بمفاهيمه الرثة، يقول المستوطن الجديد لخطيبته: "**هذه مملكتك، إنها غنيمة حرب...!**"، كما أنه وعدها أن يستولي لأمها وأخيها على بيت مناسب يكفيهما، فهو لن يسعى لتأمين بيت؛ إنما سيستولي عليه، إنها لغة (المجاهد) الناهض من الإرث الديني، فخالد الممثل للسلطة المهيمنة، يضرب ويهينُ ويقنصُ ويطردُ السكان من بيوتهم: "**وعدَ القائد خالد خيراً، فإذا لم يتم العثور على بيت خال من أصحابه ممن هربوا وتركوا بيوتهم قبيل سقوط المدينة، فإنه سيعمل على إخلاء بيت من**

أصحابه أبناء الجن"، وهو ما يجري حقيقة على أرض عفرين، والمأساة التي طالت أهلها، ودفعتهم للهروب والنزوح من بيوتهم، وذلك عبر تحريك الكثير من العلائق التي تربط بين الأسماء والأمكنة والدلائل، كما أنّ القراءة والتمعن في الحوار الذي يدور بين خالد وكافة القوى الفاعلة في السرد القصصي، هو تمثيل وتفعيل للتأويل في تلك الشخصيات الحاملة لنبوءتها، وبما تحمله من دلالات وتلميحات ثقافية، سياسية، دينية، وأسطورية، فإماطة اللثام عن رمزية اسم العلم (خالد) يكشفُ الكثير عن أبعاده التاريخيّة، وذلك من خلال التناص مع المدونة الإسلامية حول المجريات التي كان عليها خالد بن الوليد من العجرفة والإصرار في تحقيق رغباته في النهب والغزو والقتل كما جرى في معركة (أليس في جنوب العراق).

يحاولُ القاصُّ في سعي دؤوب بتوليد جملةٍ من الرُّموز لعدة إيحاءات إبداعية، من حيث الشكل والغاية وطريقة العرض الغير مألوفة، وهي تهيم مرّة باللغة وأخرى بالصورة البصرية والخيال، فالضرب الذي يمارسه خالد على جسد خطيبته، ما هو إلا إعلان عن الإفلاس الأخلاقي، الديني، والاجتماعي، وترميز عن إرثٍ يتسم بالهمجية والتساؤلات المبهمة في حدّيها الواقعي والرمزي: "**انتزعَ السوط من يد الشيخ، وانهالَ عليها بالضرب، حينها فقط بكتْ بحرقة، وانهرست حبات الزيتون النازفة على الأرض تحت قدمي خالد**"، فالشذرة هي إعلان عن صورةٍ للموت الذي يجدّدُ في نفسه وإرثه، لفكرٍ بائسٍ، ضاقت فيه الرؤية، حتى استسلمَ لها خالد كالدابة: "**عندما فرغَ منها خالد، ربضَ على الأرض واستراح**".

إن نصَّ (مأساة عائلة الأشجار) يومئ إلى كيفية استلاب الروح لدى "القوى الفاعلة"، فانبثاق الرمز الديني في النصّ السردي/ القصصي، هي محاولة لتشفير اللغة وإعطائه آفاق تعبيرية وإيحاءات تسهم في عملية الانفعال بين القارئ والنصّ، فـ **(سدرة)** خطيبة **(خالد)**، هي المرادف والبعد الرمزي الآخر لـ "**سدرة المنتهى**"، الوجه والحكاية الأخرى للقصة، وذلك اعتماداً على التأويل والاستغراق، فـ (سدرة المنتهى) يحضرُ اسمها عميقاً في الذاكرة الثقافية والدينية، حيث هي شجرة مُباركة، طيبة الثمار، عندها ينتهي علم الخلق، وبذلك وعبر علاقة تناص لفظي ومعنوي بين شجرة سدرة المنتهى وبين (سدرة) خطيبة المجاهد (خالد)، يُقدّم القاص شخصية (سدرة) على أنها روح طيبة، أُقتلعتْ

من أرضها، وجيء بها إلى أرض عفرين، ولكنها تشبه روح المكان الذي تستوطنه، يقول لها خالد في رسالته إليه "هذه الجنة تنتظرُ شجرتها لتكتمل، أسرعي بالقدوم"، ومن المنظور الثقافي، يحصل كلّ منا على اسمه منذ اللحظات الأولى للولادة، وهي مفاهيم تتوارثها القراءات والثقافات، لأنَّ الاسماء تسمحُ بفتح قفل الصندوق، و(سدرة) هي بؤرة البعد الرمزي، فاسمها ذات محتوى يحملُ معه كلّ دلالاته، سلوكه، ورمزيته، فهي الشجرة البيضاء التي ما زالت تحافظ على نقائها، وتلعب شخصية (سدرة) دوراً في تحريك الأحداث السردية. ويتضحُ الزمكان في النصّ من خلال حضورها الذي ينهضُ بالصراع أو يكشفه إلى العلن، لتخرج حثالة القاع إلى الحاضر، وبحضورها أيضاً تتكشفُ أقنعة الشرّ وتداعيات أنظمتها: **"كان يطلقُ النار على الأشجار ويتحداها أن تطير، فارتجفت الأشجار أمام ناظريها وبكت، ولم تحلق عالياً وتطير، .... ولكن سدرة صمتت بخوف"**، فـ (سدرة) هي من تستلمُ هوية النصّ وتفتحُ مساريب القصة، الشخصية القصصيّة المنسجمة مع سياقها الاجتماعي ـ الديني، هي صوت الحق، وعبر صوتها تُقدّمُ الأصوات النشاز من حولها، هي الشاهدة على القهر والتجاوزات، هي الوجه المماثل لعفرين، هي دلالته، وكي يعمّق (خالد) من جرحها، يضربها حتى التعب، يعمّقُ من جرح المكان ومغزاه، فجرح سدرة هو الظاهر، وثمة جرح مُبطن آخر للمكان، وما عاد لصراخها صدىً، فهي ضحية المكان، الثقافة الدينيّة، الموروثات، والخرافات الشّائعة، فمنذ وصولها إلى عفرين، تغيرت أحوالها، وتحوّل حب خالد لها إلى شفقة وعطف، حيثُ بدأت تشعر؛ بأن ثمة آخرون يشاركونها البيت، وتحسُ بخطواتهم وتراهم وتسمع حواراتهم، ويبدو كلّ شيء أمامها غريباً ومخيفاً **"ظهر لها أناس أغراب، أخذوا يزاحمونها في هذا المسكن، ويثيرون هواجسها بما يتحدثون به، بلغة غريبة لم يسبق لها أن سمعتها"**، فما يتراءى لها لا يتراءى للآخرين المشاركين معها البيت، فهي أصبحت جزءاً من المكان، تشاركه الطقوس وتشعرُ بأصحابه، ثمة حالة من اللاشعور، حالة من التّخيّل يفعّلها القاص وإلا فكيف للمكان أن يصرّحَ بموجوداته، فالقاص يكشفُ عن الأعماق النفسية لـ (سدرة)، فهي البياض في كلّ هذا السواد والرماد الذي تمثله الأمهات من حولها، طالما هنّ ناقصات عقل: **"سدرة كانت شجرة طيبة ودائمة الخضرة، جميلة ونضرة، فأمست في أيام قلائل جرداء يابسة"**،

فكان لابُدّ من حضور (سدرة) سواء في الجنة أو خارجها، لابُدَّ من بياض قلبها، حتى ينكشفَ لها الكثير من الحقائق، التي كانت . ربما . غافلة عنها، فيما يخصّ خالد وسلوكياته ومعاملته مع الجوار، وعن كلّ ما سمعت ورأت، عن أصحاب الرؤوس السوداء من حولها، وتتوضح صور الأشجار المتطايرة وهي تنوب عن أصحابها، فالرمز كمستوى فني من التعبير، وكمنفذ للتأويل وتوظيف للإيحاء الحرّ، يقدمُ القاص من خلاله مجموعة من العلائق التي تفصحُ عن بعض الازدواجية، وذلك من خلال توظيف للأسطورة أو بعض الخرافات، ليعرّي الشرخ الكبير في العقل، وليدينَ به الخرافات التي يتداولها البعض عن بعضهم، ويريدون توريثها للآخرين، تاركاً خلفه دائرة من الاستفسارات والآراء التي تُطرح تبعاً للمعتقدات: "**أحاله القائد إلى شيخ الفصيل ودليله، الرجل الذي ينتمي إلى سكان هذه المنطقة ويعرفُ الجن وأنواعها، ويتقنُ اللغة التي تتحدثُ بها، ويحسنُ طردها من الأجساد، ومن مساكنها أيضاً**"، فلغة الرمز هنا؛ لا تكتفي بأنها أداة للفهم والحوار والتواصل؛ بقدر ما هي لغة تعتمد على أسلوب الإيحاء عن الأفكار والسلوكيات التي تخصّ الشخوص، "فللوصول إلى الحقيقة، عمادها الاعتماد على الحقيقة الباطنية للإنسان لتوليد المشاركة الوجدانية بدلاً من التعبير عن حقائق الوجود الخارجيّة".

يقول بول ريكور بأنَّ الرموز ذات بعدين، وعليه فإنَّ القارئ عليه أنْ يختطفَ المخفي من المعاني، فالشخوص تتداول في القصة ـ ودون ذكر الكرد ـ الإشارة إلى أبناء الجن، إذ إنَّ التسمية تُطلقُ عليهم، منذ قرون بعيدة، وتتداوله الألسن وبعض الشعوب، حتى تشكّلت لديهم المُخيلة الجمعية، بإنَّ النبي سليمان ألقى بخمسمائة من الأرواح السحرية التي تُدعى الجن إلى خارج مملكته، ثمّ انطلق هؤلاء الجن إلى أوروبا وقد اتخذوا لهم خمسمائة من العذراوات الجميلات، ثم استقروا في جبال زاغروس، كما وردت على لسان الكاتبة (مارغريت كان) في كتابها أبناء الجن، وعليه فالكُرد هم نسلُ الجن: "**إنَّهم من نسل الجن، إنّهم قوم من الجن**"، فالقاص يركنُ بقارئه إلى الحكايات الشعبية التي تمّ تداولها عبر التاريخ، وذلك عبر قرائن ومؤشرات تومئ إلى محمول رمزي وأسطوري عميق، فأبناء الجن كما ورد في الحوار الذي دار بين (الأب وأم خالد وأم سدرة، وخالد) يُشكّلُ الرؤية المشوشة التي تسيطرُ عليها الخرافة، حيث تمثلُ الرؤية الضيقة

عن الكرد :"**إنَّ سدرة شجرة طيبة في أرض ملوثة بالملاحدة**"، فالأماكن ترتطم ببعضها وتتبدّلُ صورها ويصيبها الصدأ "**هم يتحدثون بلغة غريبة، لم يسبق لها أن سمعتهم، وما يفعلونه في الدار، وهم يتبدلون ويتخذون هيئات مختلفة الأشكال**"، فلا يمكن قراءة الأحداث بمنأى عن أبعادها الرمزية السياسية والاجتماعية، التي تشيرُ ولابُد إلى مأساة أهل عفرين، وعملية التهجير والقتل التي جرت لأطفالها، ونسائها، وعجائزها، تاركين أبواب بيوتهم مفتوحة وكل ذلك على أيدي شركاء في الوطن!.

2 ـ رمزية الأمكنة:

يصنعُ القاص للمكان في سرده القصصي، شخوصه ولغته، وهو واضح المعالم، وفضاءه مفتوح لشخوصه الحقيقيين، فلا يمكنُ لهذه الشخوص مغادرة أمكنتها، إلا في حالة اقتطاعهم عنوة عنها، فالبيوت امتداد من سكانيها، وإن حدث؛ فالأرواح لا تغادر بيوتها، تبقى تتجول في زوايا الأمكنة، وتعودُ لذكرياتها وأشيائها المتروكة والمتوزعة في الحقائب والغرف: "**طارت العجوز وحلّقت عالياً في سماء الحوش، تنتقلُ في الفناء، من مكان إلى مكان، ترجو سدرة أن تعتني بالمؤونة، وتنتبه إلى الجبن، فأحفادها كثر وسيعودون من المدرسة جياعاً، فقد مات آباؤهم في الحرب**"، فتفاصيل المكان لا تشبههم، فعقربا غير عفرين، لكلّ مكان ثقافته وطقوسه الخاصة، والمكان ليس هو ذلك المكان الأنطولوجي فقط؛ بقدر ما هو ذلك المكان الذي يحمل معه إرثاً اجتماعياً ودينياً وثقافياً أيضاً. القاصُّ يضعنا أمام سرديّة لا تخلو من تساؤلات عن مفهوم التعدد والهوية، في مواجهة الهوية الغيرية، حيثُ المكان مُفرّغ من أصحابه، وتمّ تشريدهم في الخارج "**هروب أبناء الجن إلى العراء حيثُ مساكنهم منذ الأزل**"، حيثُ للمكان أحقيته لأصحابه، لمن شكّلَ لهم كينونتهم الأولى، فالقاص يعتمدُ الصورة الإيحائية للمكان، أرض أشجار الزيتون وأصولها، ولكن المستوطن لا يتقنُ لغتها، إلا سدرة، يقول خالد "**هنا جنة ينقصها شجرة**"، والقادم من المكان الآخر (عقربا)، مكان هو الآخر له رمزيته، فالرموز ليست عصيّة على الفهم، ولاسيّما العارف بالأحداث، فـ (عقربا) يمثل الخطر المحدق بالمكان الجديد، فعين عقربا على عين عفرين، والبون شاسع وقاتل، بين العين والأخرى، وثمّة اختلاف وخلاف بينهما، فالرموز جليّة وداميّة ويقدمها الكاتب دون قشور: "**وضحكَ بانتشاء وهو يروي لها الجهاد الذي مارسه هو ورفاقه مع**

جنيات كثيرات"، فالرمز كما يقول الناقد الأمريكي بلاكمور "ليس بالنسبة إلى ما قيل وما قرر، وإنما بالنسبة إلى ما لم يقل وما لا يمكنُ قوله، فهو لا يرمز إلى شيء معروف من قبل، ولكن لشيء يوجده الكشف ويكاد ينكشف"، حيثُ اللغة أداة توصيل تشقُ للمكان ممرات للحديث والتعبير، لغة تتناسق مع الأمكنة ومعانيها، بعيداً عن تصريح أو مباشرة.

3 ـ رمزية الحيوان والنبات:

يُشكّلُ اللغز عنصراً من عناصر بناء السّرد، ولابُدّ من إحالة هذه الشيفرات الثقافية والدينيّة إلى أشياء معروفة سلفاً، فالأسماء تحمل دلالات مختلفة عن دلالاتها المكشوفة في اللغة، بعد أن تحوّلَ الرمز كلغة خطاب للتواصل، ولِأنّ أيّ ثقافة تنشئ لها منظومة من الرموز، تكون بمثابة صور ومفردات يدركها ويفهمها المرء حتى دون لغة منطوقة وواضحة. هذه الرموز تعبر عن سلوكيات، أفكار، ووعي الإنسان، يقول محمد غنيمي هلال: "إنَّ الرمز هو الإيماء والتعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة، التي لا تقوى اللغة على أدائها في دلالتها الوضعية"، وبذلك يبقى الرمز؛ المصطلح المفتوح والقابل للتأويل فيه أكثر مما هو مفتوح للشرح والتحديد، وحتى يُبْعِدَ القاص الصدام بين الأمكنة ومستوطنيها الجدد، وتداركاً للزوبعة ومتغيراتها، يستدلّ بالرموز مثل الحمام، الجراد، وأشجار الزيتون وأغصانها، فللزيتون رمزية ومخزون ديني، ووطني، وتراثي منذ الأزل، كما له قدسيّة في أغلب النصوص الدينية السماويّة، وكذلك في الثقافات الإغريقية، وقديماً عند الفراعنة أيضاً. كما لأغصان الزيتون دلالات عميقة، محمّلة بمعاني التعب والشقاء، والحزن والدم، يقول رولان بارت في لذّة النّصّ: إنَّ الرمز الإسلامي من شأنه أن يحققَ داخل الحشد اللغوي للنصّ حالة من الكيمياء الخياليّة لمادته اللغويّة المتحيّزة وهو بذلك يمثل بحضوره الحضاري انبثاقات مستقلة، فالقيمة الجمالية في تصوير أشجار الزيتون وهي تطير وتبكي، والمشحون بالحس العالي، بتقنية الاستعارة والتشبيه "**الأشجار تبكي، أشجار الزيتون تبكي يا أمي، الأشجار ترتجفُ، الأشجار تحلقُ في السماء، السماء تُمطرُ زيتاً أحمر، حبات الزيتون تسقط مثل الحصى، وتنزف، إنها تنزف**"، فالقيمة الإشارية في الصورة السّابقة، هي نفسها الصورة المطعونة في أصلها، صورة عفرين، وهي تُجز في كامل جغرافيتها،

الصورة التي تتكرر على مرأى العالم، الذي يتلذّذُ بمتاجرة أشجارها وزيتها، ونزوح أصحابها، في وطن مباحُ، ومدينة اشتبهوا بأنها أرض الحوريات، الزيت الذي كان دواءً وفرحاً، يتحولُ إلى دمٍ يُهدرُ على أرضه، والأغصان التي كانت رسائل للحياة، استحالت إلى طوفان، على أثر إعلان غزو الجراد للمكان، بحضورهم كان النزوح والشتات، ثمّة من خانتهم الشعارات والتفاسير، فبدّلوا الحياة بجماجم، وأهواء وشعائر، حتى سقطت الحمامة وقد اصطبغ بياض الجسد بالسائل الأحمر، سقط المكان وسقطَ غصن الزيتون معها، إنها ارتحالات بين الدّال والمدلول، وكأنَّ النصّ هو تحفيز لنصّ آخر غائب، أو لسرديّة غائبة، ولكنها حاضرة وبقوة في موضوعها.

4 ـ رمزيّة العنوان:

العنوان كعلامة سيميائية، وكعتبة نصيّة أولى يمثّل السؤال الإشكالي/ الملتبس، سواء لدى الناقد أو حتى القارئ لذلك من الضرورة قراءته من وجهة نظر فنية وجماليّة. فالعنوان يؤدي مجموعة وظائف إيحائيّة وربما أيديولوجيّة ودلالية عميقة، يقول كلود دوشيه؛ بأن العنوان عنصر من النصّ الكلي الذي يسبقه ويستذكره في آن، بما أنه حاضر في البدء، وخلال السرد الذي يدشنه، فهو يعمل كأداة وصل وتعديل للقراءة، فإلى أي مدى كان العنوان (مأساة عائلة الأشجار) تتويجاً للنصّ؟ والعنوان من حيثُ إنّه عنوان قائم على تركيب اسمي وإضافي في الوقت ذاته يؤكد على فاعليّة القهر والمأساة التي طالت العوائل في عفرين، فثمة مأساة هناك، وهذه المأساة تطالُ العائلة، والذي يتوجبُ فيها التواصل والوئام والترابط فيما بينها، ولكن ثمّة أمر حدث، فكان الانفصام والقهر والتفكك. والبحث في ماهية مأساة العائلة، هي مأساة عائلة الأشجار بعينها، والمتوزعة على كامل أرض عفرين، كما أن القارئ يكتشفُ لاحقاً؛ إنّ القاص لم يتطرقْ إلى استخدام العنوان بملفوظه الكلي على كامل جسد النصّ، بقدر ما اكتفى بالإشارات التي تَرِدُ بين جملة وأخرى عن التمزق، والانكسارات التي أصابت العوائل التي نزحت من بيوتها، ثم ليعرفَ وطأة المأساة التي حلت بالأشجار وأصحابها. طالما كانت الأشجار معقلَ الإنسان وملجأه في مواجهة الخوف، وأشجار الزيتون تتحول لحصى في وجه المستوطن الجديد، تنزفُ وتبكي، فالقاصّ يستنطقُ الأشجار ـ العائلة الغائبة ـ فهي تنوب عن أصحابها، فها هي تتعرض للضرب والاغتصاب. هذا التحوّل

الذي يجريه القاص على الأشجار؛ من كائن صامت، معطاء، لكائن متحرك، يبكي، ينزف، يرتجف، وذلك بتقنيّة الرمز، إذ يستعيرُ حالة أصحاب الأشجار التي ما برحت أمكنتها رغم كلّ الندوب على أيدي مغتصبيها الجدد، وما هي إلا استحضار للإنسان الشرير، عندما يتجاوز في ظلمه ويمدّ بأيديه إلى ما ليس له حقّ فيه، فأشجار الزيتون لا تموت، وبعيداً عن فنيّة العنوان، فإنَّ القاص يحاول أن يربط بين الأشجار وأصحابها بعلاقة تأثير وتبادل بكمّ من المشاعر الداخليّة، وذلك بلسان الأشجار، فأشجار الزيتون هي الهوية الأولى للمكان وسرّهِ.

وبعيداً عن العمق الجمالي والطبيعي، فللشجر دلالته الإنسانيّة والروحيّة العميقة والمتجددة، فهي رمز للحياة والخلود والجنة. وللأشجار تجليات متنوعة، وهي صورة الكائن البشري في تحولاته، وقدرته الكبيرة في التمسك بأرضه ووجوده، فالتماثل هنا بين المادي والواقعي وبين الحسي واللامرئي، فثمة تضامن بين الشجر والكائن البشري، كدورتين متممتين لبعضهما، كما ورد في المفهوم الرمزي لها، فـ "مأساة عائلة الأشجار" صورة رمزية مركبة يتجاوز فيها القاص الواقع ومجرياته، إلى صور يقدمها عبر الخيال، وذلك لإثارة النفس، وترجمة معاناة أهل الأرض التي أُخرجوا منها بسلطة السلاح، وما المأساة إلا نتيجة الرّكام الذي تركه المستوطن الجديد، فللأشجار أرواحٌ تحرس وتنوب عن أصحابها، وبحضور المأساة تتعطّلُ الدلالة المعجمية/ اللغوية للأشجار، وتنهض الدلالات المشخصنة، فها هي تحزن وتبكي على المهجّرين، وتجلى الإبداع السّردي في الإسقاط الواقعي لكارثة أهل عفرين وخساراتهم، وتشخيصها على جسد/ لسان الأشجار، وبحضور فمهمة القاص لا تقتصرُ على إبراز فنية الصورة أو جمالياتها، بقدر ما يدفع القارئ ليأخذ من العنوان المغزى والمأساة من القصة.

خاتمة:

وبتساؤلات عميقة ينهي القاص الحدث، لعلّ القارئ يستشفُ أسراره من اللغة الرمزية، التي وظفّها القاص في تفعيل الشخصيات، للكشف عن أفكارها، وعن المضامين وإجلاء الغموض، وهو ليس بالأمر المستعصي على القارئ المتأمل، أن يقرأ في مرامي النص، في فضحِ الأصول القائمة على العتمة والرايات السوداء، واستئصال الخراب والاضطهاد والفساد الذي سادَ البلادَ/ سوريا، وتركها لمن ينهشُ فيها بالفوضى، لثلة

من شذاذ الآفاق، يتخبطون في رؤاهم بعد أن فقدت الأغلبية أحلامها، وشاعت الغطرسة مع تكميم الأفواه، والعبث بالحريات.

في نصٍّ سرديّ/ قصصي يترك القاصُ الخاتمة مفتوحة أمام قارئه، فللحقيقة وجه آخر، كما للجنة باب واحد، فنحن أمام نصين، نصّ ظاهر كُتبَ، والآخر غائر لم ينته بعد.



أوراق الدراسات

الحركة النسائية، وحقوق النساء العربيات

ناديا خلوف

محامية وروائية سورية

المقدمة

عندما نتحدث عن حقوق المرأة فإننا نتحدث بالدرجة الأولى عن حقوقها كونها إنساناً مثلها مثل الرجل، ويجب أن تكون تلك الحقوق مضمونة بالقانون، ومن حيث المبدأ أقرّت أكثر دول الغرب حقوق الإنسان بما فيه حقّ المرأة، ومع أن العرب يشاركون دائماً في احتفاليات حقوق الإنسان بغض النّظر عن جنسه، تبقى احتفالات لا قيمة لها من الناحية العملية لأنّها تسير جنباً إلى جنب مع القوانين والتشريعات المكتوبة، والعرفية، والتي تكرّس عبودية المرأة، والرجل على السّواء مع الفرق بنوع العبودية، وهنا سوف نخص المرأة، وندخل في حديث حقوق المرأة، أو النسوية، أو النسائية، لا تهمّ التّسمية.

يعتقد البعض أن النسوية هي فلسفة الاعتقاد بأن للمرأة حقوقاً متساوية مع حقوق الرجل في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والجنسية والفكرية والاقتصادية. وهذا يتضمن فلسفات ومذاهب ونظريات وحركات تهتم وتحاول محاربة اضطهاد المرأة. لقد انتفضت النساء في الماضي ضد اضطهادهن لعدم حصولهن على حقوق متساوية مع نظرائهن من الرجال. منذ زمن رجل الكهوف اعتُبرت المرأة الجنس الأدنى، حيث أعطيت أدواراً أقل قيمة مقارنة بالرجل. هنّ من يعتني بالأسرة، عليهن البقاء في المنزل، رعاية

أزواجهن، إنجاب الأطفال والقيام بالأعمال المنزلية. مع صعود التصنيع، جاءت موجات من الناشطات اللاتي يناضلن من أجل حقوق متساوية.

نشعر أحياناً أن مصطلح النسوية مبالغ فيه، حيث يُعتبر الأشخاص الذين يتحدثون أو يكتبون عن النساء بشكل أعمى نسويات، ومنهن من أطلق اللقب على نفسه كوسيلة للدعارة مثلاً، وهنا لا نحكم على المرأة فهي حرة حتى لو مارست الدّعارة، لكنّها بالتأكيد ليست نسوية عندما تروّج للفكرة.

كَتبَتْ العديد من الكاتبات النسويات اللواتي ساهمن في الأدب ضمن المجتمع روايات، ومقالات، وقصصاً، كانت معظم أعمالهن تحتوي على بطلة نسائية، لا تزال الكاتبات النسويات يسعين إلى دعم حقوق المرأة من خلال أعمالهن مثل الشعر والروايات وغيرها من الكتابات الأدبية في كل أنحاء العالم بما فيه العالم العربي..

قد لا تكون الحركة النسوية المطالبة بحقوق المرأة والداعية إلى المساواة مع الرجل قد بدأت في القرن التاسع عشر في أوروبا، حيث تعتقد الكاتبة الفرنسية سيفرين أوفريه أن الأفكار المطالبة بحرية المرأة وحقوقها أقدم من ذلك بكثير، ويمكن تتبع تاريخها إلى زمن الحضارة الإغريقية.

ماهي النّسويّة

النسوية هي مجموعة مختلفة من النظريات الاجتماعية، والحركات السياسية، والفلسفات الأخلاقية، التي تحركها دوافع متعلقة بقضايا المرأة. يتفق النسويون والنسويات على أن الهدف النهائي هو القضاء على أشكال القهر المتصل بالنوع ليسمح المجتمع للجميع نساءً ورجالاً بالنمّو والمشاركة في المجتمع بأمان وحرية. ومعظم النسويين مهتمون بشكل خاص بقضايا عدم المساواة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية بين النساء والرجال، ويجادل بعضهم بأن مفاهيم النوع الاجتماعي والهوية بحسب الجنس تحددها البنية الاجتماعية.

يختلف النسويون حول السبب في انعدام المساواة، وكيفية الوصول إليها، والمدى الذي يجب أن يصل إليه التشكيك في التعريفات المبنية على أساس الجنس والنوع الاجتماعي وانتقادها، كأي أيديولوجيا، أو حركة سياسية، أو فلسفة، فليس هناك صيغة عالمية موحدة للنسوية تمثّل كلّ النسويين، لكن هناك شيء عام يجمع بين تلك الصيّغ وهو أن النسوية تكافح من أجل حقوق وفرص متساوية للنساء، ومن أجل تحقيق ذلك: تسعى النساء المؤمنات بقضية النسوية إلى إنهاء هيمنة الذكور.

الأدب النّسوي

على الرغم من كون النسوية لها تأثير أكبر في أوروبا، فقد ظهرت أنواع أخرى من النسوية في جميع أنحاء العالم، ربما كانت الكاتبة النسوية الأكثر ذكراً في عصر التنوير هي ماري وولستونكرافت وهي كاتبة بريطانية من القرن الثامن عشر، فيلسوفة، ومناصرة لحقوق المرأة، كتبت خلال حياتها المهنية القصيرة، روايات، وأطروحات، وقصص رحالة، كما أنها كتبت عن تاريخ الثورة الفرنسية، وعن قواعد السلوك، وأدب الأطفال، واشتهرت وولستونكرافت بدفاعها عن حقوق المرأة، فقد كانت تقول أن النساء لسن أقل شأنا من الرجال، ولكنهن يبدون كذلك فقط لأنهن يفتقِرن إلى التعليم، كما اقترحت وجوب مُعامَلة كلاً من الرجل والمرأة على أنهما مخلوقان رشيدان، يصنعان نظاماً اجتماعياً يقوم على العقل، وقد كان لها مؤلف اسمه حقوق الرجل أيضاً، وربما كان خطابها حماسياً.

في بداية القرن العشرين، شهدت مصر وسوريا ولبنان يقظة الحركات التي سعت إلى تمكين المرأة، برزت أسماء مثل ملك حفني ناصف، وهدى شعراوي، وهند نوفل، عفاف كنفاني، هم فقط بعض وجوه هذه الحركات. ومع ذلك، فإن العديد من هذه الشخصيات ليست معروفة، وأغلب تلك الحركات كانت مرتبطة بحركات التحرّر الوطني، ومع هذا فإن النسوية في الغرب مختلفة، حيث أنها في الدول العربية والإسلامية تأخذ منحى مختلفاً، ورغم أن رجال الدّين يؤطّرون النسوية ضمن الشريعة، لكن الأخطر منهم هم

من دخل على خطّ الثورات العربية بشكل عام، والثورة السورية بشكل خاص، البعض من اليساريين، والعسكر السابقين، حيث أن فكرهم الذكوري قد يكون متشدّداً كما الفكر الديني، وقد أصبح أغلب بثّهم الحيّ يتركز على أن المساواة لا تحترم المرأة، وأن العدالة الاجتماعية هي التي توفر لها الاحترام، ولا نعرف ماذا يقصد بالعدالة الاجتماعية، ويسطّح الموضوع بشكل أكثر حيث يعتبر أنّ المساواة هي أن تذهب الفتاة لتخطب الفتى من أمّه!

ومن دون ذكر أسماء من يناهض النسوية بتلك الطريقة، لكن متابعي هؤلاء النسويين هم بعشرات الآلاف وأغلبهم ثوار، ومع هذا فإن من يقوم بالبث يعتمد على الإثارة والشعبوية كي يربح أكثر، إضافة إلى أنّه يروّج بشكل غير مباشر لعداء النسويات، على النسويين من النساء والرجال التّصدي لتلك المفاهيم، وبخاصة أن بعض هؤلاء اكتسب صفة ثورية، ويعتبر رأيه مسموعاً.

الثورة السّورية والنسوية

مع الثورة السّورية برزت أصوات النساء، وبرز معها الدعوة للمساواة، كانت المرأة السافرة، و المحجبة جنباً إلى جنب في المظاهرات السلمية إلى أن استطاعت وسائل الإعلام التابعة للسلطات العربية السيطرة على الأمر، و أبرزت أن المرأة الثائرة هي المرأة المسلمة فقط، مع السعي لتحويل وجه الثورة لثورة إسلامية، وقد نجح الإعلام في إضعاف الثورة والنسوية في آن واحد، نعني الإعلام العربي الذي يستطيع أن يحتوي قيادات بسبب قدرته المالية والمعنوية، رغم أن نظرية المؤامرة لم تعد صالحة في هذا العصر إلا بين الدول العربية التي تعتبرها خطة استراتيجية، وهكذا تحوّل اسم النساء الأحرار اللواتي يكافحن من أجل الحرية إلى النساء الحرائر، ويعني أنهن يحافظن على فروجهن.

يعتقد البعض أن ما يسمى بالمفهوم الغربي للنسوية لا مكان له في العالم العربي، ومع ذلك، لا تزال المرأة العربية تناضل من أجل مكانة متساوية، وهناك من يعتبر أنّ

النقاشات حول النسوية العربية يجب أن تأخذ في الاعتبار المبادئ الإسلامية ويجب أن تكون أي حركة نسوية ناجحة تدريجية، ويجب أن تأخذ في الاعتبار وجهات النظر الثقافية حتى لا تنفر النساء من مجتمعاتهن، لا تريد النساء أن يختلفن كثيرًا عما يتوقعه المجتمع منهن.

النّسوية العربية

بدأت النسوية العربية في مرحلة التفكير الأدبي في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وفيها كان بزوغ الوعي النسوي لا يتعدى كتابة الشعر والقصص والمقالات وبإرادة فردية وإصرار ذاتي على امتلاك الهوية النسوية، وقد مثلت هذه المرحلة عائشة التيمورية 1840. 1902 الأديبة والكاتبة التي دعت إلى تعليم المرأة، وملك حفني ناصف الكاتبة المصرية الملقبة بباحثة البادية، وهي التي ناهضت ثقافة الحريم وأطلقت على الحريم وصف كهف العزلة، ولها كتاب "مرآة التأمل في الأمور"، وتسميها النسوة المصريات بالأم المؤسسة للنسوية، وزينب فواز الكاتبة والمؤرخة اللبنانية صاحبة "الرسائل الزينية"، ولبيبة هاشم الصحفية والأديبة اللبنانية التي أصدرت مجلة،فتاة الشرق" ولهذا لقبت بها.

كان للغزو الفرنسي لمصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 آثار اجتماعية كبيرة على البلاد، "تسبب في تدفق سريع للأفكار الأوروبية إلى مصر بما في ذلك أيديولوجية الثورة الفرنسية"، وتمت زيجات بين ضباط فرنسيين ومصريات، كما كانت هناك "حالات تقليد نساء مصريات لسلوك ولباس نساء الحملة"، لكن مثل هذه الأفكار والمعتقدات لم تلق ترحيباً من الجميع في مصر، ونتيجة لذلك، ظهر رد فعل عنيف ضد مثل هذه الأفكار الغربية.

حتى لو كانت التنظيمات النسائية تابعة لهيئات يخلقها الرّجال أو يكلفونهم بخلقها، وفي أغلب العالم الثالث تكون تلك النسوية هكذا، لكنها تحدث فرقاً. وقد كانت هدى شعراوي ملهمة في نسويتها عندما رمت حجابها، لكن لا ننسى أن أمورها كانت ميسّرة

لأنها ابنة باشا، وزوجة باشا، كما أنّها التقت بموسوليني، وأتاتورك، لكن هدى شعراوي الثائرة لم تكن نفسها تلك النّسوية عندما تزوّج ابنها من مطربة، فقد حاربت المطربة من وجهة نظر ذكورية طبقية استعلائية، حتى أن ابنها بدأ يهرب من المطربة، وأراد أن ينفي نسب ابنته منه، كانت المطربة أكثر نسوية منها عندما كتبت الخطاب التالي إلى والدة زوجها السيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر قائلة:

" سيدتي:

سلاماً وبعد، إنَّ اعتقادي بك وبعدلك، ودفاعك عن حق المرأة، يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهاناً على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر قاصراً عليَّ لما أحرجت مركزك، لعل أنَّك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال أنَّه تزوَّج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق إن عجزتِ عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك؛ لأنَّه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك، كما تظنون يا معشر الأغنياء، ولكن هناك طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، إنَّ نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة واحدة يعلم ويتحقق من أنَّها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، طالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابياً، قبل أن يتحوَّل عني وينكرها وينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي، وما مطالبتي بحقها وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقد عشت قبل معرفتي بابنك، وكنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيراً، وربما أكثر ممَّا كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة، وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وأنزوي في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر ممَّا كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوَّج منه، ولا أن ألد منه ولداً، ولكن هذه غلطة واسأليه عنها

أمامي، وهو الذي يتحمَّل مسؤوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مراراً وتكراراً، حتى وقع ما لم يكن في حسابي، هذه هي الحقيقة الواقعة وانتهى الأمر".

مشاعر بعض النساء

لم تهدأ النساء عن المطالبة بحقوقهن في جميع أنحاء العالم، كتبت الروائية ريبيكا ويست "البريطانية" منذ ما يقرب من 100 عام: "أنا نفسي لم أتمكن أبدًا من معرفة ما هي النسوية على وجه التحديد: أنا أعرف فقط أن الناس يدعونني بالنسوية كلّما عبّرت عن المشاعر التي تميزني عن ممسحة الأرجل".

تقول الدكتورة جولي شوارتزبارد طبيبة أعصاب تعمل في عيادة خاصة في أفينتورا، فلوريدا منذ عام 1998، في مقال لا عنوان له:

"النسوية في القرن الحادي والعشرين: جديدة ومحسنة

أول درس لي في النسوية حدث في عام 1970. كنت أحضر تخرجي من الحضانة (نعم، هذا ما أطلقوا عليه في ذلك الوقت). وقف كل طفل على المنصة وأعلن اختياره الوظيفي في المستقبل، وقفت بفخر أمام جميع الآباء وأعلنت أنني أريد أن أصبح ممرضة، كما تقول تقاليد الأسرة، سألتني والدتي بعد الحفل لماذا أريد أن أصبح ممرضة؟ كان إجابتي على النحو التالي، "لأن الفتيات لا يمكن أن يصبحن طبيبات"، شرحت لي والدتي مذعورة أنه يمكنني بالطبع أن أصبح طبيبة، هذا الرد لن يدفع مصيري المهني فحسب، بل أصبح أيضًا أساس تعليمي النسوي.

على مر السنين، وطوال كل مرحلة من مراحل التطور، كان صوت والدتي ينطق بطرق مختلفة، ولكن دائمًا مع الرسالة نفسها: يمكنك أن تفعلي أي شيء تريدينه، بالنظر إلى أنني قد أعلنت بالفعل شغفي بالطب في سن الرابعة، كان الافتراض المستنتج أنني سأصبح طبيبة، وبطبيعة الحال، فعلت.

في الماضي، أدركت أن رغبتي في أن أصبح طبيبة كانت متداخلة مع مفهومي عن النسوية، بطريقة ما، كنت أثبت (لمن ليس متأكداً) أن الفتاة يمكنها فعلاً أن تصبح ما تريد".

الدخول على خط النسوية وتشويه صورتها

إن النمو المتسارع لتجارة الجنس العالمية هو أيضًا تهديد لكرامة وبقاء النساء والفتيات، الاتجار بالجنس هو شكل حديث من أشكال الرق للعديد من الفتيات، وخاصة الفقيرات وغير المتعلمات، أفادت الثورة الجنسية النساء من بعض النواحي، لكنها غذت أيضاً الليبرالية الجنسية، مما أدى إلى زيادة تطبيع الدعارة، لقد تم إعاقة النسويات في استجابتهن لهذا التهديد بسبب وجود انقسامات داخل الحركة النسوية حول طبيعة الدعارة: هل هي شكل من أشكال العمل الذي يجب تقنينه، أم أنه انتهاك لحقوق الإنسان يجب إلغاؤه؟

هل يمكننا تخيل إخبار بناتنا أنه بإمكانهن أن يكبرن ليصبحن "عاملات بالجنس"، وأن الدعارة هي الآن وظيفة مثل أي وظيفة أخرى؟ يتم استعباد الملايين من ضحايا الإتجار في الجنس ويموتون بسبب الأمراض الجنسية، يجب مواجهة أزمة حقوق الإنسان العالمية هذه بوضوح أخلاقي نسوي، يجب أن نعترف بأن الدعارة ضارة بطبيعتها، يجب علينا أن نعارض بقوة المتاجرين بالبشر والقوادين والرجال الذين يرعون بيوت الدعارة.

حدثت تغيرات كبيرة للغاية في حياة النساء في العقود القليلة الماضية، وهي تشمل المزيد من الانفتاح حول الحياة الجنسية، وخروج ملايين الأمهات للعمل، واقتحام النساء للصناعات والمهن الجديدة، وقبول أن النساء سيعملن خارج المنزل، وأنجبن أطفالًا خارج نطاق الزواج، ولهن الحق في التحكم في حياتهن الجنسية.

لكن العمل والحياة الشخصية تعرضت للتشويه بفعل قيود الرأسمالية ولم تصل إلى مستوى التحرير، لذلك لا يزال هناك الكثير للقتال من أجله.

تأثير العولمة، واختلاف التجربة

للعولمة والليبرالية الجديدة تأثير عميق على حياة ملايين النساء، لقد خلقت الرأسمالية نفسها أشكالاً ومظاهرَ جديدة لاضطهاد المرأة، اضطهاد المرأة هو نتاج مجتمع طبقي موجود منذ آلاف السنين، فقط مع تطور الرأسمالية طورت أعداد كبيرة من النساء وعياً بموقفهنَّ والقدرة على فعل شيء حيال ذلك.

تم جذب النساء إلى القوى العاملة بالملايين، لكن العمل في المصانع والمكاتب والمتاجر لم يؤدِ إلى تحسين حياة المرأة، ناهيك عن التحرر، تعاني النساء من الاستغلال في العمل كما أنهنّ ما زلن يتحملن العبء المزدوج للأسرة ورعاية الأطفال، أعيد اختراع دور المرأة التقليدي ليلائم احتياجات الاستغلال، من المتوقع الآن أن يوفقوا بين جميع جوانب حياتهنّ ويتم إلقاء اللوم عليهنّ كأفراد عن أي إخفاقات في الحياة الأسرية أو العملية.

على الرغم من أن جميع النساء يعانين من الاضطهاد والتمييز، إلا أن تجارب حياتهنّ تختلف اختلافًا جذرياً، لا تتحد النساء كجنس ولكن يتم تقسيمهنّ على أساس الطبقة، تشارك نساء الطبقة الوسطى والعليا في أرباح النظام الاستغلالي الذي نعيش فيه ونستخدم هذه الميزة للتخفيف من اضطهادهنّ، عادة ما تكون نساء الطبقة العاملة من يقوم بالطهي والتنظيف وتقديم الخدمات الشخصية لهؤلاء النساء، ويتلقين أجوراً منخفضة، وغالباً ما يهملن أسرهنّ للقيام بذلك.

يُنظر للنساء اليوم أكثر من أي وقت مضى على أنهنّ يتحددنّ وفق حياتهنّ الجنسية، إن إضفاء الطابع التجاري على الجنس بثقافته الفتية والنوادي، ومسابقات ملكة جمال

العالم ما بعد الحداثة، يحافظ على النساء كأغراض جنسية وكأن شيئاً لم يتغير منذ الخمسينيات.

الأيديولوجية الرأسمالية تعطي الأولوية للأسرة والدور التابع للمرأة والطفل داخلها، بينما تجبر في الوقت نفسه أفراد الأسرة على التضحية بـ "الحياة الأسرية" بسبب ضغوط العمل والهجرة، أولويات نظام الربح ووجود الأسرة تعني أن اضطهاد المرأة منظم في الرأسمالية، أي تحرر حقيقي يجب أن يكون مرتبطًا بحركة أوسع من أجل تحرير الإنسان، ولكي يتحكم العاملون في الثروة التي ينتجونها، لهذا السبب يجب على النساء والرجال الكفاح معاً من أجل التحرير.

كفاح المرأة

لن تنتصر أية حركة من دون كفاح، في القرن التاسع عشر أخذت الحركة من أجل تحرير المرأة اسمها من حركة إلغاء العبودية، وفي القرن العشرين، أخذ تحرير المرأة اسمه من الحركات المناهضة للاستعمار في جميع أنحاء العالم، يجب أن يناضل تحرير المرأة في القرن الحادي والعشرين من أجل تغيير العالم وإنهاء المجتمع الطبقي الذي خلق الاضطهاد والاستغلال في المقام الأول، فمثلاً تغيير مشكلة وصف المرأة بالمختلة عندما يطلّقها زوجها، أو مفهوم المرأة سليطة اللسان، أو الزوجة المزعجة، التي تنتقل من جيل إلى جيل، القصص العديدة التي رواها أفراد أسرة الزوج والزوجة، لا يعتبر في كثير من الأحيان الزواج اليوم شيئاً سعيداً، فبعض الناس يعتقدون أنه لا يوجد شيء نتطلع إليه، في معظم الحالات لأن الرجال يعتقدون أن المرأة ستتغير وتبدأ في "التذمر" من كل شيء، كما أن الرجال لا يعتقدون أن المرأة تستطيع أن تفعل الأشياء نفسها التي يفعلها الرجل، سيكون هناك دائماً ذلك الرجل الذكوري الذي يعتقد أن الرجل أقوى من المرأة، في العديد من الوظائف، قد تفعل النساء نفس الشيء بالضبط الذي يفعله الرجال باستثناء أنّ الرجال يتقاضون رواتب أكثر من النساء حتى لو كان مبلغاً ضئيلاً.

تمت دراسة مشكلة مكانة المرأة في المجتمع لعدة قرون، ولا تزال ذات صلة في بداية القرن الحادي والعشرين، يُظهر لنا تاريخ القرن العشرين مثالاً هامًا على حركة حقوق المرأة، التي تمكنت من إحداث تغييرات كبيرة في دور ومكانة المرأة في حياة المجتمع، في القرن العشرين، حدث تغيير جذري في دور المرأة، حيث لعبت دوراً مهماً في الاقتصاد والسياسة والثقافة ومجالات الحياة الأخرى، أدى نضال المرأة الطويل من أجل المساواة إلى تغييرات معينة في الوعي الاجتماعي في وجهات النظر حول الدور الاجتماعي والسياسي للمرأة، ولكن على الرغم من ذلك، لم تتحقق المساواة الكاملة.

تاريخ حركة حقوق المرأة وتغير دور المرأة في المجتمع

تعتبر بداية حركة حقوق المرأة نهاية حرب الاستقلال، التي حارب فيها المستعمرون الأمريكيون من أجل الحقوق السياسية، وحُرم منها أكثر من نصف السكان الأمريكيين، كان الكثير منهم من النساء، كما لم تكن هناك حقوق في العبيد والخدم والعقود الفقيرة، يُعتقد أن حركة إلغاء الرق، التي بلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر، كان لها تأثير كبير على صعود الحركة النسائية. في المؤتمر العالمي الأول لمكافحة الرق، الذي عُقد في عام 1840 في لندن، قرر اثنان من المؤسسين المستقبليين لحركة حقوق المرأة – إليزابيث كيد ستانتون ولوكريتيا موت أن يكونا نشطين بعد أن تعرضا لتمييز كبير بين الجنسين خلال المؤتمر.

تعتبر نقطة البداية للنضال الطويل من أجل حقوق المرأة في الولايات المتحدة في عام 1848، عندما انعقد مؤتمر في مدينة سينيكا فولز، حيث اشتكى حوالي ثلاثمائة رجل وامرأة وقدموا قائمة بالإجراءات اللازمة، أصدرت إليزابيث ستانتون "إعلان المشاعر"، والذي يُطلق عليه أحيانًا "إعلان الحقوق والمشاعر"، والذي تم توقيعه خلال المؤتمر، كأساس للوثيقة، تم أخذ إعلان الاستقلال الأمريكي، وبناءً عليه وافق ستانتون على أن "جميع الرجال والنساء خلقوا متساوين". (فليكسنر، 1996)، بحكم طبيعة الأهداف

والغايات، بما في ذلك حماية المصالح الخاصة للمرأة، تنقسم الجمعيات والنقابات النسائية إلى أعمال خيرية واجتماعية وسياسية ودينية ومهنية وأخلاقية.

نتيجة للمكاسب البطيئة في نهاية القرن التاسع عشر/ النصف الأول من القرن العشرين، تمكنت النساء من كسب الحق في التعليم والمساواة مع الرجال في العمل والحصول على الأجور، وبعد ذلك حصلوا على حق التصويت والترشح، والحق في المشاركة في النقابات العمالية والأحزاب السياسية، والحق في الطلاق، وفي بعض الأماكن الحق في استخدام وسائل منع الحمل والحق في الإجهاض، والحق في المساعدة العامة وإجازة الأمومة، في إجازة لرعاية الأطفال، إلخ، وهكذا، بدأت التحولات البطيئة والتدريجية في العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، وانتزاع حقوق المرأة، ثم حقها في السلطة.

ولكن على الرغم من كل التغييرات الإيجابية، غالباً ما كانت المساواة على الورق فقط، ولكن كان من الضروري تغيير المواقف تجاه المرأة في أذهان الناس، بدأت "الصحوة" أو "النهضة الأنثوية" في الستينيات وكان مركزها في الولايات المتحدة، حيث كانت هناك في تلك السنوات تكثيف للعمليات الديمقراطية التي تهدف إلى القضاء على أشكال مختلفة من التمييز.

في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، تدهورت الحركة النسوية كحركة في الولايات المتحدة، تطورت الحركة النسوية على مستوى الدولة، ونمو معاداة النسوية، والتركيز على الجنس، والجسد، وخصوصيات النساء واختلافاتهن، وتطوير ثقافة فرعية بديلة للمرأة، كل ذلك يشير إلى مرحلة جديدة لإعادة التفكير في مكانة الجنسين في العصر الحديث، في المجتمع، ليس من قبيل الصدفة في 1980 – 1990 أنه تم الحديث عن عصر ما بعد النسوية.

يمكن أن يكون كونك نسوية موضوعاً مثيراً للجدل، يعتقد بعض الناس أنه أمر جيد والبعض الآخر يختلف معه، هناك العديد من الأسباب التي تجعل الناس يحبونها أو

لا يحبونها، عندما يتعلق الأمر بالسياسة، فالأمر دائمًا مسألة رأي، لسنوات لم يتم التعامل مع النساء على قدم المساواة مع الرجال، على سبيل المثال، مثل تلك الموجودة في الرسوم الكاريكاتورية في الخمسينيات حيث تصور النساء على أنهن ربات بيوت بلا عقل يقمن بأي شيء يأمرهن به الزوج أو رئيسه أو زميله الذكر. يُظهر أن النساء يتعرضن للضرب من قبل أزواجهن عندما تشتري الزوجة فقط نوعاً خاطئاً من القهوة، ويظهر أنهن بلا عقل، يعارض البعض ويقولون أن الأوقات قد تغيرت، وهو ما حدث بالتأكيد، وأننا حققنا إنجازات كبيرة، على الأجيال القادمة إيجاد طريقتها في معرفة أن النسوية ليست مجرد أشياء ينظر إليها الرجال، أعتقد أن الانضمام إلى النسوية سيجعل كل النساء والرجال الذين يؤمنون بها ويقاتلون من أجلها أقوى، حيث لا زالت الأغلبية تناهض النسوية، وتؤمن بأنّ النسوية الحديثة مجنونة، المصطلح الذي يحبون استخدامه هو "فيمينازي"، وهو النسويات المتطرفات.

المنظمات النسوية في سورية قبل وبعد الثورة

هذا رأي شخصي

لم توجدْ في سورية منظمات نسوية مستقلّة، فالاتحاد النسائي، ورابطة النساء السوريات لحماية الأمومة والطفولة، وغيرها هي منظمات ذكورية غير جادة في دعم النّساء، الاتحاد النسائي هو حزب بعث رقم 2، ورابطة النساء هي الحزب الشيوعي رقم 2، كوني عملت في رابطة النساء لزمن طويل، رأيت أنّها رديف للجبهة الوطنية، ومع هذا فإن الأعداد القليلة التي كانت تصدر من صحيفة صوت المرأة بطباعة سيئة، وغير حرفية كانت تنكر الهوية الشخصية، فقد كنت أكتب فيها دون أن يوضع اسمي تحت المقال، أو القصة، وهم غير معنيين إلا بالتسابق على المكاسب.

الحركة النسوية بعد الثورة، مثل "الحركة السياسية النسوية" التي تأسست في فرنسا، مثلها مثل منظمات حقوق الإنسان التي تأسست في دولة عربية نفطية، وعلى الرّغم

بأن عددها لا يتجاوز عدد مجموعة على الفيس بوك لكن لها تمويل، وتستطيع النافذات فيها التّحرك، وإبداء الرأي حتى في الأمم المتحدة.

الشلل النسوية التي يؤسسها الرّجال، وحتى تلك الشلل التي تدعي أن لها تأثير، والتي تتبنى الأدب والأفلام ماهي إلا امتداد لعزل المرأة والرجل بشكل عام، وامتداد لاستبداد الدّولة، الذي تحوّل عبر المعارضة "الممولة" إلى استبداد أشد من استبداد الأسد، وما قصص النّجاح التي يرتبها الإعلام، ويحظى أصحابها بجوائز إلا نوع من الضحك على الذّقون، لن أخوض أكثر، ولكن يمكن القول أنّنا بحاجة لحركة نسائية "ثقافية" تضم الرّجال والنساء، تقدّم أعمال النساء المبدعات، توثقها في أفلام قصيرة، أو طويلة، وهذا الوجه النسوي لا يمنع أن تتولى النساء والرجال الخبيرين النهوض بسورية المستقبل عن طريق صياغة الدستور، ولو أنّ الأمر اليوم شبه مستحيل، لأنّه لا زال للمعارضة "الممولة" خوف من الثقافة، كما هو عند النظام تماماً.



(المثقف والسياسي)

في الثورة السورية

حسن النيفي

كاتب سوري

(1)

يجسّد تاريخ العلاقة بين المثقف والسياسي صورة نمطية وسمت كلّ واحد منهما بسمات محدّدة، وبات ما هو خارج هذه الصورة النمطية لا يعدو كونه شذوذاً، والشذوذ يؤكّد القاعدة ولا يلغيها كما يقال. إذ بات من المألوف أن يُصنّف المثقف على أنه يستقي مادّته من معين قيمي مبعثه المبادئ والأفكار والنظريات والقضايا الكبرى، بينما وُصف السياسي بالقدرة على تغيير المواقف والمناورة والنهج البراغماتي في التفكير والبراعة في الالتفاف على الثوابت وتوظيفها لخدمة أغراضه وأهدافه. كما حملت تلك الصورة النمطية في طياتها مياسم أخرى، جعلت من المثقف ذلك الإنسان النائي عن اليومي والمُعاش، غير مكترثٍ بالسياقات الحياتية والمعيشية للناس، تاركاً بينه وبين ما يجري في الواقع مسافة تحفظ له هدوءه وابتعاده عن صخب الحدث اليومي والمعاناة المباشرة للواقع، غيرَ منفعلٍ بالحدث الآني، بل غالباً ما اتُهم بالتحصّن بمبدأ التقية، حرصاً على سلامته وحفاظاً على ذاته من غضب السلطة، في حين احتل السياسي تقويماً أكثر حضوراً في الوجدان الشعبي، باعتباره شخصاً متفاعلاً مع الشأن الحياتي العام، مواكباً لصوت الشارع ....إلخ، إلّا ان هذا الحضور الشعبي الذي حظي به السياسي لم يكن مصحوباً – في غالب الأحيان – بقبول أخلاقي، بفعل المفاهيم القارّة في الوعي العام، فطالما عُرّفت السياسة على أنها (فن الممكن)، والقدرة على تحقيق المصلحة، ولو اقتضى أن يكون ذلك على حساب المبدأ أو القيمة، والبراعة في خداع الخصم، وذلك على نقيض (المثقف) صاحب الأفكار التي لا تغادر المبادئ، مما يجعل أوجه

الخلاف بين الجانبين لا تنحصر في السلوك والممارسة فحسب، بل تقترب من أن تكون قطيعة أخلاقية أيضاً.

بعيداً عمّا أفاضت به الدراسات المعمّقة عن طبيعة العلاقة بين الثقافة والسياسة كمفهومين من جهة، وبين المثقف والسياسي من حيث وظيفة وفاعليّة كلٍّ منهما في المجتمع من جهة أخرى، فيبدو أن ثورات الربيع العربي، والثورة السورية على وجه الخصوص، أتاحت المجال لإعادة النظر فيما تنمّط من أفكار وتصورات، كما أكّدت أن المفاهيم والرؤى المؤطّرة بالنظريات لا تملك جداراً حديدياً يعصمها من التصدّع والتشظّي أمام القوّة الدافعة لحركة التاريخ، ولا غرابة في ذلك، طالما أن الفحوى القيمي للثورة السورية إنما تجسّد بكشوفاتها الثقافية والمعرفية أكثر مما تجسّد بإرهاصاتها السياسية التي انتهت إلى الشحوب.

(2)

لا حاجة للتأكيد على أن شرارة الثورة السورية انطلقت من الوسط الشعبي، من الشارع، ولم تنطلق من الأطر الحزبية، او من مكاتب الأساتذة والأكاديميين، وكانت العفوية هي إحدى سماتها، إلّا أن هذه الانطلاقة العفوية سرعان ما أعقبها أمران اثنان، هما الميل باتجاه الانتظام ضمن أطر ثورية شعبية (التنسيقيات)، ثم الامتداد السريع، وحيال ذلك فقد حدث غير ما هو متوقع، وأعني أن المثقفين السوريين، وتحديداً غير السلطويين، كانوا أكثر تفاعلاً مع الثورة من الكيانات السياسية، ولئن احتاجت بعض الأحزاب والشخصيات السياسية بعض الوقت (أيام – أسابيع) لتتخذ قرارها وتحدد موقفها من الحراك الثوري السلمي آنذاك، عبر بيانات أو تصريحات رسمية، فإن قطاع المثقفين، وبصفاتهم الشخصية، لم يكونوا الأسرع تفاعلاً مع الحراك السلمي فحسب، بل إن العديد منهم كان جزءاً من ذلك الحراك، دون أن يطرحوا أنفسهم كقادة أو متصدّرين للمشهد، إلّا أن أسبقية موقف المثقف من الثورة لم تمنحه ذلك الدور الذي

احتلّه السياسيون فيما بعد، بسبب النشاط الفردي للمثقفين وعدم انتظامهم في أطر أو كيانات تنظيمية محددة، فظل نشاطهم ذا طابع فردي في غالب الأحيان.

ومع ازدياد سخونة الأحداث وتسارعها في الشارع السوري، بدا دور المثقف بالانكفاء شيئاً فشيئاً موازاة مع انزياح الثورة نحو طور السلاح وازدياد وتيرة العنف، وانتشار الفصائل العسكرية التي باتت تفتقر إلى التنظيم والقيادة المركزية والمشروع ذي المعالم الواضحة، فضلاً عن أن ازدياد سطوة السلاح قد عزّز القناعة لدى معظم المثقفين بأن دورهم بات منحسراً في هوامش ضيّقة جداً، وأن المبادرة باتت مرهونة بيد من يحمل السلاح، الامر الذي ولّد جدلاً كبيراً في أوساط المثقفين، بين مؤيد للمقاومة العسكرية وبين معارض لها، أضف إلى ذلك أن باب تسليح الثورة كان المقدمة التي مهدت للتدخل الإقليمي والدولي الذي بات المموّل الأساسي لمعظم الفصائل المقاتلة على الأرض السورية.

(3)

حين بدت الحاجة ماسّة لتشكيل كيانات سياسية تمثّل الثورة السورية، انقسم جمهور المثقفين من جديد، فمنهم من آثر الانكفاء أو الابتعاد عن تلك التشكيلات والأُطر، ويمكن أن يكون قد استُبعدوا أو لم تُتح لهم الفرصة، ومنهم من انخرط في تلك التشكيلات، وكان أول كيان سياسي يتشكل في عهد الثورة هو المجلس الوطني السوري (2 – 10 – 2011) وتم اختيار أحد الشخصيات الثقافية ليكون على رأس ذاك الكيان (الدكتور برهان غليون)، وقد بدت خلال قيادة الدكتور برهان للمجلس أول علائم التناقض في التفكير والسلوك بينه – كمثقف – وبين العديد من أعضاء المجلس – السياسيين – وقد أرجع الدكتور برهان في كتابه (عطب الذات) أسباب تلك التناقضات إلى البواعث الدافعة كلا الطرفين للعمل، تلك البواعث التي تتراوح بين من ينظر للمصلحة الوطنية كأولوية، وبين من يراها من منظور مصالحه الشخصية.

وفي خطوة تالية تشكّل الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة (11 – 11 – 2012) وقد انضوى بين صفوفه عدد من الشخصيات الثقافية المعروفة بنشاطها السياسي في تاريخ المعارضة السورية، وكان ينتظر كثير من السوريين أن يكون لتلك الشخصيات دورٌ مميّز أو بصمات واضحة في الأداء السياسي للائتلاف، ولكن ما حصل هو العكس، إذ سرعان ما أخذت تلك الشخصيات بالانسحاب من هذا الكيان تدريجياً، مُسوغةً مغادرتها تلك بأن الائتلاف بات محكوماً بالإرادات الدولية والإقليمية، بل فاقداً لقراره الوطني، ولم يعد يلبي تطلعات السوريين، ومنهم من عزا انسحابه إلى تحوّل الائتلاف إلى كيان مغلق تسيطر على مفاصله بعض الشخصيات المعروفة بولائها الخارجي اكثر من ولائها للقضية السورية.

(4)

منذ أواخر العام 2016، أصبح خضوع الجغرافية السورية لتقاسم النفوذ الدولي أكثر تبلوراً، كما بات صراع السوريين مع نظام الأسد محكوماً أو مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالإرادات الدولية التي تتصارع على الأرض السورية من اجل مصالحها بالدرجة الأولى، فمن الناحية العسكرية باتت جميع القوى والفصائل تعمل بأوامر مشغّليها الخارجيين، ولم تعد تحمل مشروعها الخاص الذي تقاتل من أجله، ومن الجانب السياسي، فبعد إيجاد مسار أستانا مطلع العام 2017، وتشكيل هيئة التفاوض ذات المنصات المتنوعة، بات دور الكيانات السياسية للمعارضة أقرب للدور الوظيفي، كما باتت القناعة تتعزز لدى كثير من السوريين بأن قضيتهم أصبحت خارج نطاق إرادتهم، ولم تستثن هذه القناعة جمهور المثقفين الذين سلكوا – حيال هذا الواقع – مسالك شتى، فمنهم من آثر الاستمرار في نشاطه الفردي، ومنهم من اتجه نحو تشكيل تجمعات أو منتديات في المجال الافتراضي، فيما نحا قسم آخر باتجاه تشكيل أحزاب أو تجمعات سياسية، فضلاً عن انخراط البعض في روابط أو أطر ثقافية أخرى، إلّا أن الجامع المشترك بين نشاط هؤلاء المثقفين جميعهم هو عدم التأثير المباشر والفعلي

في سيرورة ما يجري من أحداث، وهذا لا ينفي – بالطبع – ما يتركه أي حراك ثقافي من أثر على الوعي العام.

(5)

من المُنجَزات المهمة والمثيرة لثورة السوريين، زوال معظم التخوم التي ترسّخت في الأذهان والوعي العام بين مفهومي (المثقف والسياسي)، فالثقافة الخاوية من البعد الإنساني والمنبتّة عن السياق الحياتي للناس، والتي لا تكترث لشقاء الكائن البشري أو سعادته، لا يمكن أن تُراكم أيّ ثراء قيمي في تاريخ الحضارة، وكذلك السياسة حين لا تتقوّم على حوامل معرفية وبواعث أخلاقية، وحين تتجاهل يقظة الضمير ونوازع الإخلاص فلا تعدو كونها – حينئذٍ – ضرباً من الزيف والخداع. فكم من مثقف – في الحالة السورية – أدار ظهره لمأساة السوريين منحازاً إمّا لمصالحه الشخصية أو لنصرة الطغاة، وكم من السياسيين الذين برعوا في التسلّق وتصدّر المشهد، لا يحدوهم سوى الجوع الشديد إلى السلطة والنفوذ والاعتياش على مواجع الناس، وبالتالي نجد أن كلا النموذجين مسيءٌ لشعبه وقضيته.

لقد كان – وما يزال – مفهوم (المثقف العضوي) وفقاً لغرامشي، يختزل الكثير مما يمكن أن يقال، ولكن إذا كان هذا المفهوم ما يزال محفوفاً ببعض الريبة (الإيديولوجية) لدى البعض، فإن الانبثاقات الثقافية لثورات الربيع العربي، والثورة السورية على وجه الخصوص، قد أسهمت في الكشف عن مقدار العطالة الفكرية والثقافية التي كرّستها الإيديولوجيات التقليدية بكافة أشكالها، وأشرعت أمام الوعي آفاقاً إنسانية أكثر غنًى ورحابة من أقفاص الإيديولوجيا، فهل يمكن لهذه المفاهيم التي أنتجتها الثورة وأملتْها تحولات تاريخية لا يمكن تجاهلها، أن تكون حافزاً للمثقفين السوريين نحو مبادرة ثقافية جديدة خالية من التوصيفات الجاهزة لكل من السياسي والمثقف؟.

مرتكزات الانتقال إلى الجمهورية السورية الثالثة (*)

د. عبد الله تركماني

كاتب وباحث سوري

لئن تمكّن نظام البعث من تأسيس جزء من شرعيته على عوامل فوق وطنية، فلقد تمكّن من تفتيت آليات وبنى الولاء الوطني بشكل يولد حالياً حالة من الفراغ وافتقاد الزعامة بشكل خطير. ومع دخول الصدام مرحلة الاستعصاء الراهنة ووصولنا إلى مرحلة توزان الضعف، يستمر المجتمع السوري في تقديم التضحيات الجسيمة، وليصبح التحدي الأكبر الذي سيواجه الجمهورية الثالثة هو كيفية نقل السلطة ومفاتيحها إلى شرعية دستورية ديمقراطية.

لقد عبّرت الثورة عن رغبة أصيلة لدى أوسع قوى الشعب في إقامة جمهورية سورية ثالثة، والانتقال بالبلاد من عهد " الشرعية الثورية " إلى " الشرعية الدستورية " القائمة على الحكم المدني الديمقراطي. لكنّ الإشكال أنه في غياب أي مستوى مقبول من القيادة السياسية واللوجستية، بل وغياب الحد الأدنى المقبول للقيادة العسكرية، يصبح السؤال الأساسي: كيف يمكن إعادة توليد عقد اجتماعي سياسي جديد يكفل تحويل حالة الفوضى الراهنة إلى عملية بناء لشرعية لا تقوم على تعسف منطق الصراع بل على توافقات منطق العقد الوطني.

فما هي مآلات الجمهورية السورية على صعيد الدولة والمجتمع؟ وعلى صعيد الجغرافيا والديموغرافيا؟ وهل مازال ثمة أمل يرجى من استمرار هذه الجمهورية؟ وما هي الإجماعات الجديدة التي ستتشكل عند السوريين الجدد؟

1- لا تتطور المجتمعات إلا في كنف الدولة

لا سبيل للجماعات لكي تتقدم وتنتج وتراكم وتنظِّم كيانها الداخلي إلا بأن تتحول إلى جماعات سياسية تنشأ الدولة عن اجتماعها السياسي. وتتفاوت الدول في درجة قيمتها وتطور نظمها بتفاوت مستوى التنظيم الذاتي للجماعات السياسية التي تكوِّنها، وبتفاوت درجة نضج فكرة الدولة في وعي تلك الجماعات.

وفي سياق الدولة لا تكتمل السيادة الوطنية من دون تمتُّع كافة المواطنين بالحريات غير المنقوصة: حرية الرأي والتعبير، حرية التجارة والتنقل، حرية تشكيل أحزاب وروابط مدنية وسياسية. أي لابد أن تتأصل الديمقراطية في مفاصل الحياة السياسية، بحيث لا تبقى مجرد آلية لانتخابات شكلية، وبالتالي توظف لخدمة الفئات الحاكمة. كما أنّ ممارسة السيادة الوطنية، من قبل سلطة الدولة الحاكمة، تستدعي وجوب وجود معارضة سلمية منافسة تضبط الحكم، من خلال تطلعها للحكم مستقبلاً، واستعدادها للمنافسة في الانتخابات المقبلة الدورية.

وهكذا، فإنّ السيادة الوطنية تتحدد بمدى احترام سلطة الدولة لحقوق المواطنين، وضرورة إشعار الفرد بأنّ الدولة هي الحصن لحمايته، وهي بناء مستقبل زاهٍ لأبناء الوطن كلهم دون استثناء، وما من عوائق دون ترقية الاندماج الوطني، بما يقتضيه من جهود فكرية وسياسية واجتماعية وقانونية كبيرة.

على أنّ ترسيخ قيم المواطنة، فكرياً وعملياً، لدى أفراد المجتمع ومؤسسات الدولة، أصبحت من واجبات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني والأحزاب السياسية، هذه القيم التي يأتي في مقدمتها: الوعي بمهام الدستور، وبالحقوق السياسية والاجتماعية

والاقتصادية والثقافية للفرد والمجتمع، وبمهام الفرد، ومدى الحريات الممنوحة له وأنواعها، وبكيفية تشكيل القرارات السياسية، وكيفية تنفيذها، وبنمط الحكم السائد، وبنظم الحكم العالمية، وبشروط التمثيل النيابي، وبكيفية المشاركة في الانتخابات، وتشكُّل المجالس النيابية، وغيرها من قضايا المواطنة التي تساهم في رفع سوية المواطنة ذاتها، وتخليص الفرد والمجتمع والدولة على السواء من عقلية وثقافة الراعي والرعية، وكل ما يعيق تحقيق دولة القانون. هذه الدولة، التي إذا ما حققت مشروع المواطنة لأبنائها ستشكل الرافعة العملية والفكرية لاستمرار الدولة وقوتها من جهة، وترسيخ القيم الإنسانية لشعبها ومكانته بين شعوب العالم من جهة ثانية.

والنتيجة إنّ قابلية الدولة لاستعادة دورها التوحيدي في سورية لا تزال قائمة ومطلوبة، وما يزيد من فرص النجاح أن يحضر المجتمع المدني، بمختلف فئاته وفعالياته، ليمارس دوره في حماية الوحدة والتلاحم.

2- الانتقال من الثورة إلى الدولة

على الرغم مما مرت به الثورة السورية من أطوار وكل ما أفرزته من هيئات وتجمعات تولت إدارتها، باختلاف الآليات والأدوات والأشخاص وسطوة متغيرات الظرف الإقليمي والدولي، إلا أنها إلى اليوم لم تستطع إنتاج البديل المؤسساتي لنظام الحكم القائم، والذي يعتبر الآلية الأكثر إلحاحاً في هذه المرحلة، والمتمثل اليوم بضرورة الانتقال من فكر الثورة إلى منطق الدولة والمبادرة لامتلاك وظائفها وممارساتها.

وإن كان الانتقال من الحالة الثورية إلى فكر الدولة يحتاج إلى مجموعة خطوات وآليات، فإنّ إيجاد رجالات دولة حقيقيين في مختلف المجالات، يعون أهمية وخطورة المرحلة وحجم التحديات والمسؤوليات التي ستفرزها، هو أساس هذا الانتقال والأرضية والحامل الأهم.

وأثناء البحث والإعداد لتلك القيادات لابد من مراعاة مجموعة عوامل لا يمكن تجاوزها نتيجة خصوصية الوضع السوري، ولعل أبرزها :

أ – كف البحث عن القائد الرمز ، والتوجه لبناء المؤسسات، التي تمثل التجربة الأقرب للثورة السورية والأكثر واقعية، وهي القادرة على إنتاج قادة والحفاظ على عامل الديمومة وقطع الطريق بوجه أي استئثار بالسلطة وإعادة إنتاج دكتاتوريات.

ب – إنّ إغفال مفهوم القائد الرمز لا يعني إنهاء مفهوم القيادة، والذي يؤمّن بالدرجة الأولى وحدة واتساق القرار.

ج – إنّ من أهم شروط ومواصفات أولئك القادة المرتقبين تشرّبهم وإيمانهم بالفكر المؤسساتي، وليس الفكر الوصولي السلطوي، ما يجعل معيار الكفاءة والأداء هو الأساس في اختيارهم.

د – لابدَّ أن تتمتع تلك القيادات بهامش حر دون أي قيود أيديولوجية، وذلك لقراءة الواقع والالتزام بمعطياته والاشتقاق منه.

إنّ تحقيق الانتقال إلى وظائف وممارسات الدولة لا يعني أبداً إلغاء فكرة الثورة أو تهميشها أو التنازل عن أهدافها، فالثورة بمعناها الوظيفي حالة مستمرة ومتجددة، وإنما المقصود به تشذيب الفكرة الثورية وتدعيمها عبر دمجها بمؤسسات الدولة وتحويل الثورة إلى فكرة وبوصلة، أي الإبقاء على الحالة الثورية كموجه للعمل وتحويل الآليات إلى صيغة مؤسساتية تؤدي وظائف الدولة.

3– في الوطنية السورية الجامعة

منذ بدء الثورة، ومع تصاعد العنف المحض الذي بدأته سلطة آل الأسد، باتت أغلب المكوّنات السورية تستشعر نفسها كجماعات وهويات عابرة للكيان، وتتخيل نفسها أقرب الى دول ومجتمعات خارج بلادها، أكثر مما تستشعر قرباً وتماهياً مع المكوّنات الوطنية ضمن الكيان السوري. مما أدى إلى تداعي الإطار الوطني للصراع لمصلحة الانتماءات

الفرعية، ما دون الدولة الوطنية الجامعة. ولا شك أنّ سلطة آل الأسد كانت الرائدة في تحطيم الإطار الوطني للصراع، كما أنّ ظاهرة الأسلمة المتطرفة للثورة، خاصة مع وجود الجهاديين الأجانب، تركت آثاراً على انهيار الإطار الوطني تدريجياً.

ويتعدى انهيار الإطار الوطني النطاق السياسي والجغرافي إلى النطاق الزمني أيضاً، إذ لدينا من يعيشون زمناً أصولياً لا يتغير، يستعيدون فيه بواكير الإسلام المفترضة، ومن يعيشون زمن سلطة آل الأسد " الأسد أو نحرق البلد "، ومن تنشدّ أنظارهم إلى الوطنية السورية الجامعة.

ونرى أنّ خيار الوطنية الجامعة يمكن أن يضع السوريين في وضع أفضل لمواجهة تحديات المستقبل، إذ إنّ التفكير في المعطيات الراهنة يقتضي التأسيس لتصور جديد لهذه الوطنية، يقوم على النظر إلى المكوّنات السورية المختلفة كمكوّنات تأسيسية متساوية الحقوق والواجبات، ويؤسس لامتلاك السوريين دولتهم، ويسهم في تكوّنهم كمواطنين أحرار متساوين.

4- في الحاجة إلى عقد اجتماعي جديد

في ظل صراع الهويات القائم اليوم، وكذلك المقتلة التي عصفت بسورية، أصبح السوريون في حاجة ملحة إلى عقد اجتماعي جديد، ينقلهم إلى الحالة الوطنية الأرحب. وبطبيعة الحال، ليس المدخل إلى ذلك مشروع " الفدرالية الكردية " في شمال سورية وشرقها، ومشروع " سورية المفيدة " في غربها. مثل هذه المشاريع، لن تؤول، في ظل الأوضاع الراهنة، إلى قيام دولة فدرالية في سورية، بل سوف تنتهي – غالباً – إلى العصف بالكيان الوطني القائم، حيث كان لخرائط القتال المتغيرة، على مدى أكثر من تسعة أعوام، وخرائط المجازر والتغيير الديموغرافي، الدور الأساس في رسم الحدود، وفقاً للهُويات الطائفية والإثنية.

وبعد انهيار الدولة الشمولية لا بدَّ من إعادة تأسيس النظام السياسي بدءاً من القاعدة، وإعادة تأسيس قيم الديموقراطية بدءاً من مشاركة كل مواطن في تحديد القرارات المباشرة التي تمسه على الصعيد المحلي، بانتظار أن تولّد العمليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قوى سياسية واجتماعية جامعة، تستطيع توليد مجتمعاً مدنياً قوياً وأحزاباً سياسية قوية وقيادات وزعامات، يمنحها المجتمع قدراً كافٍ من الثقة والسلطة. فما سقط في سورية هو قيم الشمولية الجامعة، وما يجب أن يرتفع فيها هو روح التوافق الطوعي، المستند إلى المصالح العملية للناس ولقيمهم الثقافية والوطنية المشتركة.

من خلال هذا التحليل لا يمكننا أن نتصور سورية دولة موحدة، إلا من خلال بناء دولة تتمتع فيها مختلف المحافظات والمناطق بقدر كبير جداً من اللامركزية الإدارية الموسّعة، على أساس جغرافي وليس قوميًا أو طائفيًا. بحيث يمكن التفكير لاحقاً في تعزيز طوعي للوحدة الوطنية السورية والبنية الوطنية الموحدة، من خلال الاندماج الطوعي لكل مكوناته. فلقد انتهى زمن الفرض والقمع والاستبداد العقائدي لكل الهويات الفرعية للمواطنة السورية.

لذلك فإننا نعتقد أنّ شكل أي مخرج للأزمة يجب أن يتأسس – بالضرورة – على هذه الحقائق المؤسسة على الطوعية وتعدد الهويات والدولة اللامركزية الإدارية، ولابد من بنية وطنية سورية تستند إلى دولة تتمتع بقدر كبير من اللامركزية كأساس إداري، تتمكن فيها كل شرائح ومكونات الشعب من إعادة بناء هيكليتها الإدارية المحلية واقتصادها وأمنها وكل بنيتها على أساس محلي، لتنتسب طوعاً ومصلحياً للوطن السوري، ومن خلال تنميتها ونموها في الإطار الوطني.

5– أسئلة برسم المستقبل

تطرح الثورة السورية في متغيراتها الكثيرة سؤال الدولة بشكل رئيسي، فما من شك أنّ الدولة كما عرفناها بعد الاستقلال، ودولة البعث، لم تعد قادرة على توليد شرعية الحكم، أو تلبية مطالب الشعب، والأهم من ذلك، أنّ الثورة نفسها، كشفت طبيعة الخلل في

العقد الاجتماعي والسياسي السوري، واختراقه من قبل بنى تعود إلى ما قبل الدولة الوطنية الحديثة، فقد طفت على السطح نزعات قبلية، ودينية، ومناطقية، وقومية، ولا يمكن بأي حال الاكتفاء بإدانة هذه النزعات، فما هو مهم دوماً، معرفة مدى قدرة المجتمع على رأب الصدوع؟ وما هي الأشكال المؤسساتية والإدارية القادرة على توليد عقد اجتماعي وسياسي جديد، وبناء المفهوم الوطني على أسس جديدة؟ وأن تكون الأشكال الجديدة كفيلة بإنتاج مستوى مختلف من العلاقات بين مكونات الشعب السوري، على تنوعها واختلافها، وأن يكون هذا المستوى الجديد، مؤهلاً لإنتاج الدولة ككل.

إنّ طرح اللامركزية الإدارية الموسّعة يمكن أن يلبي طموحات التنوع السوري في لوحته الفسيفسائية، ويمكن أن يشكل رافعة للجمهورية السورية الثالثة ، كما أنه يعيد مسألة انبثاق الشرعية وتطورها إلى المستويات المحلية، بعد أن أصبح من الصعوبة بمكان توليد منظومة مركزية للشرعية، مع وجود خلاف فكري حاد في مرجعيات القوى الثورية سياسية كانت أم عسكرية.

6- نحو الجمهورية السورية الثالثة

بعد أن عقد الشعب السوري العزم على أن يخرج من حياة العبودية، التي تخبّط في أوحالها وظلماتها أكثر من 50 سنة، ويعود حرّاً كما ولدته أمهاته. فما الذي ينبغي تغييره؟ وما الذي ينبغي الإبقاء عليه؟ وكيف نضمن التطورات المستقبلية؟ وماذا نفعل بالثقافة السلطوية القديمة؟ وهل التغيير يحدث من تلقاء نفسه أم لابدَّ من إدارته؟ وما هي الفترة التي ستستغرقها عملية التحوّل؟ وهل يمكن لثقافة بكاملها أن تتغير لتحل محلها ثقافة أخرى؟

والسؤال الرئيسي هو: كيف يمكن أن يتحقق الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية في سورية؟ أي كيف يتم تفكيك النظام الشمولي والدولة الأمنية؟ وكيف يعاد إنتاج النظام السياسي على نحو يؤسس لديمقراطية تشكل أساساً للتغيير بكل مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية والثقافية والسياسية، بما يفرضه ذلك من إعادة بناء الدولة السورية الحديثة؟

.

لا شك أنّ تحديد الأولويات ومراجعة الأهداف المزمع تحقيقها ضرورة ملحة في سورية، ليتم التركيز على متطلبات تكريس القواعد الديمقراطية وبناء المؤسسات الدستورية ومعالجة المشاكل المعيشية وتحديث الهياكل والبنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتحقيق التنمية والارتقاء بمستويات القدرات السورية.

إنّ سورية أحوج ما تكون إلى الدولة الديمقراطية القادرة والعادلة والفاعلة، دولة الحق والقانون والمؤسسات الدستورية والتنمية الشاملة المستدامة، حقوق المواطنين فيها هي واجبات الدولة، بما هي دولة الكل الاجتماعي. هي دولة كل مواطنيها بلا استثناء ولا تمييز، يشارك فيها الأفراد والمكوّنات الاجتماعية مشاركة فعلية من خلال المؤسسات. والحل المجدي الوحيد يكمن في قيام الدولة، التي عمادها المواطنة الكاملة القائمة على دستور عادل لا يميّز بين المواطنين على أساس ديني أو مذهبي أو قومي.

ولعلَّ مسألة الديمقراطية هي من أهم الدروس التي يمكن أن نستخلصها، فقد أدى إضعاف دور المواطن وتقليص المشاركة الحقيقية في العملية الإنمائية إلى ضعف الإنجازات التنموية الحقيقية، إذ إنّ التقدم الشامل لا يمكن تحقيقه واستمراره في ظل غياب التغيير السياسي، والاستناد إلى قاعدة ديمقراطية أوسع وتمتّع فعال بالحريات السياسية والفكرية. ولا يمكن تمثّل هذه التحولات بعمق إلا في إطار الدولة الحديثة التي تقوم على أسس ثلاثة: فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، ورقابة المجتمع على سلطة الدولة، وخضوع سلطة الدولة نفسها للقوانين التي تسنها.

ومن غير الممكن تصوّر سورية لكل مواطنيها بمعزل عن عودة الروح إلى المجتمع المدني، وضمان مؤسساته المستقلة عن سلطة الدولة، كي يسترد المجتمع حراكه السياسي والثقافي، بما يخدم إعادة بناء الدولة السورية الحديثة. إنّ الدولة التي لا تستمد

مشروعيتها من مجتمعها المدني، وليد مفاهيم السياسة المدنية والعقد الاجتماعي، تكون هشة وضعيفة مهما ادّعت القوة.

وفي كل الأحوال، وطالما أنّ كرامة وحرية الإنسان هي التي تشكل أساس تطور أي مجتمع، فإنّ الرقابة المُمَأسسة، التي تمكّن من وضع الإنسان السوري المناسب في المكان المناسب، تشكل أحد أهم الشروط لتحقيق الانتقال من الاستبداد إلى الدولة المدنية الديمقراطية التعددية بأقل الخسائر، واستئصال شأفة العنف من العلاقات الاجتماعية والسياسية.

إنّ عملية التحوّل الديمقراطي تقتضي إعادة صياغة القيم السائدة، وتغيير أنماط السلوك من خلال مجموعة كبرى متكاملة من التحولات، من أهمها: التغيير من مناخ اليأس والقدرية إلى مناخ الثقة بالذات والقدرة على التحكم في المصير، والانتقال من القدرية التي يسيطر عليها الماضي إلى التوجهات المستقبلية. وفي هذا السياق لا ينبغي توجيه طاقات الشعب السوري لتصفية الحساب مع الماضي وإهمال تحديات الحاضر وتأجيل التفكير في آفاق المستقبل، لأنّ تصفية الحساب مع الماضي ينبغي، استعانة بخبرات الدول الأخرى التي انتقلت من السلطوية إلى الديمقراطية، ألا تؤدي في النهاية إلى تفكيك الدولة ذاتها إلى مكوّناتها المتنوعة.

والتحدي الكبير هنا لا يقتصر على إصلاح التخريب الإنساني والوطني الذي تسبب به الاستبداد، بل يتعداه إلى ظهور الإنسان الجديد، الفرد المستقل الضمير والعقل. فما هو قادم لا يزال كبيراً، ولا يقل عن ثورة دائمة في أشكال وتعبيرات سياسية وثقافية وإنسانية مختلفة. ففي المرحلة الجديدة لن يقبل السوريون بعدم المشاركة في صياغة مستقبلهم، بل سيتصرفون انطلاقاً من حقهم الطبيعي في الكرامة والعدالة والمساواة التامة في وطنهم. وهذا سيعني اعتبار الوطن ملكاً لجميع مكوّناته وليس لفرد أو حزب أو أقلية.

وفي سياق الثورة السورية من أجل التغيير فإنّ القوى الحقيقية، التي نزلت إلى الشارع وقدمت الشهداء من أجل الحرية وإعادة الكرامة للشعب، بلغت بسقف مطالبها ضمان الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية، مع المطالبة بمحاكمة رأس السلطة ومسؤولي الأجهزة الأمنية وقادة الشبيحة. وهي تتبنى، بشكل واضح، تصوراً مستقبلياً لسورية: ديمقراطية، مدنية، دولة كل مواطنيها، ودولة قانون وحريات عامة وفردية تنبذ العنف والطائفية.

خاتمة

إنّ أهم ما يواجه عملية التحول الديمقراطي في سورية هو ضرورة إجراء حوار وطني شامل حول كيفية التعامل مع الماضي في إطار العدالة الانتقالية، بما يؤدي إلى رفع الوعي القانوني وتعزيز الثقافة الحقوقية بأهمية التعامل – إنسانياً وقانونياً – مع الماضي بطريقة تجنّب المجتمع السوري ردود الفعل بالانتقام أو الثأر أو الكيدية، أو تغذّي عوامل الكراهية والحقد والضغينة.

ولكي يتم تسهيل مهمات المحاسبة يمكن تشكيل هيئة عليا مستقلة للحقيقة لكشف الانتهاكات في الماضي وخلال الثورة، بحيث تضم ممثلين عن جميع القطاعات والحقول القضائية والقانونية والإعلامية والأكاديمية والأمنية والعسكرية والصحية والنفسية، إضافة إلى ممثلين عن منظمات المجتمع المدني، ويكون لهذه الهيئة شخصية اعتبارية ومعنوية وضمان استقلالها المالي والإداري، ويتم ذلك قانوناً بحيث تحال إليها جميع الملفات، ذات العلاقة بالمجازر واجتياح المدن وقصفها بالصواريخ والبراميل المتفجرة والاغتيالات أو التعذيب أو السجن أو جرائم الفساد أو غيرها.

إنّ المصالحة الوطنية لا تعني النسيان وإنما إلغاء الثأر والانتقام عبر اللجوء إلى القضاء، وذلك يعني أنه لا بدَّ من أن يقبل كل السوريين، من يشعر أنه كان ضحية للنظام ومن يخاف أن يكون أحد ضحايا التغيير، بأنّ سورية المستقبل قادرة على حمايتهم جميعاً وأن تؤمّن لهم مستقبلاً أفضل. وهنا لا بدَّ من التشديد على مبدأ ربح

الجميع، بمعنى أنّ المسؤولين الحاليين الذين سيصبحون سابقين، ممن لم تتلطخ أياديهم بدماء الشعب السوري وبالفساد العام، يتوجب عليهم إدراك أنّ تفاوضهم بشأن التحول الديمقراطي هو ضمانة لعدم تعرضهم للمساءلة في المستقبل. كما أنّ على الضحايا السوريين أن يدركوا أنّ مستقبل سورية يتعلق بمدى قدرتهم على تجاوز الماضي من أجل الشراكة في سورية المستقبل، وهذا لن يتم بالطبع إلا عبر المفاوضات المشتركة من أجل وضع خريطة طريق للانتقال الديمقراطي.

هوامش

(*) – راجع كتابي الجديد " أنماط من بناء الدولة القومية في التاريخ الحديث "، الصادر عن دار "إي – كتب" في لندن.

[1] – د. عبدالله تركماني، مقدمات ربيع الثورات العربية ومآلاته، دار نون – غازي عينتاب، تركيا 2017.

[2] – ساشا العلو، إعادة إدارة الفكر الثوري بمنطق دولتي، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية – 22 تشرين الأول/أكتوبر 2015.

[3] – د. عبدالله تركماني، في الوطنية السورية الجامعة – صحيفة " جيرون " الإلكترونية 31 تموز/يوليو 2016.

[4] – د. عبدالله تركماني، اللامركزية الموسّعة لسورية المستقبل، محاضرة في إطار ندوة " منتدى هنانو/مركز حرمون للدراسات المعاصرة " حول " العلاقات العربية – الكردية خلال الثورة " – غازي عينتاب في 9 كانون الثاني/يناير 2017.

[5] – د. عبدالله تركماني، أسئلة الانتقال السياسي في سورية – صحيفة " جيرون " الإلكترونية – 6 شباط/فبراير 2017.

أوراق المقالات

الترجمة في العالم العربي إلى أين؟

نهى كمال

شاعرة ومترجمة مصرية

تبقى الترجمة في المجتمعات المتقدمة موصومة باعتبارها شكلا من التأليف، لكن في المجتمع العربي يبخسها قانون حقوق النشر حقها، وتقلّل الأكاديمية من قيمتها، والمحزن بالأمر أن الناشرين يستغلونها مع المنظمات الرسمية والمجتمعية والدينية؛ وبشكل عام يبرهن الكاتب "لورانس فينتي" على أن الترجمة في هذا المأزق بكل أنحاء العالم، لأنها تكشف متناقضات القيم والأعراف الثقافية السائدة واستثناءاتها ومن ثم تشكك في سلطتها، ويؤكد "فينتي "أيضاً على ما يسميه "فضائح الترجمة" بالنظر إلى العلاقة بينها وبين الممارسات التي تحتاج إليها، فيستثمر الحديث عن مختلف اللغات والثقافات والأزمنة والحقول المعرفية والمؤسسات.

تمارس الترجمة مثل أيَّ كتابة بطريقة انعزالية لكنها تربط عدداً هائلاً من المجموعات الثقافية والفكرية، ولهذا يتحتم على المترجم ضرورة امتلاك ثروة لغوية مزدوجة تشمل الثقافتين التي يترجم منها وإليها، ويجب عليه أن يكون مُلمّاً بكل ما يجعل من نصّ ما نصّاً أدبيّاً، أي الإبداع في كيفية استخدام طرق التعبير اللغوي والبلاغي، وما تأسّس من نظريات في حقل الدلالة واللسانيات والتداوليات والفلسفة.

وهذا الأمر يفرض على المترجم أن يحتكّ دائماً بعالم واسع من النقاشات والمسائل والنظريات والفرضيات والمسلمات التي نشأت في علوم أخرى، والتي من خلالها يستطيع المترجم أن يستفيد ويوسع مداركه؛ من أجل استزادة معارفه بمجاله الذي لا يخلو من القيود التي يفرضها عليه النص؛ وتفرضها ثقافة النص وشروط تلقيه وتداوله

في الثقافة الجديدة، وهذا ما قام بتوضيحه الدكتور "محمد عناني" في تمهيده لكتابه "فن الترجمة" حيث قال في معرض حديثه عن الفرق بين مؤلف النص والمترجم: (أما المترجم فهو محروم من هذه الحرية الإبداعية أو الحرية الفكرية؛ لأنه مقيد بنص تمتّع فيه صاحبه بهذا الحق من قبل، وهو مكلّف الآن بنقل هذا السجل الحي للفكر من لغة لها أعرافها وثقافتها وحضارتها إلى لغة ربما اختلفت في كل ذلك، ومع ذلك فهو مطالب بأن يخرج نصّاً يوحي بأنه كُتب أصلاً باللغة المترجم إليها).

في البلدان العربية شهدت حركة الترجمة ركوداً كبيراً في السنوات الأخيرة، فبينما يترجم الغرب عشرات الآلاف من العناوين سنويّاً، تكتفي البلدان العربية مجتمعة بترجمة نحو 3000 كتاب فقط.. ويجمع أهل الاختصاص على أن الترجمة هي فضاء حقيقي للتبادل الثقافي والتسامح وحوار الحضارات، وتلعب دوراً كبيراً في بناء الجسور بين الشعوب؛ لذلك تعالتِ الأصوات في الساحات الأدبية والثقافية العربية للمطالبة بتحقيق رؤية إستراتيجية عربية للنهوض بصناعتي النشر والترجمة، مؤكدين على ضرورة نقل الآداب العربية إلى اللغات الأجنبية لما تحمله من مضمون حضاري في ظل الوضع الراهن حيث ارتبطت صورة العرب والمسلمين وحضارتهم في الغرب بالتيارات الإسلامية المتشددة والإرهاب.

فما هو سبب ركود حركة الترجمة في الوطن العربي، وما هو دور الأوضاع التي تعيشها هذه الأوطان في تدنيها؟ ومن هم الفاعلون الحقيقيون الذين يمكنهم تغيير المعطيات ..؟

بداية، يعترف الدكتور "محمد عناني" أستاذ الأدب الانجليزي؛ وشيخ مشايخ المترجمين في مصر؛ إننا بالفعل في أزمة في هذا الصدد وبحاجة ماسة لقرار من الدولة للخروج منها.

وأوضح أن الصعوبة في الحصول على حقوق الترجمة والنشر تتمثل في تحويل المبلغ المالي الكبير الذى تطلبه دار النشر الأجنبية مقابل الموافقة على ترجمة كتاب ما،

ويرى الدكتور عناني أن هذه المشكلة كارثية بالنسبة لأي مترجم من المفترض أن يكون بلا قيود أو عوائق.. وأشار إلى أنه هو شخصيّا وقع تحت الضغط نفسه واضطر لترجمة الأعمال الكلاسيكية التي لن يطالب أحد بحقوق النشر فيها مثل مسرحيات شكسبير والفردوس المفقود وأعمال هارولد بينتر المتوفى في عام 2005 .. ومنذ هذا العام تحديداً بدأت دور النشر تطالب بحقوقها عن كل ترجمة تصدر لأي عمل صدر من خلالها.

خصوصاً إن الكتاب العربي كله في مأزق نتيجة ضعف الإقبال على الشراء، وهو ما يطول الترجمة بشكل أو بآخر، مما يجعل سوق الترجمة ضعيفاً جداً؛ فوفقاً للإحصائيات العالمية فمعدلات الترجمة في مصر والعالم العربي ما زالت متدنية، وما زال يشوبها العشوائية وإهدار طاقات المترجمين محدودي العدد؛ حيث لا توجد خطة شاملة تنير الطريق أمام مراكز الترجمة، وقال إن عدد المؤسسات التي تعتني بالترجمة محدودة جدّاً، وأغلب دور النشر تتكئ على المترجم لتسترشد به، أضف أنه لم يتم بعد دراسة المكتبة العربية لتحديد ما تحتاج إليه؛ وتشير إلى مواطن النقص فيها، كما أن الجامعات العربية تستثمر المنظومات والطاقات في داخلها لتستفيد من جهد دارسي اللغات وتعمل على إقامة جسور بينهم وبين مراكز الترجمة المختلفة في العالم.

في مديح الثقافة والصحافة

بسام أبو طوق

كاتب سوري

نقل عن غوبلز وزير الدعاية النازي "كلما اسمع كلمة ثقافة أتحسس مسدسي".

وهذه من المنقولات التي تعاد وتستعاد حتى تترسخ صحتها في أذهان الناس، بينما القائل الحقيقي هو المِؤلف المسرحي النازي هانسن يوهست، ما علينا.. أما أنا العبد الفقير، فكلما أسمع كلمة ثقافة.. تتسارع نبضات قلبي وأشتعل حباً وعشقاً وشغفاً.

وفي هذا تتجلى الأوجه المتعارضة للإحساس "ولا اقول الفهم" بالمصطلحات، حسب الموقع الفكري أو الطبقي أو المذهبي الخ..

في المعنى الإيجابي، تتجلى الثقافة أو النشاط الثقافي كقوس قزح، أطياف ألوانه، الفنون والشعر والأدب والتاريخ والتعليم والفلسفة وغيرها من ابتكارات البشرية وإبداعها، منذ تميز الانسان عن الحيوان، وبدأ ببناء حضارته.

في مقابل البناء التكنولوجي والعلمي الذي أنتجته الحضارة البشرية ورفعت مداميكه لبنةً لبنة، تبدو معجزة الابداع الثقافي بمكوناته التي أسلفنا الحديث عنها الأرقى والأجمل، معبرة عن الانسانية بما هي احساس ومشاعر وروح وقلب وعقل.

وفي نظري ووجداني، يتسامى الكتاب والشعراء والفلاسفة والفنانون والمبدعون على مر التاريخ إلى مرتبة تقارب الأنبياء، فإنجازات وروائع الثقافة على مر العصور والأحقاب، تبني عالما منعكسا للعالم المادي، ومثلما تهطل المُزن بأمطارها على الأرض العطشى، فتدغدغها وتنعشها لتفتح مكامنها وتطلق الاخضرار والحياة، كذلك تعكس الثقافة

بأنوارها البهية على العالم الجامد المتثاقل، فتهزهزه وتحفزه، وتكرس إنسانية ورقي الحضارات البشرية.

عدو الثقافة هو الجهل والاستبداد والفساد .. وصديق الثقافة هي الحرية والحق والواجب .. يسعى الفساد لخدمة فرد فاسد، وتسعى الثقافة لخدمة المجتمع، تعيش الثقافة وتتألق في الانتشار والتنوع والتجدد.. ويتوالد الفساد ويتخمر في التقوقع والخفاء والتجمد..

الثقافة ناصعة خضراء، والاستبداد حالك السواد، فلا تعيش افكار المستبدين بعد موتهم، بينما تبقى ابداعات المثقفين على تألقها بعد مماتهم.

قصائد المتنبي وأبو تمام وبايرون وبودلير وماياكوفسكي وغيرهم، لوحات دافنشي وانجلو وفان كوخ وبيكاسو وغيرهم، ملاحم هوميروس وفرجيل ودانتي وغيرهم، مسرحيات سوفوكليس وشكسبير وبريخت وغيرهم، سيمفونيات شوبان وبيتهوفن وتشايكوفسكي وغيرهم، أضافت الى عمر الحضارات سنين ضوئية، بينما أعاق المستبدون والفاسدون والجهلة تقدم هذه الحضارات.

في الثقافة حياة وحب وازدهار، وفي الجهل فناء وكره وتلاشي.

في البدء كانت الكلمة.. عبارة تختصر تاريخ البشرية والحضارة.

أنصار نظرية التطور يؤمنون أن الانسان ارتقى وتطور عن القرد عندما مشى منتصبا على رجليه، أو عندما بدأ يستعمل أصابع يديه، ربما.. فهي نظرية علمية، لها فرضياتها وبراهينها، ولها معترضوها ومخالفوها، ولكني أؤمن أن التجمعات الانسانية قد تطورت عن التجمعات الأخرى، عندما اخترعت الكلمة. فكانت الطفرة وقفزت سنوات ضوئية على سلم الحضارة وعليها تأسست الاديان والتاريخ والاساطير والعلوم والفنون.

الطفرة الثانية هي الكتابة .. التي غيّرت حضارة الانسانية من حال الى حال.

وحديثا "بمقياس زمن الحضارات" اخترعت الطباعة .. لم يعد العلم والادب والثقافة، حكرا على فئات النخبة، بل تعممت على جميع افراد البشر.

على مر العصور والأحقاب، تطورت الكلمة والكتابة والطباعة الى منتجها السحري .. الصحافة.

تعلمت فك الحروف وقراءة الكلمات مبكرا، فتفتح عقلي وخفق قلبي في عالمها الساحر .. الصحافة .. مئات الصحف والمجلات، يومية وأسبوعية وشهرية تزاحمت في بيوتنا السورية، وعلى بسطات شوارعنا، ومنصات احتفالاتنا، وطاولات مقاهينا .. كانت الصحافة وأخبارها ومقالاتها، عنوان أحاديث الاقارب والاصدقاء .. حتى أزمات الوطن والاقتصاد والمعيشة، يتم تحليلها وتنظيرها وابتكار الحلول لمعالجتها، من خلال الصحافة.

الشعر والادب والثقافة والفنون.. وجدت مكانتها وشغفها في قلب المجالس والاجتماعات، على أجنحة الصحافة، الصحافة المقروءة، وأختها المسموعة، تبعتها المرئية، كانت عنوان وألق وحرية الوطن وأبناءه.. كانت تلاوين الحياة والزمان .. سميت بالسلطة الرابعة.. ولكنها كانت اكثر غنى"، وأعم حبا"، وأعلى ولِاء" ، من باقي السلطات.

لم تحتج الى شرطة وجيش وقوانين ونواظم ، ولتنوعها وتنافسها على حب متابعيها ، كانت الأكثر صدقا وتعبيرا.

عشت وعاش ابناء وطني السوري ، في رحاب الصحافة وعشقها .

لم أمارس الصحافة ، وجرتني الظروف للاستغراق في العمل الهندسي الانشائي المتعب . ولكنني بقيت عاشقا وهاويا ومعجبا بها.

الصحافيون – وخاصة المبدعون منهم – هم الأرقى والأرحب والأكثر فائدة للشعب والوطن، والاكثر انتاجا"، لما يدوم على دوام الزمان.

الصحافة.. هي معنى ومبنى الحرية والتطور والاستدامة، في مواجهة الاستبداد والتخلف والظلامة.

تقلصت مساحة الصحافة المكتوبة في الآونة الأخيرة، بسبب التطور التكنولوجي الكاسح والانترنت، فتعممت المعلومات وتلخصت المقالات، تناغما مع وتيرة العصر المتسارعة زمنيا، وتقدم التلفزيون والسينما بشكل ساحق، ولكن.. شغف الكتابة والقراءة، وترميز المشاعر، وحرية الفكر، وتفرد الانسان ودواخل النفس البشرية، مازال لها ألقها واعتبارها.

أيها المثقفون والصحافيون في كل انحاء المعمورة.. أيها الشعراء والكتاب والرسامون والموسيقيون والسينمائيون والفنانون، أنتم معنى وعنوان الحياة لهذه البشرية المعذبة، فاصبروا وصابروا وثابروا.



أصواتُ فاوست

عبد اللطيف الحسيني

كاتب وشاعر سوري

حصلَ ما كنتُ توهّمتُه، انسلّ فاوست من المبنى ليشاركَ مع المُحتفلين وليحتجّ ضدّ غوته وبأنّه لم يبع نفسَه للشيطان، وأنه ها هو ذا يتمشّى في الأزقّة وبجانب الأنهار.

إنه يومُ المسرح العالميّ في ألمانيا التي تحتفل بالمسرح على طريقتها، أعني أنّ أكثرَ من ثمانين مليوناً يكونُ المسرحُ يومَهم، يتسلّقون السماءَ بحكايا بريخت وموسيقاه، مضافاً إلى هذه الملايين.... ضيوفاً قادمين من بلاد لم نسمع بها، بدءاً منّي أنا الحاملُ تغريبتي السوريّة التي تتماهى مع تغريبة بريخت الذي أسمعُ طقطقة عذاباته تتلوّى في قبره.

قيلَ لي بأنّ الألمان يتدرّبون على التمثيل والحركات والموسيقا طَوَالَ العام كي يخرج كلُّهم في هذا اليوم المعلوم مُمثّلين وعازفين ليحققوا نبوءةَ بريخت بأنّ المسرح جاء مُغيِّراً حياةَ الناس ومنحازاً لطبقات هؤلاء المعذّبين، شكرتُ بريخت سرّاً لأنّه مؤتمن على تعاليم ماركس "فالناسُ متساوون هنا في كلّ شيء".

الممثّلُ يتركُ دائرةَ الطباشير فجأة ليخاطبَ المُشاهدين "أنّكم في المسرح لا في الواقع، فكونوا يقظين ولا تتوهّموا مع شطحاتي". في بلاد الإغريق وجدتُ قبراً فوضويّاً مُلتصقاً بالأرض كالسلحفاة، سألتُ عنه: "لِمَن هذا؟" قيل لي: إنّه قبرُ أرسطو، فركلتُه بعدَما

ركلَه بريخت قبلي بمئة عام عابثاً مُتجّهماً بالحدث والزمان والمكان. هذا العبثُ البريختي يضاهي عبثيّة "في انتظار غودو."

حسناً فعلتم حين أبقيتم فاوست نصّاً لا يتعدّاه إلى إخراج مسرحيّ، فقط بريخت كان بمقدوره أن يضمّها إلى عالمه الملحميّ وجمهوره المُشارك في مسرحه لا المُشاهِد فقط.

شياطينُ فاوست معي قبلَ تغريبتي وأثناءَها وبعدَها، كنتُ أهجسُ: هل سألتقي بفاوست أو بأحد شياطينه؟ غيرَ أنّ ما أعايشُه هو أنّ مسرحَ فاوست يلتصقُ ببيتي، والألمان يخافون المرورَ بالمثلّث المُرعب الذي يحيط بهذا المبنى ليلاً. أحايين كثيرة أسمعُ عزيفاً وأصواتاً غامضةً وهامسةً تتحاورُ بجانب المبنى، خصوصاً حين تهجمُ عليّ كآبتي المزمنة مرافقةً بوحدتي وتغريبتي بما أنّي هاربٌ من بلاد جَبّت المسرحَ وكُتّابَه ومُخرجيه ومُمثّليه، لكن بقي معي "سعدالله ونوس" حميماً في هذه الوحشة" فالمسرحُ هو المكانُ النموذجيّ الذي يتأمّل فيه الانسانُ شرطَه التاريخيّ والوجوديّ، فقد ازدادَ العَالمُ وحشةً وقبحاً وفَقراً لأنّه دونَ مسرح. في يوم المسرح الألماني أمام أمواج البشر وقفتُ صائحاً: (إني أبيعُ فاوست، فَمَن يشتريه)؟

